نزهة الأصحاب
في
معاشرة الأحباب

تصنيف

مؤيد الدين أبي نصر السموءل يحيى بن عباس المغربي الإسرائيلي

المتوفى ٥٧٠ هـ

تحقيق وتعليق

أحمد فريد المزيدي

الناشر

دار الآفاق العربية

القاهرة

obeikandl.com

obeikandl.com

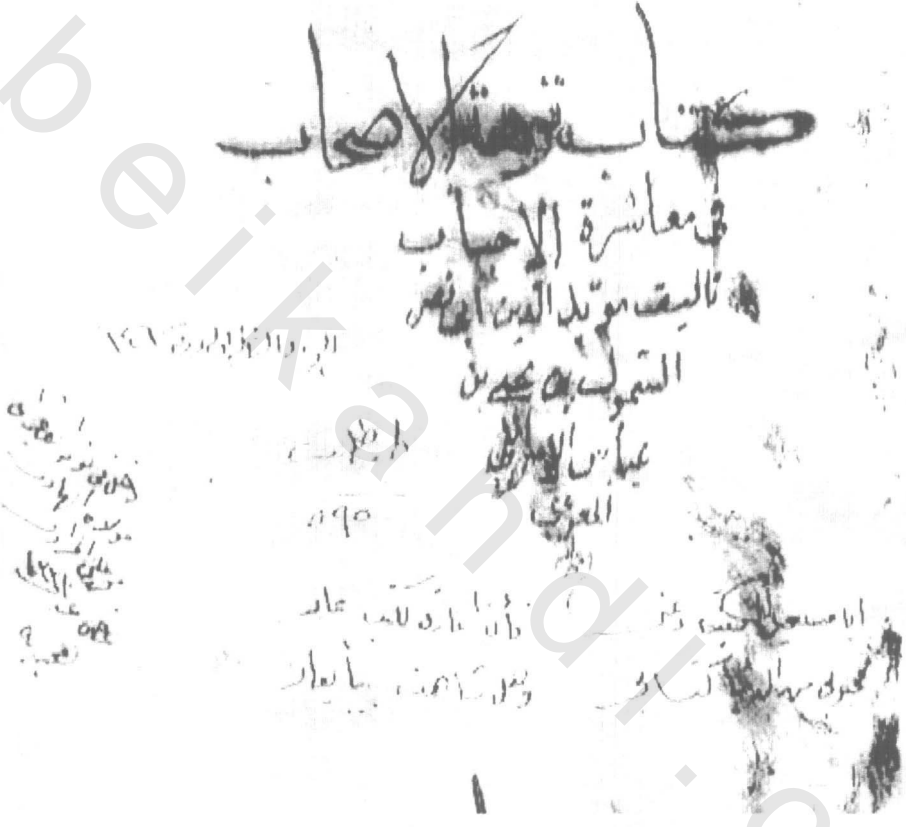
كتاب تحفة الأصحاب
في معاشرة الأحباب
تأليف مؤيد الدين أبي نصر
المتوكل بن محمد بن
عباس الإسرائيلي
المعزي

صورة الغلاف

الصفحة الأولى من المخطوط

الصفحة الأخيرة من المخطوط

obeikandl.com

مقدمة المؤلف

الحمد لله الذي جعل رحمته للمذنبين ملاذًا، وخلق لعباده آلامًا وملاذ، وفطر غرائز البشر على الصبوة إلى اتباع الشهوة، تسخيرًا لضعيفهم وقويهم وحكيمهم وأيهم في إقامة النسل، واستبقاء النوع، وكشف زواجر العقول بإفاضة الجمال على الصور وتحسينها، وبما قسم لها من ملاحة تزينها إظهارًا لقدرته في استحالة الكل إلى الانقياد لإرادته.

وصلى الله على رسوله الأمين، وحبيبه المكين محمد ﷺ خاتم النبيين، وعلى آله الأكرمين صلاة دائمة إلى يوم الدين.

وبعد فقد أجمعت على إنشاء كتاب جَدي هزلي أدبي طبي علمي عملي ندامي حِكمي؛ ليسعد بتصفحه أولو الألباب، ويتنـزه في رياضته الملوك والأصحاب، ويشتمل على فوائد جليلة الخطر في أسرار علم الباءة، وعملها، وتقديرها، وآدابها، وما يزيدها وينقصها، وعلل اختلاف أحوال الناس وأهوائهم فيها، ومداواة كل ما يقطع عنها من الأمراض البدنية والنفسانية مما يفتقر إلى علمه من عامة الناس العاكف على الباءة، والصادف عنها، ويحتاج إليه الملوك والرؤساء لتصونهم عن اطلاع الأطباء على العورات، وكراهيتهم على الخروج بأسرارهم إلى الحكماء، ويحتوي من آداب المعاشرة على ما لا يسع طريفًا جهله، ومن فنون المفاكهات ومختارات الأصوات والأبيات، وعجيب الحكايات ما يُلهي عن الهمِّ، ويُروح القلوب المسجونة بالغمِّ، ويسلي الشجي عن حزنه، ويؤنس الغريب النازح عن وطنه، ويوضح الشفاء للكلف المفارق لسجنه، ويحمد أثره في ترويح القلوب، ويعظم غناؤه عن المحب والمحبوب، وأنا أستخير الله جلت قدرته في تأليفه وتخصيصه.

جمل الجزء الأول وأبوابه:

الجملة الأولى: في منافع الجماع ومضاره.

الجملة الثانية: في تقدير الجماع.

الجملة الثالثة: في السَّبب الَّذِي لأجله رغب النَّاس في الباءة والعلة في التذاذهم به.

الجملة الرابعة: في تقسيم أسباب ضعف من يضعف عن الباءة، وعلامات ذلك.

وهي سبعة أبواب:

الباب الأول: في علامات من يقطعه عن الباءة سوء مزاج القلب.

الباب الثاني: في علامات من يقطعه عن الباءة سوء مزاج الكُلى.

الباب الثالث: في علامات من يقطعه عن الباءة سوء قلة المَنِيِّ.

الباب الرابع: في علامات من يقطعه عن الباءة ضعف أعصابه.

الباب الخامس: في علامات من يقطعه عن الباءة سوء مزاج الأنثيين.

الباب السادس: في علامات من يقطعه عن الباءة مرض جسماني أو نفساني.

الباب السابع: في ذكر ما يقطع الرجل عن الباءة من الأسباب المتعلقة بالمرأة.

الجملة الخامسة: في العلة في عفة من يكره أو يعاف جماع محبوبه.

الجملة السادسة: في ذكر العلة في عدولهم بالباءة عن المجرى الطبيعي.

وهي بابان:

الباب الأول: في ذكر العلة في إيثار بعض العقلاء الغلام على الجارية.

الباب الثاني: في ذكر العلة في إيثار بعض النسوان السِّحاق.

الجملة السابعة: في ذكر العلة في تشوق نفوس الشبان ذوي الأمزجة القريبة من الاعتدال إلى الاستكثار من الصُّوَر الجميلة بغير نهاية.

الجملة الثامنة: في ذكر العلة في اعتكاف العازف عن الباءة.

الجملة التاسعة: في جملة من الآداب.

الباب الأول: في أدب المحادثة.

الباب الثاني: في أدب المؤاكلة.

الباب الثالث: في أدب الشَّراب.

الباب الرابع: في أدب السَّماع.

الباب الخامس: في أدب المنادمة.

الباب السادس: في آداب المضاجعة.

الباب السابع: في أدب المجامعة.

الجملة العاشرة: في بيع وشراء الرقيق.

وهي خمسة أبواب:

الباب الأول: في ذكر وصايا ينتفع بها في البيع والشراء.

الباب الثاني: في أجساد الرَّقيق بحسب كل واحد منهم على مذهب الأطباء.

الباب الثالث: في تعرف الأخلاق لقياس الفراسة على مذهب الفلاسفة.

الباب الرابع: في معرفة أجناس الرقيق، وما يصلحون له من الأعمال.

الباب الخامس: في التحرز من تلبيسات النَّخَّاسين الَّتي يُدَلَّس بها في مواسم الرَّقيق على المشتري.

الجملة الحادية عشرة: في التزويج.

obeikandi.com

وهي أربعة أبواب:

الباب الأول: في الصفات المحمودة من النساء.

الباب الثاني: في الصفات المذمومة من النساء.

الباب الثالث: فيما يوصَى الرجل المُزْمع على التزويج.

الباب الرابع: في آداب العُرس.

الجملة الثانية عشرة: في اتخاذ الربيطات والحينات والطريفات المساعدات.

جمل الجزء الثاني وأبوابه:

الجملة الأولى: في ذكر المفردات المعينة على الباءة.

الجملة الثانية: في صفة أدوية وأغذية وطبائخ وحلاوات وأشربة مقوِّية على الباءة.

الجملة الثالثة: في ذكر الحقن والمسوحات والأطلية المعينة على الباءة.

الجملة الرابعة: في تدارك ضرر الباءة.

الجملة الخامسة: في علاج من نقصت قوته على الباءة لسوء مزاج خاص ببعض أعضائه.

وهي خمسة أبواب:

الباب الأول: في علاج من ضعف عن الباءة لسوء مزاج القلب.

الباب الثاني: في علاج من ضعف عن الباءة لسوء مزاج الكُلى.

الباب الثالث: في علاج من ضعف عن الباءة لقلة المَنِيِّ.

الباب الرابع: في علاج من ضعف عن الباءة لضعف أعصابه.

الباب الخامس: من ضعف عن الباءة لسوء مزاج الأنثيين.

obeikandl.com

الجملة السادسة: في علاج من ضعف عن الباءة لمرض جسماني أو نفساني، وهي أربعة أبواب:

الباب الأول: في علاج قروح الإحليل واتساع المجاري.

الباب الثاني: في سرعة الإنزال وبطئه.

الباب الثالث: في العشق وعلاجه.

الباب الرابع: في علاج خبث النفس لغمٍّ أو خوفٍ.

الجملة السابعة: في الحبل، وما يتعلق به.

وهي أربعة أبواب:

الباب الأول: في كيفية الإحبال.

الباب الثاني: في علاج من لا تحبل، وامتحاق العقيم.

الباب الثالث: في التحرز من الحبل.

الباب الرابع: فيما يسقط الأجنة.

الجملة الثامنة: في مداواة العذيوط.

الجملة التاسعة: في مداواة أمراض تختص بالرحم.

وهي سبعة أبواب:

الباب الأول: في تدبير المفتضة.

الباب الثاني: في معظمات الذَّكَر والمضيقات والملذذات والمسحات.

الباب الثالث: في تعرف مزاج رحم المرأة.

الباب الرابع: في مداواة النـزف والاستحاضة والسيلان.

الباب الخامس: في احتباس الطمث.

obeikandl.com

الباب السادس: في مداواة قروح الرَّحم وشقاقها.

الباب السابع: مداواة حكة الرحم وآفته.

الجملة العاشرة: في الأسباب القاطعة عن الباءة من جهة المرأة.

الجملة الحادية عشرة: في ذكر المفردات القاطعة عن الباءة.

الجملة الثانية عشرة: في تركيب أغذية وأدوية وأطلية تقطع عن الباءة.

فجميع جمل الكتاب أربع وعشرون جملة تشتمل على ستون بابًا.

* * *

obeikandl.com

الجملة الأولى من الجزء الأول

في منافع الجماع ومضاره

الجماع نافع للفتيات والشبان المعتادين له، وأصحاب الأبدان الجسيمة، والمعتدلة الخصيب، الواسعة العروق، والذين ينساق ألوانهم إلى الحمرة، وينفع أصحاب الجنون، والوسواس الَّذِين تسبب وسواسهم احتقان المَنِيِّ في أبدانهم، واستحالته إلى الكيفية الرديَّة، ومَن جنونه لفقد قرينٍ موافق، وخليل محبوب، والشبق الَّذِي استفزَّه الكَلَفُ بمن لا يقدر عليه.

وأمَّا نفع الجماع للفتيات اللواتي يعرُض لهنَّ المرض المعروف بـ «اختناق الرَّحِم»، واللواتي يعرض لهنَّ من إحساس المَنِيِّ صرعٌ وجنون هائج؛ فهو نفع لا يعادله غيره حتى أنَّه كالترياق السريع النفع لهذه العلل.

فأمَّا المشايخ؛ فيسرع بهم إلى الهرم والسقم، ويهدم بنيانهم، ويحدث بالناقة سوء مزاج، ويسوقه إلى المرض، ويعظم ضرره بأصحاب النِّقرس وعرق النِّسا، وأوجاع الظهر، وضعف البصر، ويضر بمن يجد خفقانًا في قلبه، واصفرارًا في لونه، ووجعًا في كُليتيه أو يبسًا في عينيه، ويستتبع غَور العينين ونقصان رطوباتهما، وصغرهما، ويذهب بنظر حسن العينين ورونقهما، وينكئ في أصحاب الجذام والسِّل والدِّق.

والإكثار منه ضار بمن كان صدره غير رحيب لاستعداده للسُّل، وما ذكرناه أثره في العينين لا يكاد يظهر إلا في أصحاب الأمزجة الضعيفة، وعند الإكثار منه واستدامة الإفراط فيه، ولذلك قال أفلاطون: «صاحب الجماع مُستمِد من ماء الحياة،

فإن شاء فليزد، وإن شاء فلينقص»[١].

ولبعض عقلاء المجانين:

لا تكثـــرنَّ مـــن الجـــماع فإنـــه مـــاء الحيـــاة يـــراق في الأرحـــام[٢]

وقال أبو العلاء المعرِّي:

وَالبـــاءُ مِثـــلُ البـــاءِ تَخـــ ـــفِضُ لِلـــدَناءَةِ أَو تَجُـــرُّ[٣]

فأمَّا المقدار القصد منه؛ فغير ضار بالشبان والكهول المعتادين له إذا هم راعوا علامات الضرر به، وتعمدوا به أوقات صدق شهوتهم له، وتجنبوه عند امتلاء المعدة بعد الاستحمام والرياضة المتعبة، وعَقِيب تناول الأغذية الغليظة، والأغذية الباردة، وفصل الصيف.

ومَنْ كان معتادًا للباءة وتركها فرُبَّما استرخت آلته، ونقص اقتداره على الباءة، وذلك أنَّ في استعماله على الدوام نوع رياضة للذكر، وتعويدًا للطبيعة، توفيرًا لمادة القوة على آلة التناسل، ونفعه لأصحاب الغمِّ على الوجه الذي يشفى به من لذعة العقرب، وهو شديد الضرر بالصائم واللغبِّ والجائع إلا أن يغلبه الطَّعام؛ فإن نام بعد الجماع

---

(١) انظر: «التمثيل والمحاضرة» لأبي منصور الثعالبي ص (٢٣٥)، و«محاضرات الأدباء ومحاورات الشعراء والبلغاء» للراغب الأصفهاني ص (٣٢٩٦).

(٢) البيت لابن المجلي الجزري في «الوافي بالوفيات» ص (٣٢٦٧)، وينسب لابن سينا في «وفيات الأعيان» ص (١٠٠٢).

(٣) البيت من مجزوء الكامل، وهو لأبي العلاء المعري في ديوانه من قصيدة مطلعها:

أُشـــدُد يَـــدَيكَ بِـــما أَقـــو لُ فَقَـــولُ بَعـــضِ النـــاسِ دُرُّ

على جوعه ذبل بدنه، وغارت عيناه، وهزل وشحب لون وجهه، وإن جامع ثم أفطر ثم نام ترهَّل لحمه وجفونه، وتكدَّرت عيناه.

وأحوال النَّاس في الباءة مختلفة كاختلافهم في غير ذلك من أحوالهم، فرُبَّ مترفٌ ضعيفُ البطش لا يستطيع مدَّ قوس ضعيف، وهو مع ذلك دائم الإنعاظ، يكاد يكسر الجوز بإحليله، ويفصل عن المرأة، وآلته على حالها في الصلابة، ورُبَّ نبيل جسيم حسن القدِّ واللون، وحاله على خلاف ذلك، ورُبَّ قصير ذميم شاري الجمار في عظم آلته وبالضد.

ومستند كثرة الإنعاظ إلى أمرين: اهتياج الشهوة من الكُلى، والثاني قوة الأعصاب، والسَّبَب الأوَّل هو الأصل، وأكثر ما يوجد من الشبان والأحداث لشدَّة شبقهم إلى الجماع، والدليل على هذا أن من كان ضعيفًا عن الباءة إذا استجد منكوحةً تعجبه وجد من قوته على الباءة زيادةً بيِّنةً لاهتياج الشهوة من الكُلى للتوقان إلى نكاح الحسناء الجديدة، وكلما علت السنُّ قَلَّ الانتفاع به، وكثر الضرر منه.

* * *

الجملة الثانية

في تقدير الجماع

إذا كان الفتى فيما بين البلوغ وبين اثنين وعشرين سنة؛ فهو في غايةٍ من القوة، وفي هذه المدة يسمى غلامًا؛ لأن الغلمة غالبة عليه، وشهوة المباضعة عالية مستنفرة له، وهذه المدة تحتمله للإكثار من الباءة، لا يتأذى الفتى فيها به أصلاً - أعني: أذى ظاهرًا.

أما الأذى الباطن لا ينفك عنه؛ لأنَّ الطبيعة وإن كانت تخلف من الأغذية عوض ما يحلل به، فإنه لن يفاوته؛ لأنَّ الجوهر الَّذِي خرج كانت الطبيعة قد حصلَّته بإنضاجٍ تامٍّ على المودة [والمحبة] قبل أوان الاشتغال بتلك المجامعة.

فأمَّا مَن جامع في ليلة عشرة مراتٍ أو أكثر من ذلك؛ فلا محالة أن الطبيعة تكون في فقر وفاقة إلى خلاف ما يحلل ويعوض عنه، فتستلب العروق الأغذية قبل كمال نضجها لتتغذى بها الأعضاء لشدَّة الحاجة إلى الغذاء لخلوها من الرطوبة الَّتي استفرغها الجماع والحركة العنيفة، فتكون الرطوبة واللحم وغير ذلك مِمَّا تتكلف الطبيعة غرامته دون الأوَّل في النُّضج والموافقة؛ فهذا هو المقدر الَّذِي يتطرق من الضَّرر على مَن كان فيما بين البلوغ واثنين وعشرين سنة إذا أكثر من الباءة.

فأمَّا ضرر الظاهر فلا يتطرَّق إليه بالإكثار ما دام صحيح اللون والبدن، لكنه يُكره الإفراط فيه؛ لأنه يُسرع خروج اللحية قبل أوانها، وتجعل لها من الوجه مكانًا كثيرًا، والإفراط فيه أيضًا من دواعي الهزال.

فأمَّا من كان بين اثنين وعشرين سنة وبين ثلاثين سنة؛ فأكثر ما ينبغي تناوله من الجماع مرتان، وغايته ثلاث مرات في كل يوم في زمانين متباعدين، إلا أنْ يكون الجماع مع محبوب معشوق؛ فإن الإكثار من غشيان المعشوق أنفع من الترياق الفارق مادام لا يجد شيئًا من علامات الضرر به، وقد تقدم ذكرها.

وأمَّا مَن كان بين ثلاثين سنة وبين أربعين سنة؛ فلا يصلح له أكثر من مرة، وأكثره ثلاث مرات في يومين.

فأمَّا مَن كان بين أربعين سنة إلى خمسين سنة؛ فلا يصلح له أكثر من مرتين في كلِّ ثلاثة أيام، وهذا هو المقدار الَّذِي إذا دام عليه لم يحدث منه ضرر.

وأمَّا من كان فيما بين الخمسين والستين؛ فإنه يحتمل في كلِّ أربعة أيام أو خمسة أيام مرة.

ومَن كان بين الستين والسبعين، وكان صحيح المزاج؛ فإنه يحتمل في كل شهر ثلاث مرات، وغايته أربع مرات.

ومَن كان فيما بين سبعين وخمس وسبعين؛ جاز له ذلك في الشهر مرة أو مرتين بحسب قوته.

ومَن كان بين الخمس والسبعين والثمانين؛ فيجوز له ذلك في السنة مرة أو مرتين، وإن كانت قوته وانبساطه صحيحين، وشهوته موجودة؛ جاز له ذلك في كل شهر مرة.

ومَن وصل إلى الثمانين؛ فلا يصلح له الباءة أصلاً، وسبيله أنْ يهجره هجرًا، فأمَّا هذا التقدير فهو ضعيف المزاج القريب من الاعتدال في قوة التركيب وضعفه.

وقد يتَّفِق من يكون في عمر السبعين، وهو في قوة أبناء الأربعين، فذلك يصلح له ما قد رتبناه لأبناء الخمسين وبالضِّد.

وقد يتَّفِق لبعض النَّاس أن يأتي عليه من عمره أربعون سنة، ولم يجامع كثيرًا؛ فذلك يحتمل حاله ما رتبناه لأبناء الثلاثين.

ومن النَّاس من يفرط في الباءة بحيث إذا بلغ الثلاثين سنة يكون قد جامع

جماعًا لا يتهيأ لغيره في مائة سنة؛ فذلك يصلح له ما رتبناه لأبناء الستين، وعلى أنه من أبناء الثلاثين، فافهم ذلك.

ودخل إليَّ بقلعة «روسد» - حماها الله - في شعبان سنة اثنين وستين وخمسمائة شيخٌ من كبراء حُجَّاب أتابك - نصرة الدُّنيا والدين، أدام الله سلطانه - يقال له: الحاجب ماهرو، وكان قد وصل إلى الثمانين سنة، فشكى إليَّ مرضًا كان به، فتقدمت إليه بما رأيت أن يصلح معالجته به؛ فسألني عن الجماع هل يضره أم لا؟ وما كنت أتوهم، ولا يسبق إلى ظني أنَّ مثل ذلك الشيخ الهرم يحدّث نفسه بالجماع، وهو مريض، فلمَّا نهيته عنه؛ قال: إنَّه لا يمكنني ذلك؛ لأنَّ عندي عشر جوارٍ، إلى أي جهة حولت وجهي في داري أرى وجهًا صبيحًا، وطرفًا مفتانًا، وقدًّا يقيم عليَّ حدًّا أو جارية تقيم قيامتي بقامتها، فلو عاينت تلك العيون لعذرتني إذا لم أتوق المنون.

فقلت: إنك شيخ مفتون، ولولا مراقبتي شيبته لا هيَّبته لأسمعته عوض المفتون مجنون، أما تشفق على هذه الحشاشة الَّتي قد قرب منها أوان الانطفاء؟ أما ترحم هذه البنية العجفاء؟ أما يشغلك ما كلفته وبلغته من مشقة الهرم المشفِّ، والسُّقم المُدنِف، وإدبار الطبيعة، وعجزها عن القيام بما دهاها، ومقاومة ما آذاها عن مغازلة الفتيات، ومعالجة الجاذبات التركيات، وتعاطي ما لا قبل لك به؟

فقال: ليس لي إلى ترك ذلك سبيل، فعجبت منه ومن حاله، ولم يمض إلا أيام قلائل حتى بلغني خبر موته، فترحمت عليه، وتذكرت ما قاله بعض الحكماء إذ يقول: لا ينبغي للشيخ أن يتخذ طباخًا حاذقًا، ولا جاريةً حسناء؛ لأنه يكثر من الطَّعام فيسقم، ومن الجماع فيهرم.

ولذلك يؤكد الوصايا بأنَّه لا ينبغي لكل من يبلغ ثمانين سنة أن يقتني جاريةً

حسناء، ولا امرأة جميلة، ولا غلامًا صبيحًا ذا ملاحة، هذا إذا كان المزاج في غاية الصحة، وأصل التركيب في أكمل القوة، فأمَّا إن كان المزاج ضعيفًا؛ فإن صاحبه ينبغي أنْ يفطم نفسه عن ذلك منذ الستين سنة.

* * *

obeikandl.com

الجملة الثالثة
في السَّبَب الَّذِي لأجله رغب النَّاس في الباءة
والعلة في التذاذهم به

اعلم أنَّ أشد الموجودات في عالم الاستحالة إحساسًا باللذة والألم هو الإنسان، وذلك أن النبات له حياة ما بها بقاؤه ناميًا مغتذيًا مُوَرِّقًا فموَرِّدًا فمُثمرًا، إلا أنه ليس من شأن النفس النباتية أن تشعر بالملائم، ولا بالمؤذِى المفسد لصورتها، فأمَّا الحيوان غير الناطق؛ فإنه يشعر باللذة والألم لكنه لا يشعر بشعوره.

والإنسان يشعر بالمُلِذِّ والمؤلِم، ويشعر بشعوره بكل واحد منهما، فصار له بشعوره باللذة لذة زائدة في حال الالتذاذ، وصار له أيضًا بشعوره بالألم ألم زائد، لا يساويه في هذين شيء من الحيوانات، وأيضًا كما لكلِّ واحدٍ من هذه الأجسام النباتية والحيوانية والإنسانية هو بلوغه إلى حدِّ الإيناع والإثمار، وأن يفضل من رطوباته ما تستفضله الطبيعة وتُصفيه منه ليكون هيوليا وبذرًا لمثله ليصدر عنه مثله؛ لأنه لما استحال البقاء الدائم لهذه الموجودات المضمحلَّة بأشخاصها، واستحال أيضًا أن يفنى أنواعها؛ انتزع من كل واحد منها ما يحيا بالتربية مثله، ليكون خلفًا منه إذا اضمحل وفني بالموت.

ولما كانت الآفات المفسدة للبذر والخَلَف كثيرة في حال قبوله للصورة، وفي حال قبوله وبعد قبوله، وكانت الآفة رُبَّما عرضت له، فمنعت من كماله، انتُزِعَت الطبيعةُ بإذن الله من كل واحد من هذه الأشخاص في عدة مرات ما لو سَلِمَ من الآفات، وقبل الصُّورة، وكمل؛ لكان أضعافًا كثيرة للصورة التي صدر عنها.

واعلم أن هذا البذر الَّذِي يقبل الصُّورة إنَّما يصدر عن الشجرة أو الحيوان في الوقت الَّذِي يكون فيه على أكمل حالاته، وأتم صحته.

وأمَّا الحيوان فلا يوجد منه النشاط للفساد والهيجان له إلا إذا كان بدنه خصبًا، ولحمه غزيرًا، وصحته كاملة؛ فحينئذ يبتدئ به الهيجان للفساد، وكذلك الإنسان المريض إذا كان به نوع من أنواع سوء المزاج لا يكاد يحبل منه أصلاً، فقد تبيَّن لك أن خروج البذر من الشجرة والحيوان إنَّما هو كمالها، والحال إنَّما هو يتهيأ لها مع السلامة من العلل والأدواء الرَّديئة.

فأمَّا النبات؛ فإنه يثمر في السنة مرة واحدة أو مرتين، لا بإرادة، ولا في وقت غير معين.

وأمَّا الحيوان؛ فله أن يوجد نفسه هذه الحالة، وأن يستفضل بذره، ويخرج منه بالفساد بإرادته مرات غير محصورة، ومن شأنه أن يشعر لهذه الملائمة فيلتذ.

وأمَّا الإنسان؛ فإنه أقوى الحيوانات على المباضعة، وأكثرها مَنِيًّا لاعتدال طباعه، ووفور القوة المولدة للمَنِيِّ في بدنه، وليس في الحيوانات الكبيرة الأجسام ما يقوى على الباءة كقوته؛ فإن الجمل الهائج والحصان الموذق إذا ألقى مَنِيَّه في وعاء الأنثى مرة أو مرتين في يوم انكسر نشاطه، فإن هو أدام على ذلك خمسة أيام يقفز في كلِّ يوم ولو مرة واحدة؛ غارت عيناه، وعظم ضرُّه وهُزاله، والفتي من النَّاس رُبَّما جامع في كل ليلة ثلاث مرات، وبقي على ذلك سنة لا يزداد إلا قوة وجمالاً، وخصبًا في بدنه، وإنْ أخلَّ في الجماع ليلتين متواليتين؛ فرُبَّما احتلم.

فأمَّا إنْ كان فيما بين الأربعة عشر عامًا والتسعة عشر عامًا؛ فرُبَّما جامع في أول الليل مرتين، واحتلم في آخر الليل مرتين، وهو أدل دليل على رطوبة مزاج الآدمي، وقوته على الباءة، وتوليد طبيعته للمَنِيِّ أكثر من سائر الحيوانات؛ فصار للإنسان من الالتذاذ بالجماع ما ليس لشيء من الحيوانات مثله، لشعوره بهذه الحالة الملائمة،

وشعوره بشعوره بها، وقد بقي لنا أن نبين ما هذه الملائمة؟

فنقول: إنَّ القوة المحسَّة مسكنها العصب، وإنَّ هذه القوة الحساسة تجري في هذه الأعصاب باتصال، وهذه الأجسام المتصلة التي هي الأعصاب بينها من المشاركة والاتحاد ما هي جملتها به كشيء واحد، فسائر أعصاب البدن صغارها وكبارها متصلة كأنها شيء واحد - أعني: كأنها شجرة واحدة - فأي موضع تألم منها أو غلب عليه كيفية مفرطة الإحالة؛ فإن الحس الذي في ذلك العصب يؤدِّي ذلك إلى سائر الأعصاب، ومن المعلوم أنه إذا دعت بعض المُتطببة الحاجة إلى وضع دواء حادٍّ على قرحة؛ فإنه يتجنب أن يكون قريبًا إلى بعض الأعصاب؛ لأن الدواء الحاد إذا دام على العصب حدث منه التشنُّج، ولست أعني بالتشنُّج تشنجًا في ذلك العصب وحده بل في أكثر الأمر يحدث التشنج في سائر الأعصاب أو أكثرها، ويؤدِّي ذلك إلى الموت.

وكذلك من وجد في أعصابه يبسًا، فيدهن ببعض الأدهان المرطبة؛ فإنه يرطِّب أعصابه، وذلك الدُّهن لا يضعه على الأعصاب؛ لأن الأعصاب مستورة في داخل البدن، وإنما يُلقى الدهن على الجلد الذي هو نهاية الأعصاب، فيحصل للجلد به أدنى رطوبة، ولست أعني بهذه الرطوبة أنه يدخل إلى داخل الجلد رطوبة أو مقدار من الدهن؛ فإن الدهن إنَّما يدخل إلى باطنها إذا كانت يابسة قحلة جافة، فأمَّا إذا كانت ليِّنة فلا، وإنما يكتسب الجلد من الدهن لينًا ولذوبةً؛ فيسري اللدونة في الأعصاب من الجلد، ويتصل أثرها بسائر الأعصاب.

وهذا أمر عجيب من حال العصب على أن كل أمور الأعصاب عجيبة إن شئت تحريكها للأعضاء، وإن شئت إدراكها وإحساسها وتأديتها محسوساتها إلى العقل؛ فلما كانت هذه حال الأعصاب في أنه إذا اتصل ببعضها مؤلِم أو ملائم، شاركته في الألم

أو الانتفاع بقية الأعصاب، وكان العصب يلتذ بالحرارة والرطوبة؛ لأنها تلائمه، إذا كان العصب باردًا يابسًا صار الذَّكَر الذي هو عضو عصبي إذا انحصر في شيء من الأجسام الدَّسمة اللَّينة النَّاعمة اللَّدنة التي لا تنفك عن الرطوبة الدَّسمة، والحرارة المعتدلة، يجد بهذه الحال الملائمة لذة، والقوة المحسَّة تؤدي هذه اللذَّة إلى سائر الأعصاب؛ فتستولي على الإنسان بهذه اللذَّة ما لا يجده في لذة أخرى.

فأمَّا لِمَ كان إذا حدث هذا الاحتكاك بالجسم اللين الحارِّ الرطب الدَّسم واللَّزج، خرج المَنِيُّ من البدن؛ فهو أن هذا العضو يتصل بمجاري المَنِيِّ، فإذا ترادف عليها الاحتكاك بالجسم الملائم، أكسبه ذلك حرارة؛ لأن كل جسمين يحكّ أحدهما الآخر؛ فلا بدَّ من أن يكون من احتكاكهما حرارة، وتلك الحرارة تُسخِّن مجرى المَنِيِّ، وتفتحه، وتُحدث فيه اختلاجًا، فتصل تلك السخونة والاختلاج إلى أقصى مجاري المَنِيِّ، فتنفتح جميعًا، فعند ذلك، إنْ كان ذلك المَنِيُّ معدًّا أسرع خروجه، وإنْ لم يكن معدًّا أبطأ الإنـزال حتى ينجذب المَنِيُّ من مَعِدته، ويقع إلى المجاري، وهذا الاحتكاك إنَّما يحتاج أن يكون بجسم معتدل بين الصلابة واللين؛ لأنه إنْ كان صُلبًا كان مؤلمًا، وإن كان في غاية اللين لم يحصل به الاحتكاك، وإنْ كان باردًا لم يحصل به ملائمة إلا لأصحاب الدِّق.

والذين يغلب على أعضائهم الاسترخاء والحرارة؛ فإن هؤلاء متى جامع أحدهم ذات رحم كثير السُّخونة لم يجد لذة؛ لأنه غير ملائم له، فلا يلبث بعد قوة الإنعاظ أن يسترخي الذَّكَر للحرارة التي يلقاها؛ فهؤلاء وأمثالهم إنَّما يلذهم أخلاط ذوات الأرحام الباردة، وأوفق ما باضعوا الجواري التركيات ذوات البياض السَّاطع،

والأبدان الخصبة، ولا سيما الففحاق[1]؛ فإن هذا النوع من الرقيق ذوات أرحام باردة، وهذا دليل كاف على أن العلة في الالتذاذ بالجماع ملاقاة العضو الحساس بجسم ملائمه.

وهاهنا سبب ثانٍ في الالتذاذ بالجماع لا يتعلق بالأعصاب إلا أنه لا يخرج عن كونه إحساسًا يلائم، وهو أنه إذا اجتمع من مادة المَنِيِّ في أوعيته، ومن الرطوبة في الأعضاء المجاورة للأعصاب مقدار كثير، كان ذلك كَلاً وثقلاً على تلك الأعضاء؛ لأنه جسمٌ رطبٌ، فله ثقل على كل حال، ولا سيما أن تلك الأوعية رقيقة لطيفة يثقلها اليسير، وهذا إنَّما يتَّفِق إذا كانت الرطوبة والدم قد كثرت في البدن، فإذا وقع الاحتكاك بالجسم الملائم للأعصاب، وانفتحت مجاري المَنِيِّ انصب إلى مجاري المَنِيِّ جملة صالحة، ورُبَّما وقع بعضه إلى المجاري فصادفها في غاية الانفتاح والسعة فجرى فيها، وإذا وقع إلى هذه المجاري، وهي عصبانية ثقلت، وارتخت بوقوع المَنِيِّ فيها، واختلجت اختلاجًا يستدعي التزريق بل يوجبه، فإن اختلاج باطن المجاري بالضَّم والفتح هو علَّة التزريق؛ فإذن في حال التزريق يتَّفِق في زمن واحد راحتان.

أعني: حصول الملائمة من وجهين:

أحدهما: احتكاك الذَّكَر بالجسم الملائم.

والثاني: الراحة بإخراج الثقل الذي أثقل المجاري.

فإنَّ رَمي المُثقل من أعظم اللذات، ألا ترى لو أنه حمل إنسان حِملاً لا ينهض به لكان إذا اشتد به الإعياء يلتذ برمي ذلك، وإلقائه عنه أعظم لذة، ومما يشبه ذلك حال الحاقن الذي قد ضغطه البُرَازُ، ونهضه ثقله، وقد كانت أمعاؤه السفلى مملوءة من البراز

(١) هكذا بالأصل.

ثم انصب من الأمعاء العليا ريح، وتبع تلك الريح برازٌ آخر من الأمعاء العليا، فلم تبق لها طريق إلى الصعود، والثقل من فوقها يحفزها؛ فيضطر إلى دفع البراز السفلي أشد دفع فيلتذ من دفع إلى هذه الحال بالبراز كما يلتذ المجامع بالجماع وأكثر، وهذه الراحة الموجودة في إلقاء الثقل، وأيضًا؛ فإن المَنِيَّ وإن لم يكن ثقيلاً أو كثيرًا كالبراز؛ فإن قلَّته على قدر ضِيق المجاري، ولطافته على قدر لطافتها، فهي للطافتها وضيقها تجد به من الثقل ما تجده الأمعاء بالبراز؛ فإذا خرج عنها، وجدت في خروجه الملائمة المُلِذَّة.

ومن الأسباب الباعثة للناس على الجماع محبة النفوس بالطبع للأشياء المتناسبة التي تتوالى فيها الأشياء المتشابهة، وتتخللها الأضداد التي يُظْهِر بعضُها حسن بعضٍ، وهذه الصِّفات توجد في نقرات الموسيقى، وفي الوجوه الحسان؛ فلذلك صار الجماع تميل إليه نفوس الناس.

ولما كان الحيوان العادم للقوة المميزة لا يحس بالفضيلة التي في الموسيقى، ولا يهتز للطرب، لما خُصَّ به من فضيلة التميز يطرب له، ويحبه؛ صار من الناس أقوى حسًّا، وأذكى طبعًا، وأشدهم طربًا للسماع، والتذاذًا بالموسيقى.

فأما الوجوه الحسان والصور الجميلة؛ فقد اجتمع فيها من الحكمة البديعة والآيات العجيبة ما لم يجتمع في شيء سواها، وذلك أنَّ في جمل الأعضاء التناسب الذي كان عليه المحبة للموسيقى، ثم في شكل كل واحد منها تناسب آخر، ثم فيها الألوان المختلفة والمتضادة التي يظهر بعضها جمال بعض.

ثم أعجب من ذلك كله أن فيها طلسمية خارجة عما ذكرناه بقوة فلكية متصلة، فلا يتمالك القلوب إذا عاينتها الأبصار أن تنجذب إليها، فترنو النواظر نحوها، فإن كان مع الجمال البارع لباقة في الحركات، وظرافة في المعاطف، وحلاوة في الشمائل؛ فقد

انضم إلى التناسب الذي ذكرناه، والطلسمية التي ذكرناها، لسحر العيون أن تنظر إلى غيره، والقلوب أن تفكر في سواه، والهمم أن تميل إلى غير الاتصال بتلك الصورة ومخالطتها؛ فإن تبع ذلك نَغَمة حادَّة وألفاظ عذبة، ومنطق عذب كان سحرًا ثانيًا.

وإن انضاف إلى ذلك موافقة في الأخلاق، وحسن معاشرة، وذكاء وفصاحة أو بلاغة، وسرعة جواب صائب، كان ذلك طلسمًا ثانيًا لصيد القلوب، فتجتمع من ذلك مع أسباب الطَّرف طلسمان وسحران، ولا بقاء للرأي والعقل بين ذلك، ولا استمساك له عن مواصلة صاحب هذه المواصفات أو بعضها بحسب اقتناع الهمم الصَّغيرة بالبعض، وعلو الهمم الكبيرة التي تطلب الكمال المذكور، وإذا قد بيَّنا أن الصور الجميلة، والوجوه الحسان هي أعجب شيء في عالم السفل لما اجتمع لها من التناسب الملائم، والسحرين والطلسمين الَّذَين لا يوجد أحدهما في سواها، فبحق ما كانت أَنْفَسَ موجودٍ في عالم السفل.

ولقد أحسن القائل في قوله: «النظر إلى الوجوه الحسان عبادة».

ولو ذهبت إلى شرح ما في هذه الكلمة من الحكمة، وإقامة البرهان على صحتها لكان ذلك يحتاج إلى مقالة مفردة.

وكذلك قوله ﷺ: «**حُبِّبَ إليَّ من دنياكم ثلاث: الطيب، والنساء، وقُرَّة عيني في الصلاة**»[1].

فإن شرح الحكمة في ذلك يحتاج إلى كتاب قائم بذاته، ولَمَّا لم يكن في أنواع المواصلة أتمَّ مواصلة من الجماع؛ لأنها مواصلة ظاهر البدن وباطنه، اشتاقت النفوس المشغوفة بالصور الجميلة إلى مجامعتها، ولَمَّا كان الالتذاذ بالجماع سريع الزَّوال

(١) رواه أحمد في مسنده (٣/ ١٩٩)، والنسائي في سننه (٧/ ٦١).

والانقضاء، وكان انقضاؤه طبيعيًا من غير إرادة المجامع، صار كثير من الناس يلتذ بغير الجماع من المواصلة أكثر من التذاذه بالجماع، وذلك هو العناق والبَوس والضَّم واللثم والمغازلة والمضاحكة والمعاركة، وليس ذلك عبثًا من متعمِّده، ولا سفها من القاصد له، ولكنه بهذه الأحوال يستدعي إلى ظهور الحركات العجيبة الحسنة الجميلة من الصورة الجميلة، لعلمه بأنه إذا اعتمد مع تلك الصورة، وما ذكرناه من الدَّغدغة والمُضاحكة والمُعاركة ظهر منها من الحركات الجميلة، والنغمة المطربة، ما يزداد به جمالاً، وتزداد نـزهة وتعجُّبا مِمَّا يراه.

فأمَّا من يعتمد شيئًا مِمَّا ذكرناه مع صورة ليست ذات جمال رائع، فليس من العقل في شيء، وإنما هو مغتلم قد استفزَّه الشَّبَق؛ إمَّا لأنَّه لم يكن قبل ذلك قادرًا على الجماع والخلوة بشخص ما، وإمَّا أنَّ أعضاء نسله كانت مملوءة بالمَنِيِّ فهاج كما يهيج الذكور من ذوات الأربع، عافانا الله من مثل هذه الحال.

وقد تختلف طباع الناس في الرضا بالدُّون والكراهية له، وقوة تصورهم للصورة الغائبة عن أبصارهم حتى أنَّ منهم من رُبَّما جامع المرأة الحسناء، فإذا وجد من آلته فتورًا أو استرخاءً تصوَّر في خياله أنه يجامع امرأة أخرى غير التي تحته، أحسن صورة من التي عنده، وممن قد تكرر رؤيته لها من النساء، وانطبع شكلها في خياله، وأنه مجرد قضاء أكثر الأمر؛ لأنه يجد قوة في آلته، وإنعاظًا في ذَكَره لم يكن يجده قبل ذلك.

ولهذه العلَّة صار أكثر النُّسوان اللواتي قد عرفن من أنفُسهن قُبح الصورة أو علو السن إذا جامعهن إنسان سترن وجوههن، يظهرن أن ذلك من الحياء المستولي عليهن، وهيهات ذلك، إنَّما غطين مخازيهن، وسترن من قُبحهن ما يعلمن أنَّ مباشِره

يصير الناكح له مؤدٍّ إلى فتورٍ، واسترخاءِ متاعه، ويئول بآخره إلى القِلَى[1] والملال.

فأما إذا اتَّفق مع جمال المنكوحة جمال الناكح وطراوة سنِّه؛ فإن لذَّة التناكُح تتضاعف؛ لأنه إذا عَلِم بالتذاذ المنكوح، وأنَّ له لذَّة منوطة بلذته تضاعف التذاذه بالباءة؛ فهذه أيضًا حال أخرى زائدة في التذاذ الأحداث والشبان بالباءة.

* * *

(١) القِلَى: البغض؛ قَلَيْتُه أقليه قِلًى شديدًا [لسان العرب (قلى)].

obeikandl.com

الجملة الرابعة

في تقسيم أسباب ضعف من يضعف عن الباءة وعلامات ذلك

وهي سبعة أبواب:

الباب الأول من الجملة الرابعة

في علامات من يقطعه عن الباءة سوء مزاج القلب

فمن ذلك خفقان القلب بقوة عَقِيب الجماع، فإن كان مع ذلك الشَّعر النابت على الصدر قليلاً، وكان المَنِيُّ عند تزريقه قليل الحرارة، فذاك من قِلَّة الحرارة المنبعثة من القلب، وإن كان المَنِيُّ شديد الحرارة، وتزريقه قويًا، وعلى صدر الرجل شعر كثير، وشعر إبطه أيضًا وافر، وعَرَق إبطه كثير، فذلك دليل حرارة القلب، فإن كان صاحب هذه الصِّفة ضعيفًا عن الباءة، وكان يلتذ بالهواء البارد والماء البارد عند الجماع، ويخفق قلبه قبل الجماع أكثر من خفقانه بعد فافته من شِدَّة حرارة القلب، وغلبة البخار الدُّخاني عليه.

* * *

الباب الثاني

من الجملة الرابعة

في علامات من يقطعه عن الباءة سوء مزاج الكُلى

اعلم أن الباري جلَّت قدرته جعل الكُلى محل شهوة الجماع التي هي الأصل في الباءة، فمتى ضعف مزاج الكُلى ضعفت الشهوة، ونقصت قدرته على الباءة والشوق إليه، وقلت رغبة الإنسان فيه، فإن كان سوء مزاجها عن حرارة ويبس.

فعلامة ذلك: شِدَّة المَنِيِّ، وقِلَّة مقداره، وصداع يعرض في بعض الأوقات، وألم في نواحي الكُلى، وهذا العرض أكثر ما يتَّفِق عَقِيب الحرارة والأسفار الطويلة، أو عَقِيب الجماع المتواتر، وإن كان سوء مزاجها عن برد.

فعلامته: التألم في ناحية الكلى عند أكل المآكل، والأغذية الباردة أو عند شرب الماء البارد، ويكون المَنِيُّ مع ذلك باردًا في ملمسه.

* * *

الباب الثالث

من الجملة الرابعة

في علامات من يقطعه عن الباءة قِلّة المَنِيِّ

إذا غلب اليُبس على البدن، ونقصت رطوباته؛ ضعف صاحبه عن الباءة وتأذى به.

وعلامة ذلك: بطء الإنـزال، وقِلَّة المَنِيِّ إذا ثنَّى وثلَّث، وغور العينين، ورداءة اللون عَقِيب الجماع.

الباب الرابع

من الجملة الرابعة

في علامات من يقطعه عن الباءة ضعف أعصابه

اعلم أنه إذا ضعفت الأعصاب أو أحدها؛ ضعف الإحليل لاتصاله بأعصاب البدن، وإذا ضعف العصب زالت صلابته، واسترخى، وعدم التلذذ الذي به يكون قوته، وصار متحلحلاً.

فعلامة هذا: قِلَّة صلابة الذَّكَر، وأنه في وقت إنعاظه يكون أقل صلابة من المعهود، ويتبع ذلك قِلَّة القوة، ونقصان شِدَّة البدن عن المعتاد.

* * *

الباب الخامس
من الجملة الرابعة
في علامات سوء مزاج الأُنثَيَين

اعلم أنَّ الباري جلت قدرته خلق في الأُنثيين قوة معينة على جذب المَنِيِّ، وبها يصير المَنِيُّ إلى البياض، فإذا أضعفت القوة التي في الأنثيين لسوء مزاج أو ورم؛ صار لون المَنِيِّ إلى الصُّفرة، فكانت رائحته غير ذكية، ولا موصوفة بالطيبة، فأما إذا كان مزاج الأنثيين معتدلاً، والقوة التي فيها وافرة.

فإن المَنِيَّ يكون شديد البياض، وتكون رائحته شبيهة برائحة بزر النخل الذَّكَر الذي يلقِّح إناث النخل أو رائحة ورد السوسن، هذه رائحة مَنِيّ الرجل المعتدل الحال في صحته وتدبيره؛ فأما ورم الأُنثيين، وتألمها باللمس فمن العلامات الظاهرة.

obeikandl.com

الباب السادس من الجملة الرابعة

في علامات من يقطعه عن الباءة مرض جسماني أو نفساني

الأمراض القاطعة عن الباءة هي أمراض العصب، وأوجاع الظهر، والقضيب، والكُلى، ولا سيما هزال الكلية أو قروح القضيب؛ فإنها أضر الأمراض على صاحب الباءة؛ لأنها تضعف الإحليل الذي هو الآلة التي يفتقر إلى قوتها.

وقروح الإحليل تعرف بأحد ثلاثة أشياء:

إما إحساس بألم وحُرقة في موضع واحد من القضيب، وذلك عند الابتداء وقبيل الانفجار، ثم يسكن الألم بعد الانفجار، وهو علامته، ورُبَّما تعاهد المكان في الأحيان كالناخس بغير مكث.

وإما ظهور مادة يسيرة في فم الإحليل يكشف فاه، ويحف عليه، ويتثبت به، فلا يقلِع عنه بغير ألم إلا بالتؤدة والتأني، وأكثر ما يظهر ذلك بعد النوم الأطول، فترى مَن دُفع إلى هذه الحال مفتقرًا قبل الجماع وقبل البول إلى بلِّ رأس إحليله في اللطف بفتح فِيه، وإماطة الأذى اليابس عنه؛ لأنه إن أهمل ذلك وخرج البول أو المَنِيُّ من أوعيته، فلم يصادف مخرجًا، فهقر في مسلك ضيق، فأحدث لذعًا وحرقة، وهذه الحال إنما تعرض في وسط الأمر، ورُبَّما طال مكثها الحول والأكثر، ولا سيما إذا لم يُعرض لعلاجها.

وصاحب هذه العلَّة إذا تعشَّى باللبن، وأصبح فعصر الإحليل كأنه يسوق ما فيه إلى الخروج خرج القيح من رأس إحليله وعاينه، ويتبعه التصاق كالالتحام يعرض في باطن مجرى القضيب كل يوم.

وعلامته: أنه إن لم يفرك الإحليل، وينثر برفق لم يخرج المَنِيُّ والبول خاصة إلا بحرقة أو ألم، ويخرج البول في أكثر الأمر منقسمًا كأنه من ثقبين، وهذا إنَّما يكون بعد

توسط المرض، وهو أكبر أسباب استرخاء الذَّكَر، ولا سيما إذا عُتق، على أنَّ أكثر الأمراض الجسمانية قاطعة كأصناف سوء المزاج والحميات.

ومنها ما يقطع عن الباءة بالسياسة لا بالقدرة كالنِّقرس، ووجع الكُلى، وأوجاع العينين، والقلب والزُّكام.

وأما المرض النفساني القاطع عن الباءة فالعشق المبرح.

ومن علامته: كثرة السهر، والأنفاس المتصاعدة، وتُسمى زفرات.

* * *

obeikandl.com

الباب السابع من الجملة الرابعة

في ذكر ما يقطع الرجل عن الباءة من الأسباب المتعلقة بالمرأة

فمن ذلك: أن يكون عند الرجل امرأة واحدة مريضة ببعض الأمراض المانعة من مباضعتها؛ فيضطره ذلك إلى إغياب غشائها، وقِلَّة الالتهام بها فتعتاد طبيعته قِلَّة الحاجة إلى المَنِيِّ؛ فيقل تولده في بدنه، ويقل إنعاظه؛ لأن في حركة الذَّكَر بالجماع نوع رياضة للذكر يكون له بها إنعاش، وقوة إذا لم يتجاوز المقدار الملائم، فإذا هجر الرجل مدة؛ فقد الذَّكَر تلك الرياضة، وألِفت الطبيعة قِلَّة الحاجة إلى توليد المَنِيِّ فقل توليدها له؛ فكان ذلك سبب قِلَّة الإنعاظ، وقِلَّة الانتشار؛ فهذا معنى قول القائل:

إن هـــــو إلا كالـــــضِّرع إن حلبتـــه درَّ وإن تركتـــه قـــرَّ

ومن ذلك: علو سن المنكوحة؛ فإنه وإن كان النكاح عند قوم أفضل من عبادة النفل؛ فإن الصلاة على الجنائز أفضل من نكاح العجائز، ومن دُفع إلى نكاح عجوز، فلا لوم عليه إذا هجر الباءة، وقال بتركه، ولم ينخرط في سلكه، وكيف لا يكون كذلك وقرينته عجوز قد ذهب شبابها، ونصل خصابها، وصارت كالسعلاة أو الثعبان أو كقضيب البان، فهي لا تزال تبهرج نفسها على قرينها، وتخفي معايبها على ضجيعها، بما تعتمده من ملازمة الخطاط والخضاب والحمرة والغمرة والغسول المزيل للكَلَف والسُّمرة والمواظبة على التكحُّل بالإثمد المسود، وتناول ما ينقص اللمم الحادث عن علو السن، وتطييب النكهة التي خبث ريحها لتصاعد البخارات الدخانية.

فليت شعري كيف تخفي الكبر الواضح من نغمتها، وأين تذهب بهزال خديها، ورقَّة جلدها، وظهور سالفيها، ويبس عينيها، وهزال مآقيها، واسترخاء ثديها، وتحلحل لحمها، وعظم حلمتيها، وظهور عظم حاجبيها؟!

هيهات، ليس التكحل في العينين كالكحل، والله عند سفور اللثام، واستماع الكلام يبين الصبي من المُتصابي، فأما الضَّمَّة واللثمة فيعربان عن حقيقة أمرها، ويدلان على ما مضى من عمرها؛ فإن كان زوجها شابًّا ذا مروءة وحياء استولت عليه، وحصرته، واستطالت عليه فأسرته، وذلك أنها تحتوي على درهمه ودينار وجميع شعاره ودِثاره، وتستجرُّ ماله سرًّا وجهرًا، وتوهمه نقصان دخله عن خرجه لينطوي من ذلك على غمٍّ دائم، وفكر ملازم، فيشغل بذلك تفقد حالها، وينقطع به عن التفرغ لاستبدالها، ورُبَّما ألجأته إلى اقتراض، لعلمها بما في الاستدانة من الاستكانة، وهي مع ذلك توهمه عظيم النصيحة، وتمُنُّ عليه بالشفقة والكفاية التي تدعيها، وأن قوام منـزله وعمارة بيته بوجودها فيه، وتظهر مع ذلك التشكي من حالها معه، وتسخط عيشها لديه، ولا سيما إن كان صداقها ثقيلاً.

وإن كانت قد أنفقت عليه مالاً جزيلاً، فحينئذ تملكه بقهر وغلبة، ويضعف الرجل عن مقاومتها، ويضطر إلى الانقياد لمراضيها، والنـزول على أحكامها ومباغيها، ولا سيما إن كان ركيكًا محجامًا.

فإن كانت ذات أقارب؛ فهم يحتاطون به كالعقارب، وينهبون ماله كالسلاهب، فإن غاب في سفر جعلتهم رقباء عليه وحفظاء مخافة أن يحدث أمرًا يطلعه على نقصها، ويحاذره أن يصغي إلى قول أخ ناصح أو يخلو بخليل مشفق، يوضح له كيفية ذهاب عمره ضياعًا، فتراه معها في سفره وحضره كالأسير العاني في يد العاسف الجاني، فشرها كل يوم متفاقم في زيادة.

ثم إنها تنهاه عن البشاشة بإخوانه، والالتفات إلى إخوانه وأحداثه، وتكفُّه عن برهم ومراعاتهم، وتشرط عليه بما يخلف مودته في نفوسهم لثلاثة أسباب:

أحدها: لعلمها أنه إذا مازح الأودَّاء، وخالطهم، وتقرب إلى قلوبهم؛ لم يخلو من ناصح منهم ينصحه، ويكشف له خطأه في نـزوله على مراضيها ورضاه بالدون.

والثاني: لعلمها أنه إذا اعتاد حفظ قلوب الإخوان، وتفقد أحوالهم، ولمَّ شعثهم وبرَّهم ووصلهم، وأنفق شطر ماله عليهم؛ فترى أنَّ ذلك المال قد فاتها؛ لأنها لم تحزه كما حازت غيره، فصار كالمسلوب منها، إذ لو لم يخرجه في تلك الوجوه، لتناولته ببعض وجوه مكرها وحيلها.

والثالث: أنها لا تريده يتحبب إلى القلوب بحيث تؤثره، وتجتمع الألسن على شكره؛ لأنه إذا اصطلح الناس على شكره، كان الناس كلهم في معونته، وحفظ جانبه متى ساقها وأغضبها، ثم إنها تلجئه إلى إهمال إخوانه باحتياجها إلى ذات يده، وتوهمه أن المروءة كلها قد حازها بطرفيها بإحسانه إلى أقاربها وأولادها، وتحقق في نفسه أنَّ غير ذلك لا يلزمه.

فيا رحمتاه! لمن يقع مع عجوز بهذه الصِّفة، فإن زمانه وعمره، وأوان شيبته قد ذهب في غير محمدة ولا لذة، فينفضي أوان حداثته، وزمان طراوته بالأماني، حتى إذا ذهبت طراوته، وشابت طرَّته؛ ندم على إضاعة أيام الشباب ندامة الكسعي، ولم يستطع رد يوم من عمره المنعِيِّ، ولم يحظ من زمانه بطائل؛ لأنه قد أسخط الأخلاء، وأهمل حقوق الأولياء والأودَّاء، وصار منحلاً بين إخوانه، مذمومًا بين أهله وأقرانه لرضاه بالدون، واستكانته لامرأة، تحمله على الهون، وهو يعذر نفسه في ذلك، ولا يعلم أن العاقل لا يضيع من عمره وزمانه ما لا يمكن رده خوفًا من إسخاطه عجوز متعدية.

وقال النبي ﷺ: «**تناكحوا وتناسلوا؛ فإني مكاثر بكم يوم القيامة، ولو بالسِّقط**»[1].

---

(١) ذكره القرطبي في تفسيره (٥/ ٣٩١)، وابن قدامة في «المغني» (٧/ ٢٢٦).

فإن توهمنا أنَّ رجلاً قد تزوج امرأة، وهما جميعًا متساويان بالسن؛ فإنهما إذا بلغا نيفًا وخمسين سنة، امتنع الحبل من المرأة، ولم يمتنع من الرجل، فإن اهتما بعمارة الدنيا، وأُخذ بالخبر النبوي، فالزوج يحتاج إلى أن يتخذ زوجة ثانية شابة حتى يولدها، ولا ينقطع منه التوليد إلى نيف وسبعين سنة، وإن كان قوي التركيب، فإلى نيف وتسعين سنة.

والسبب الثالث من الأسباب التي تقطع الرجل عن الباءة من الأسباب المتعلقة بالمنكوحة: أن تكون المرأة شابة إلا أنها قبيحة الصورة، ويكون الرجل قد صاحب، وجالس من هو أحسن صورة منها، فيكون ساخطًا عيشه معها، متبرمًا بغشيانها، فلا يكاد ينساغ له الإلمام بها إلا عن ضرورة وإنعاظ وامتلاء.

والسبب الرابع: أن تكون المرأة شابة إلا أنها قد ولدت وأرضعت، واسترخت صلابة أعضائها الرخَصَة، واسترخى لحم ثدييها، وتشقَّق جلد بطنها، هذا إن لم يحدث في رحمها بعض الأعراض المكروهة، فكثر من الناس يكره هذه الأحوال من المرأة وتعافها نفسه، فإذا لم يقدر على غيرها، قال بترك الباءة والإقلال عنه وإعيائه.

والسبب الخامس: العُتق؛ فإن الملال آفة المتواصلين، وأكبر دواعي الإدلال، ورُبَّما مال الرجل إلى امرأة ليست هي أحسن من التي عنده، ولا مثلها بسبب عُتق الأولى، وجِدَّة الثانية، وهذا تراه عيانًا ممن يولع بشراء الجواري وابتياع الرَّقيق؛ فإنه إذا اشترى جارية جميلة شابة، وعنده في داره من يفوقها في الجمال والطراوة؛ فإنه يتشوق إلى غشيان الجديدة المبتاعة أكثر من تشوقه إلى من عنده من الجواري، وليس هذا في طبع الإنسان فقط، بل هو في طبع فحول الحيوانات جميعًا.

فإن من يرتبط ذكرًا وأنثى من ذوات الأربع، أمَّا الجَمل أو الحَمير أو غيرهما من

الدواب الشبقة بحيث تتنافر المدة؛ فإنه إذا حضر غير تلك الدابة معها، وجد منازعة ذلك الفحل إلى الوثوب على الجديدة بنشاط ما لا يوجد مثله، إذا وثب على العتيقة التي كانت عنده.

ومما يدل على اشتراك الناس في محبة الجديدة، وإعجابهم بجديد الفراش قول عمر ﷺ: «**أمنُوني على خزائن الأرض، ولا تأمنوني على سوداء حبشية**».

إلا أنه وإن كان حب الجارية مطبوعًا في الغرائز، فقد يوجد في النادر من الأشخاص البديعة الجمال من الأتراك، وإن عُتِق أفضل من كل جديد، وذلك أن الفتاة إذا كملت جمالاً وقوامًا وعقلاً وفطنةً وذكاءً وحياءً وصيانةً وكفايةً، وكانت أخلاقها موافقة لخلائق قرينها على وفق إرادته، وأحدهما وامِقٌ[1] لصاحبه؛ فإنها على الحقيقة تكون كما قال ذو الرُّمَّة:

وخرقـــاء لا تـــزداد إلا مَلاحـــة ولو عُمِّرَت تعمير نـوحٍ وجَلَّـت[2]

ورأيت امرأة ولدت ثلاثة بطون، وهي ناهد، وثدياها في صدرها كثدي رجل، ولها من العمر نيف وثلاثون سنة، وبدنها كأرخص أبدان الفتيات إلا أن وجود هذا التركيب الذي لا يسرع إليه الكِبَر، وعلو السِّن نادر عزيز، وإذا اتَّفق فما أعزَّه على واجده، وأضَرَّه على فاقده، وهو إن عُتق أفضل من كل جديد، ومن وجد مقصوده، وابتغى عِوضَه؛ فقد عدل عن مقصوده، وهذا من العقلاء خَلَف.

والسادس: مباينة اللسان والمولد؛ فإنَّا نجد الجارية الجميلة الحسناء، ولو بلغت

---

(١) المِقَةُ: المحبَّةُ، وقد وَمِقَهُ يَمِقُهُ بالكسر فيهما، أي: أحبَّه، فهو وامِقٌ [تاج العروس (ومق)].

(٢) البيت من الطويل، وهو للقحيف العقيلي في «الأغاني» (١١٧٤٨/١٨)، و«طبقات فحول الشعراء» ص (٤٢١)، و«التذكرة الحمدونية» ص (٣٧٥٩).

من الجمال ما بلغت لا يستلِذُّ بمعاشرتها إلا أهل لسانها؛ فإن المَنطِق الرَّخيم لا تستلذُّه الأسماع إلا إذا كان بلسان المستمعين، فأما من تكلَّف مجاوزة قرينه بغير لسانه المألوف له في حال المؤانسة؛ فإن التذاذه بمحادثته ومحاورته منقوصة.

وأما اختلافهما في المولد، فيلزم منه الاختلاف في الأخلاق والعادات، ولا يكمل بمعاشرة المخالف في الأخلاق لذَّة ولا متعة؛ لأنه لا يتحرك في وقت يحتاج إليه وسكونه، ويسكن في وقت يحتاج قرينه إلى حركته، ويتكلَّم في وقت يستحب سكوته، ويسكت في وقت الكلام.

فهذا أيضًا من أسباب فتور الرجل عن الباءة ودواعي الملال والانقطاع، على أن هذه العيوب التي ذكرناها إنما يحسُّ بها من كان ذا حسٍّ تام، وذكاء وافر، فأما الأجلاف والجُهَّال والأغمار، فلا يكاد أحدهم يحس بشيء مِمَّا ذكرناه، ولعمري لقد أراحهم من مشقة كثيرة.

* * *

الجملة الخامسة

في العلّة في عفّة من يكره أو يعاف جماع محبوبه

اعلم - أيَّدك الله - أن من يقول بالشاهد ويعف على ضربين:

أحدهما: يعُفُّ عنه خوفًا من العار أو من النار، وهؤلاء يجدون لا محالة ألم مجاهدة النَّفس، ومُغالبة الشهوة، ومحاربة الهوى.

ومنهم من لا يزال مستحسنًا للصورة والمشاهد مادام بعيدًا عنه، فإذا صار مكانه منه قريبًا؛ نفر من قربه، وكره مداناته لوحشة الحس، وكثافة الجسمية، وهذه الصِّفة إنما تكون فيمن كان أشدَّ لطافة من الناس، وأكثرهم حظًّا من الصِّفات الروحانية؛ فهؤلاء يتمثل أحدهم صورة المشاهد في خياله أحسن مِمَّا يراه في عينه مثل ما يرى النائم في أحلامه من الصور؛ فإنه يستحسنها أكثر مِمَّا يستحسن ما يراه في اليقظة منها.

وإن احتلم بإحداهن، كانت لذته فوق لذة المجامع؛ لأن تلك الصورة وهميَّة منطبعة في خياله من غير كثافة جسمية؛ فهي من اللطافة والخلو من الكثافة في غاية سلمت من وحشة.

والدليل على أن التذاذ المجامع بالاحتلام في النوم أكثر؛ لأن المنيَّ الخارج بالاحتلام يكون أبدًا أكثر من المَنِيِّ الخارج بالجماع، ولا خلاف بين أهل الصناعة الطبيعية أن قوة اللذَّة يتبعها كثرة خروج المَنِيِّ، وليس كل أحد يتخيَّل ما ذكرته.

وأيضًا فإن الأمور المُتخَيَّلة في المنامات أمور عجيبة وهميَّة لم تخرج إلى عالم الشوب؛ فالأمور المُشاهدَة في النوم أكثرها ما تخلو من الشوب، فلهذا يكون الخوف في النوم خوفًا ليس مثله في اليقظة، وتكون لذة النوم تزيد على نظائرها من اللذات في الليقظة، وشبقه يزيد على شبقه، ولذَّة السرور بما يسُرُّ في النوم أكثر منها بما يسُرُّ في

اليقظة، بخلوص ما ترى في النوم من الشوب كثافة الحس الجسمية، وبما انضاف إلى هذه الحال لبعض المُتنـزهين لم يجد لذة بالعفة والنـزاهة.

فمن كان بهذه الصِّفة فعفَّته طبعًا ونَبْوَتُه سريعة، وإباؤه يمنعه من كثير من اللذات، وكثير ما يجلب لنفسه فراق من يحب، ويهرب مِمَّا يعده غيره منية، وبأدنى العوارض ينفر عن أعز الموجودات عليه، ولا تعجبنَّ من ذلك؛ فالناس طباع، وكلٌّ ميسَّرٌ لما خُلق له.

* * *

obeikandl.com

الجملة السادسة

في ذكر العلة في عدولهم بالباءة عن المجرى الطبيعي

وهي بابان:

الباب الأول من الجملة السادسة

في ذكر العلة في إيثار بعض العقلاء الغلام على الجارية [...][1]

الباب الثاني من الجملة السادسة

في ذكر العلة في إيثار بعض النسوان السِّحَاق

فذلك لأنَّ من النِّساء من يكنَّ بطيئات الإنـزال لبرودة أرحامهن أو برودة مسِّهن أو قلَّته، إذا جومِعن سبقن إلى الإنـزال، فيقمن غير قاضيات للوَطَر، وينفصل الرجل عن إحداهُّن، وقد تأجَّجَت نارُ غُلمتها، وانبعث من الكُلَى هائج شهوتها؛ فإن كانت قد قاربت الإنـزال إلا أنَّها لم تُنـزل، فلو استطاعت حينئذٍ، أرسلت على نفسها حمارًا إن لم يمنعها حفاظ.

وأمَّا أقله فيهن فزياد لها، فيباطئ الإنـزال أو تهرع إلى المساحقة [...] أو خصِيٍّ يؤمن عليها، ومن كانت منهُنَّ بهذه الصِّفة؛ فإنها إذا وقعت إلى بطيء الإنـزال ألهاها عن السِّحاق، ولوي وجهها عنه.

ومنهُنَّ: من سبب إثارها للسِّحاق كون عنق رحمها قصيرًا، وكون إحليل صاحبها وافر الطُّول، فيحدث لها من الألم بالجماع ما ينَغِّصُ لذَّتها، فلا يلائمُها إلا رجل قصير المتاع.

ومنهُنَّ: من تكون سريعة الإنـزال، وتقع بسهم رجل بطيء الإنـزال، فإذا بدأ يباضعها لم تلبث أن تنـزل، فإذا وصل منيُّها إلى إحليله فتر وأبطأ إنـزاله، وازداد بطئًا؛

---

(١) فضلنا عدم ذكر هذا الفصل لما فيه مخالفات، وعدم موافقة للشريعة الإسلامية.

فإن استدام حالته كلَّفها إنـزالاً ثانيًا، ورُبَّما كان مزاجها ضعيفًا عن ذلك، ثم إنها بعد الإنـزال الثاني لا تقدر على السكون، وتودع رحمها وإراحته، وحينئذٍ يكون الرجل في أشدِّ رهزه، وأشدِّ حرصه لقربه من الإنـزال، فتتأوه وتتضجر وتتململ، وتضمر الرغبة عن الرجال، ثم لا تلبث أن تساحق، فلو وقعت إلى سريع الإنـزال للائمها.

ومنهُنَّ: من يكون في رحمها بعض الأمراض، والعاهات الَّتي يحدث الإيلاج لأربابها ألمًا؛ فتعوض بالسِّحاق، وتنتفع به، وهذه لا تصلح إلا للعِنِّين.

ومنهُنَّ: من آفتها تقبيل فم من لم يشبه خشونة الشَّعر، وإلصاق خدِّها بخدٍّ ناعمٍ؛ فهي إن ظفرت بفتى أمرد بلغت مُناها، وإلا كان تُعوِّضها بمساحقة فتاةٍ سِحرُ جمالها آثر عندها من تكلُّف ما لا يُستساغ لها احتماله من النَّاس السُّود، فما ظنُّك بموقع اللمة الشَّمطاء عند مثل تلك الحيَّة الرَّقطاء.

وحُكي أنَّ عنَّاب جارية الناطفي كانت تحبُّ غلامًا من أولاد التُّجَّار وتتعرض له فلا يلتفت إليها، وتراسله فلا يجيبها؛ فأضربت عن ذكره، ثم اجتازت به بعد مدة، وقد التحَى فهشَّ إليها، وتعرَّض بها فلم تكلِّمه، ومضت إلى منـزلها، وكتبت إليه هذه الأبيات:

هـلا وأنـتَ بـماء وجهـكَ تُـشتهَى ... رود الـشباب وأنـت ممنـوح الـصَّفا

فألزمـــك الزَّمـــان بلحيـــة مـــا ... كـــان أحوجهـــا إلى أن تُنتَفـــا

قـد كنـتَ وجهًـا مـدبِرًا ومولِّيـا ... فالآن وجهُك حيث دُرتَ بـه قفـا[1]

ولبعض من يُرى منهُنَّ هذا الرأي في المعنى:

---

(١) الأبيات ذكرها النشابي الإربلي في «المذاكرة في ألقاب الشعراء» ص (٣٧٨).

أنـت بـدرٌ جنـى الكـسوفُ عليـه ظلمـةً مـا يـرى لهـا مـن نفـاد[1]

ولبعضهم:

هـلا أتيـتَ ومـاءُ وجهـك مُـشتهَى رود الـشباب قليـل شـعر العـارضِ

والآن حـين بـدت بخـدِّك لحيـةٌ ذهبت بملحك ملء كـفِّ القـابضِ

مثـل الـسلافة عـاد حمـرُ عـصيرها بعـد اللـذاذة خـلَّ خمـرٍ حـامضِ[2]

ومنهُنَّ: من يفوق غيرها في الذكاء والحياء، وفي طبعها كثير من أخلاق الرجال حتى رُبَّما أشبهتهم في حركاتها وكلامها وصوتها، وتكون محبة لأنَّ تكون هي الفاعلة؛ فهي تُريدُ من يُمَكِّنها بحيث تعلوه، ولا تحتشمه عن المُراودة كلما تحرَّكت غُلمتها، ولا تَسُومها الجِماع وقت سكون شهوتها، فيُخرجها ذلك مع استعضاف النـزول تحت مراضي الرَّجُل وحكمه إلى السِّحاق، وأكثر أصحاب هذه الصِّفات هنَّ المتطرفات والكاتبات والمقرئات والعالمات.

ومنهُنَّ: من يلحُّها إلى السحاق شدَّة الحجر عليها؛ فلا يتهيأ لها الخلوة مع ستر وأمن بغير النِّساء.

ومنهُنَّ: من يغلب على مزاج رحمها البرودة المفرطة؛ فتلتذ بكثرة الاحتكاك المسخن ما لا تلقى مثله بالجماع؛ لأنَّ احتكاك الجسمين المتلاصقين يؤثر الحرارة الشديدة المسخنة بالفعل، فتسخن مجاري المنيِّ، فتفتح وتجد به.

---

(١) البيت من الخفيف، وهو للصنوبري في «المحب والمحبوب والمشموم والمشروب» للسري الرفاء الكندي ص (٤٥).

(٢) الأبيات من الكامل، وهي لأبي نواس في ديوانه من قصيدة البيت الأول مطلعها، ولسعيد بن حميد في «التشبيهات» لابن أبي عون ص (٤٧٩)، و«الحيوان» للجاحظ ص (١٥٤).

ومما جاء في السِّحاق:

أَلا يا ذَواتِ السَّحقِ في الغَربِ وَالشَّرقِ أَفِقـنَ فَـإِنَّ النـــ[1]ـأَحـلى مِـنَ الـسَّحقِ

أفِقـــن فـــإنَّ الخُبـــز بـــالأدم يُـــشتهَى ولـيس يَـسُوغُ الخبـز بـالخبز في الحَلـق

أراكـــنَّ تُـــرَقِّعنَ الخُـــروق بمثلهـــا وأيُّ لبيـــبٍ يرقـعُ الخـرقَ بـالخرقِ[2]

***

(١) كلمة تعني الجماع فضلنا عدم ذكرها.

(٢) الأبيات من الطويل، وهي لأبي العتاهية في «الأغاني» (٤/ ٢٢٣٥)، و«معاهد التنصيص» لعبد الرحيم العباسي ص (١٢٥٣).

obeikandl.com

الجملة السابعة

في ذكر العلة في تشوق نفوس الشبان ذوي الأمزجة القريبة من الاعتدال إلى الاستكثار من الصُّوَر الجميلة بغير نهاية

ولما كان مولد كل واحد من النَّاس محضًا بشكل فَلَكيٍّ لا يخصُّ بغيره من الأزمنة الَّتي وُجِد فيها سِواه، واستحال أن يَتَساوَى شكلُ الفلك بكواكبه ومراكزه في وقتي ولادتي كل اثنين من النَّاس؛ استحال لذلك أن يتساوى اثنان من النَّاس في صورتيهما كل التساوي، وكذلك تساويهما في الأخلاق وتوابعها.

فالرجل الواحد بين طالعه مناسبة ما، وبين كل واحد من النَّاس جميعًا غير المناسبة الَّتي له إلى واحد آخر منهم، فيلزم من ذلك أن يكون انتفاعه وضرره واستمتاعه بقرب كل واحد منهم، والتذاذه به غير ما له من هذه الأنواع من غيره على مذهب المنجمين، فيصير ميله إلى كل واحدة من النِّسوان الحسان غير ميله إلى الأخرى؛ لأنَّ الَّذِي أماله إلى الأولى مناسبة بين طالعيهما غير المناسبة الَّتي بين طالعه وطالع الأخرى.

وأيضًا فإن اختلاف الأشكال الفلكية وقت مواليدهن سبب لاختلاف أشكالهن واختلاف أعضائهن؛ فإن المعاني الَّتي تستحبُّ من الحسناء التُّركية غير المعاني الَّتي تستحبُّ من الكاعب الرُّومية والخود الأرمنية، ثم يتركَّبُ من هذه المعاني والرَّونق وأنواع الملاحة مع أقسام الجمال ما لا يتناهى تركيبُه.

وكذلكَ حال كل واحد من الأعضاء الَّتي يباشِرُها المُخالِط ببصره أو ملمسه، فربَّ قبيحة تؤثَر لطيب خلوتها، وملائمة حركاتها على الكاعب الحسناء، فضلاً عن اختيار إحدى الحسناوين لفضيلة في إحديهما، إمَّا في أخلاقها أو في حسن أدبها أو لطيف مُواتاتها أو خُلَّة مستحسنة في بعض أعضائها الباطنة.

وهذه الأسباب لا يمكن تمييزها إلا بالمخالطة لها جميعًا؛ فإذا كانت هذه حال تفاوت النِّسوان الجميلات، فمثلهن إذا تساوين في الجمال الظاهر مثل صناديق مزوقة الظاهر يشتمل كل واحد منها على ما لا يشتمل عليه الآخر، ورُبَّما اشتملت عدة منها على أشياء متشابهة.

فأمَّا الدَّليل على أنَّ المقدار المتناهي يقبل صورة ذات وضع يحتمل الزيادة بغير نهاية ولا يصل إلى مساواة صورة أكبر منها؛ فهو أنَّا نفترض مثلث (أ ب ج) قائم الزَّاوية، وزاويته القائمة زاوية (ب)، ويخرج (ب ج) إلى (د)؛ فيكون زاوية (ب أ ج) حادَّة، أعني: أصغر من زاوية (أ ب ج)، وزاوية (ب أ د) أعظم من زاوية (ب أ ج)، وهي أيضًا حادَّة؛ لأنَّ مثلث (أ ب د) قائم الزاوية، وكذلك زاوية (ب أ د) أعظم من زاوية (ب أ ج)، وهي أيضًا أصغر من زاوية (ب) القائمة، وزاوية (ب أ د) أعظم من كل واحدة من زوايا (أ)، وهي مع ذلك لا تنفكُّ عن كونها أصغر من زاوية (ب)، ولا يزال يخرج خط (ب د) على استقامته، ويتعلم نقطة بعد نقطة، ويصل بينها وبين نقطة (أ)، فلا تزال زاوية (ب أ ج) تتعاظم دائمًا، وتقبل الزيادة أبدًا، ولا تصل أبدًا إلى مساواة زاوية (أ ب ط) القائمة؛ لأنا لو فرضنا أن زاوية (ب أ ط) مثلاً قد ساوت زاوية (أ ب ط) لكان خلقًا من وجهين:

أحدهما: أن مثلث (أ ب ط) يكون فيه زاويتان قائمتان، وذلك من المستحيل.

والثاني: (أ ط) و (ب ط) وقع عليهما خط (أ ب)، وصيَّر زاويتي (أ، ب) قائمتين والتقيتا، وهذا محال.

فقد بيَّن أنَّ زاوية (ب أ ج) تقبل الزيادة أبدًا، ولا تصير أبدًا مساوية لزاوية (أ ب ج)، بل لا تزال أصغر منهما، فإن قيل: أنَّ الزاوية قد اختلف كونها مقدار ذا كمية أو

صورة ذات وضع؛ قلنا: فإذا كانت الزَّاوية صورة؛ فإنما أردنا أن نبين وجود هذا المعنى في الصُّوَر وهيئات الأشكال، فإذا كان هذا حكم زاوية واحدة في موضوع واحد؛ فكيف يتصور تساوي صور سائر الأعضاء من شخصين على الحقيقة؟!

ثم إنَّ الاختلاف في المقدار والصُّوَرة يتركَّب معه الاختلاف في الألوان، والاختلاف في قلَّة اللون الواحد، وكثرته، وصفاته، وخشونته، وكدورته، وخلوصه، وشوبه، ثم مقدار الموضع المنصبغ، ثم يتركب مع رائحة ما يباشر ريحه والنِّعمة الَّتي اختلاف حال النَّاس فيها، وسائر حظوظهم منها يعادل أخلاقهم في سائر أحوال خلقتهم؛ فالنفوس إذا اشرأبَّت إلى التَّنـزه على اختلاف هذه المعاني طالبة للاطلاع على ما لم تطَّلع عليه أو لأنَّ أنفَسَها حالاً لم يكن لها أو مثل أفضل ما وصلت إليه من الملاذِّ الحسنة.

ولهذه العلة اقتضت السياسة المبالَغَة في صيانة النِّسوان عن الأبصار، وحملهن على الخَفَرُ[1]، وكفَّهن عن ابتذال صورِهِنَّ محاذرة لما لا يؤمَن خُطُوره ببال أحد من النَّاظرين، كما قال ابن المقفع: وإن استطعت ألا يُبصِرَنَّ غيرك فافعل؛ فإنَّ شدَّة الحجاب أيسر عليك من الارتياب، ولولا أن الأقاليم المولدة للأكياس، وأولي الحسِّ الوافر، والذكاء الفائق، من سُـنَّة نسوان ساكنيها التظاهر بالخفر والحياء، وستر الوجوه، وصيانة سائر البدن عن أن تباشره الأبصار؛ لكان ذلك داعيا إلى افتتان البطَّالين، وفساد قلوب ذوي الطِّباع اللطيفة، والحسِّ الوافر، وإلى تنافس عظيم، وعداوات مؤدِّية إلى هلاك وخراب.

ويناسب ما نحن فيه الآن مسألة سألني عنها بعض المتفقهة، وهي أنَّه قال: إنَّ

(١) الخَفَرُ: شدةُ الحياءِ، وامرأة خَفِرة: حَيِيَّةٌ مُتَخَفِّرةٌ [العين (خفر)].

الشَّرع قد نهى عن الجزء الأحكامي من صناعة التنجيم، فأمَّا الجزء الحسابي والإلهي، فلم يرد نهي عنهما.

فقلت: كذلك هو.

قال: فأخبرني، كيف ظهر لأبصارنا كوكبُ زُحَل أو المشترى أو غيرهما من الكواكب الثابتة؟

فقلت: ذلك لأنَّ جسم الأفلاك ذو شفاف في الغاية؛ فمن شأنه ألا يستر ما وراءه.

فقال: علمتُ ذلك؛ أفَلَيس الكتابُ العزيزُ ناطقًا بأنَّ الجنَّة عرضها السماوات والأرض؟

قلت: بلى.

قال: فهذا يلزم منه أحد أمرين: إما أن تكون الجنَّة هي السَّماء السَّابعة، أعني: فلك زُحَل أو وراء ذلك أو خارج الأفلاك جميعًا بتقدير أنْ يكون معنى هذه الآية أن عرضها مساوٍ لسعة السماوات والأرض.

فقلت: وما الَّذِي أشكل عليك في ذلك؟

فقال: إذا كانت الأفلاك مشفَّة لا تستر ما وراءها وما فيها، وكانت الجنَّة.

فقلت: ذلك لأحد أمرين:

أحدهما: بُعد المسافة عن البصر؛ فإنَّا نرى زُحَل، وهو مثل كرة الأرض نيفًا وثمانين مرة صغيرًا جدًّا، وليس في الأشخاص والصُّوَر الَّتي هي في الجنَّة ما يقارب عِظَم جُرم زُحَل حتَّى ينبغي أنْ يرى، وأيضًا فإن زُحَل لو لم يكن معدنًا لنور ساطع شديد الإنارة لما رأي على عِظَمه لشدَّة بعده.

والثَّاني: أنَّه كما خلق الله أبصارنا مطبوعة على الإحساس بهذه الأجسام المشاهَدَة؛ كذلك جعل في طبيعة أبصارنا ألا ترى ما في السماوات، ولا تُدرك ما يتخلَّل أطباقها، إذ لو كان النَّاس في هذه الدُّنيا، وهم يشاهِدون الجنَّة، لبطلوا عن الأعمال والصِّناعات، وألهاهم ذلك عن سائر الأمور الَّتي بها عِمارة الدُّنيا، وبطل هذا النظام الَّذِي اختاره صانعه؛ فاستصوب ذلك وارتضاه جوابًا.

* * *

opeikandl.com

الجملة الثامنة

في ذكر العلة في اعتكاف العازف على الباءة

قلت للعازف على الباءة: يأيُّها المفتون بأباطيل انطبقت في تصَوُّره قديمًا كيف تعشق الصُّوَر، وهي أغراض زائلة؟ أم كيف تعشق المواد، وهي لعينها استحالت مِمَّا لو رأيته لفررت منه، وعفت النَّظر إليه، فضلاً عن ملامسته، بل هو عين ضد ما عشقته منها، قد تناولته يدُ الكون والفساد؛ فإن قُلتَ: عَشِقتُ ذلك الكون؛ لأنه إقبال، ولأنه ضدّ الفساد الَّذِي هو إدبار، فالَّذِي عشقتَه هو عين ما كرهته، الَّذِي هو الفساد؛ لأنَّ كل شيء؛ فإنَّما فساده كون ضدِّه الَّذِي يستحيل إليه.

قال: كلا، غاب عنك ما أتى فيه إلى ما لا تصور القبيحة والحسناء، وقد سلخَ عنهما الجلد المحيط بأبدانهما، فلا يَبقَى بينهما ذلك الفرقُ، ولا يَبقَى لإحداهما فضيلة على الكبش الذَّبيح إذا سلخ جلده، والجاهل مفتون بالنُّقوش المزيَّنة بالجلد، وإنِّي لأتصوَّر نفسي مطلِعًا على عالَم الأرض بأسره في الليلة الظَّلماء، فإذا سائر صُوَره وأشخاصه وأجسامه سُودٌ مظلِمة، لا فرق بين قبيحها وحسنها، وأبيضها وأحمرها وأصفرها.

فاعلم أنَّ النَّاس مفتونون بأباطيل لا حقائق لها، وإنَّما افتتنوا بالنُّور، والنُّور سبب افتتانهم، واختلاف النفوس المذكورة في الجلد هو أيضًا بعض لوازم النُّور؛ لأنَّه من آثار النَّيِّرات العُلوية.

قلت له: فما بالُك مع علمك بهذا على ما أرى؟

قال: اعلم أن العارف المستحسِن للصور الجميلة، المعتكف على الباءة هو الَّذِي مزاجه الجسماني، ومزاجه الروحاني معتدلان، وما يدريك ما المزاج الروحاني؟ لا تسألني عنه، عرفه مَن عرفه، وجهله من جهله، ودليل الاعتدال الَّذِي ذكرته ما تجده يعتري المزاج، وأصحاب الخلوات الكثيرة من سوء الأخلاق وغلبة السَّوداء.

واعلم أنَّ العازف إنَّما يوجد فيه الاعتكاف على الباءة لثلاثة أسباب، يشاركه النَّاس في أحدها، ويحس بالسببين الآخرين:

فأمَّا السَّبَب الأوَّل: فهو أنَّ العازف لا يمكنه بكونه عارفًا أنْ يتماسك عن الأفعال لذوات الحواس من الأشياء الَّتي تُفعل بخواصِّها؛ فإن من يسبب السقمونيا، وهو يعلم أنَّها تسهل الصَّفراء، فإنَّ علمه بهذا غير نافع من فعل السقمونيا ما شأنه أنْ تفعله، بل فِعلها في بدن الجاهل والعازف سواء، وهذه الصُّوَر والأشخاص الَّتي ترانا معجبين بها، مشغوفين بلقائها أو قُربها، من شأنها أنْ تجذب القلوب والهمم إليها كجذب المغناطيس للحديد؛ فإنه لا يتماسك إلا إن كانت قوة المغناطيس ضعيفة، إما لصغر مقدار الحجر، أو لسبب آخر؛ فهذه المغناطيسية الجاذبة والخاصِّية القاهرة بل الطلسمية الظاهرة، لا يمكننا معشر العارفين مقاومتها إلا من كان منها سوداوي المزاج، زُحَليُّ الفكرة، فهذا هو السَّبَب الأكثر لما سألتَ عنه.

والثاني: أن العازف لا يرى فائدة، ولا نفعًا في سائر المساعي الدِّينية، ولا يكمل معرفة العازف إلا إذا علم أن معرفته ألا تفيده، وأنَّ العلم وغيره لا يغني عنه، وأنَّ التَّعرض الدائم عبودية، ومن وصل إلى هذه الدرجة؛ فإنه يرى الحياة مغرمًا، فإما أن نقصد الموت بأحد الطُّرق المؤدِّية إليه، وذلك سعْيٌ باطلٌ؛ لأنَّه لا يمكن تقديمه على الوقت الذي قدر فيه.

وإما أنْ يقتضي زمانه شيء يتخذه شغله لتُقضَى به الأوقات، وأصلحُ ما كان التَّشاغل إذا كانت سائر أنواع التَّشاغل لا يفيد ما كان غير متضمِّن الفناء، ولا إعمال الفِكرة، ولا قسر طبع؛ لأنَّا قد ذكرنا أن العازف يعلم أنَّ الفكر وغيره لا ينفعه.

وإما أن يكون غرضه تسكين الهِمَّة الحابسة، وردع الخواطر المتحركة، وقطع

مواد الحرص، واجتناب الغرائم؛ فإن الباءة تُسكن غليان الفكر، وتطفئ توقُّد الأفكار، وتُبرد نار الحرص، وربما تبلد الخاطر؛ ولذلك صار علاجًا للشباب الَّذِين يعرض لهم الوسواس السوداوي والمالنخوليا والعشق، إذا استعمل مع التدبير الصالح، فإذا كان الاهتمام عند العازف لا يجدي فائدة، فأصلح ما وقع التشاغل بما ينقص الهمة، ويبرد توقدها.

والثالث: أنَّ مِن بعض فوائده أنَّه يبرد القتود، ويفُتُّ حيطان السجن، ويخلخل أحجار المجلس ليسهل على النفس عند انقضائها عن هذا الهيكل فرارها منه، وذلك أنَّه يهزل البدن، ويضعف الأعصاب، وينقص الحرارة الغريزية، وفي ذلك إحساس بالآلام، وإعدام للبدن لانحلال تركيبه.

وليس يقدر العازف على أمن يعتري بدنه لانحلال التركيب، وقبول الآفات المميتة من غير أن يَحدث فيه ألمٌ ولا مكروه إلا الجماع.

وقد أشار النَّبيُّ ﷺ: النِّساءُ خيرُ مشغلة يتشاغل بها العازف في الدنيا بقوله: «**الدنيا متاع، وخيرها المرأة الصالحة**»[1].

وقد أشار القرآن العزيز إلى أنَّ الدُّنيا لعب ولهو ومتاع إلى حين، وإذا كان خيرها المرأة الصالحة؛ فقد وافق ما قلنا الآية والخبر.

وقد جاء في الآثار أن الاشتغال بالنكاح خير من عبادة النَّفل، وذلك مطابق لما ذكرناه.

فهذا مقصودنا من النِّساء؛ فاعلمه، وإن شئت فصدِّق، وإلا فلا ضرر لنا إن كذَّبتَ، فعجِبتُ من مقالته، وأثبتُّها هاهنا ليتدبر متأمله في معانيها.

* * *

(١) رواه مسلم (٢/ ١٠٩٠).

الباب الأوَّل من الجملة التاسعة
في أدب المحادثة

وهي ثلاثة وعشرون أدبًا:

الأوَّل: حسن الإصغاء إلى المتكلِّم بترك الكلام مع سواه، وترك الإصغاء إلى غيره.

والثاني: التَّحَرُّز من أن يطغي عليه فكر في غير ما يسمعه من محدِّثه، فيلهيه عن فهم بعض مقاله، فيطلبه منه في آخر الكلام؛ فلا يجده معلومًا عنده، فيحشمه[1] إعادته.

والثالث: ألا يميل بوجهه عن محدِّثه؛ لئلا يتهمه بالفكر في غير حديثه.

والرابع: ألا يقطع عليه كلامه بشيء حتَّى ولا باستدعاء ماء ليشربه.

والخامس: ألا يسابقه إلى حديث يبدؤه لمعرفته بذلك الحديث، بل يريه من الارتياح له، والتعجب منه ما يوهمه أنَّه لم يخطر بباله، ولا وقر في سمعه قط.

والسادس: كتمان سرّ المحادِث، والوفاء له بما يعهد إليه بكتمانه.

والسابع: التحرُّز من الإشارة إلى تكذيب المحدث أو المناقضة بين أقواله أو مناقشته ومناظرته؛ فإن ذلك كله مفسد للمودة مولِّد للضَّغائن.

والثامن: التَّحَرُّز من الكذب.

والتاسع: التَّحَرُّز من الممازحة بما ظاهره مكروه؛ فإنه من أكبر أسباب التباغض، ولا سيما ما كان منه مقاربًا للحقيقة في باطن الحال، كمن يمازح الأبخر إذا تبخَّر وتعطَّر، فيقول: «لا تدنُ منَّا، فيؤذينا قبح ريحك»؛ فإن هذا القول، وإن كان

---

(١) حَشَمَه يَحْشِمُهُ ويَحْشُمُه حَشْمًا وأَحْشَمَهُ، وحَشَمْتُه: أَخجلته، وأَحْشَمْتُهُ: أَغضبته [لسان العرب (حشم)].

ظاهره ينطلق على التنبيه على روائح طيبة، فهو موهم بأنَّا قد عرفنا ما تحت هذا البُخُور والطِّيب.

والعاشر: التَّحَرُّز من الوعد مهما استُطيع احترازًا من العوائق؛ فإنها أكثر أن يُهتدَى إلى التَّحَرُّز منها.

والحادي عشر: تجنب العجلة في الكلام؛ فإنها مُذهبة لرونَق المتكلِّم في النفوس، وخصوصًا من النِّساء؛ فإنها أكبر أسباب القِلَي والمِلال، وأحسن ما قصدت له المرأة التَّؤدة عند النطق بالحروف.

والثاني عشر: احتراز المتكلم من أن يستولي على فكره الغوص فيما يتكلم، فيعبث بلحيته أو أظفاره أو يعض مروحة تكون في يده أو يقطع بعض أهداب المروحة أو أطراف الحصير، ويلقط ما يسقط بالأنامل أو يلقط زنب.

والثالث عشر: الإقلال من الأيمان؛ فإن من يُتَّهم قوله إذا لم يحلف يُتَّهم أيضًا إذا حلف.

والرابع عشر: التَّحَرُّز من الاستشهاد على صحة ما يقوله بما يوقع الشَّك فيه، كمن يلتفت إلى غلامه في المجلس؛ فيقول له: يا غلام! فيم بعثتك اليوم بكرة؟ فيقول: يا مولاي! في شراء ثوب كذا أو شغل كذا؛ فإن هذا لا يزيد من يسمعه إلا شكًّا في قوله، إذ لا يبعد أن يقرر مع غلامه النُّطق بذلك قبل أن يضمهما ذلك المجلس.

والخامس عشر: التَّحَرُّز من الإكثار في قول «أفهمت؟»، وما شاكلها.

والسادس عشر: التَّحَرُّز من مخاطبة إنسان بما لا يعنيه منه حال، ولا يستدعيه منه أحد؛ فإنَّ أكثر النَّاس يستولي على خاطره أمور له تجري، فلا يلبث إذا لقي إخوانه أن يحدثهم بها، ويلزمهم حسن الإصغاء إليها، ورُبَّما لا يشتمل على فائدة.

والسابع عشر: التَّحَرُّز من إضاعة الزمان، وتبديد خاطر المحدث، واستبيانه

أسماء من يجري ذكرهم في الحديث والتواريخ والأمكنة، وحذف جميع ذلك.

مثل أن يروم[1] المحدث الاعتذار من التأخُّر عن الحضور ليعاد؛ فيقول: إني عزمت اليوم على البكور إليك، فأمرت الغلام بإسراج الفرس، فركبت فلما صرت في الشارع الفلاني؛ أما تعرف؟ هناك دُكَّان خيَّاط، فيتفق أن المحدَّث ربَّما لا يعرف ذلك الخياط والشارع، فيقول: ما أعرفه! فيقول: سبحان الله، أليس بين دكانه وبين المعصرة ثلاثة دكاكين؟ أما تعرف المعصرة؟ فإن قال: لا، ما أعرفه! طال هذيانه في إلزامه إياه بمعرفة ذلك؛ فإن أراد التخلص من هذيانه ادعى المعرفة، فيقول له: بعد ذلك لقيني فلان، أما تعرفه؟ فالويل له، إن قال: لا أعرفه؛ فإنه يقول: صهر فلان، أما تعرفه؟ فإن قال: لا، يقول: هو الَّذِي داره مشرفة على كذا، فلا يزال يضيع الزمان في أمثال هذا الهذيان القبيح، وإذا أراد الاعتذار عن مثل هذا، قال: إني بكَّرت لآتيك، فلقيني من عوَّقني إلى الآن، فإن سأله: عمَّن لقيه، قال: فلان؛ فإن سأله: أين لقيه؟ قال: في موضع كذا، وإن لم يسأله لم يأت بفضول.

والثامن عشر: يحترز من أنْ يخرجه الإدلال بالنصح إلى سوء الأدب؛ فكثير من ذوي العزة يتحفظ ذلك، وكثير من المحدثين يخرجه الاستغراق في النصح إلى الشطح فيما لا ينقاد المنصوح لمثله، ولا تساوي له تلك النصيحة تتبعه من تلك العبارة، وهجن اللفظ.

والتاسع عشر: الاحتراز من التمثيل بالمخاطب.

حدثني بعض أصدقائي أنه سأل رجلاً قدم من أذربيجان عن خصب الناحية

---

(١) الرَّوْمُ: طَلَبُ الشَّيْءِ، والمَرامُ: المَطْلَبُ، رام يروم رومًا ومرامًا: طَلَبَ [العين (روم)].

وهوائها، فقال: أما هواؤها في ليل الصيف كله بارد، إن لم تتغط بالدُّوَّاجِ[1]، وإلا مت من البرد، وفيها العنب الحلو البارد، إذا أكلت منه عنقودًا، كسر أسنانك برده، وأمَّا بطيخها فتشرق وتسلم، تختنق من حلاوته، وأمَّا خمرها فإذا شربت منه ثلاثة أقداح، ضرب رأسك الأرض يا مولاي، فقال: يا هذا، ما أرى هذا البلد خلق إلا لحتفي، فهذا النوع من الهذر القبيح المتجنب.

والعشرون: التَّحَرُّز من ثلب أحد النَّاس عند غيره؛ فرُبَّما كان المثلوب نسيبًا للمتحدث، وكان الثالب لا يعلم ذلك، فيتخلله من الخجل إذًا، وفي هذا وأمثاله قبح عظيم.

والحادي والعشرون: أنَّه لا يهجم على الحديث، وأن يتوصل إلى احترازه بما يشاكله، ويسبب له ما يسهل أنْ يجري في عرضه حتى تكون بعض المفاوضة متعلقة ببعض، على حسب قولهم في المثل: «الحديث ذو شجون»[2] أي: يشبه ويفرعه عن أصل واحد إلى معان كثيرة.

والثاني والعشرون: ألا يبدأ بحديث يقطعه، ويعد بإتمامه.

والثالث والعشرون: ألا يكثر المحدث التبسم والقهقهة.

عن عبد الملك الحجاجي قال: مرَّ يزيد بن عاتكة في بستانه على حمارٍ له واضعًا يده على امرأته الثقفية ابنة محمد بن يوسف، وفي عنقها عقد جوهر الخلافة؛ فانحل وسقط، وهو يخاطبها بحديث، فلم تلتفت إلى العقد، وفطن له يزيد، فقال: أما رأيتِ عقدكِ قد سقط؟ قالت: بلى، ولكن لم يبلغ من قدره أنْ أقطع له حديث أمير المؤمنين؛ فقال: أعييتموني يا آل أبي عقيل فصحًا.

---

(١) الدُّوَّاجُ: ضربٌ من الثياب [لسان العرب (دوج)].

(٢) انظر: «الأمثال» لأبي عبيد بن سلام ص (٤٨)، و«مجمع الأمثال» للميداني ص (٦١٤).

قال عبد الملك الحجاجي: إنَّما كان هذا موضعًا لا ينـزل عن حماره فيواقعها، ولا يغني عن الجماع.

وفي حسن هذا الحديث يقول كثير عزة:

كثير من البيض مبسام يـودُّ جليـسُها إذا ما قَـضَت أُحدوثـة لـو تعيـدها[1]

وللبحتري:

ولمـا التقينـا والنقـا موعـدٌ لنـا تعجَّـب رائـي الـدُّرِ منـا ولاقِطُـه

فمـن لؤلـؤ تجلـوه عنـد ابتـسامها ومن لؤلـؤ عنـد الحـديث تـساقطه[2]

وقال عليٌّ بن العباس الرُّومي:

وحـديثها الـسحر الحـلال لـو أنـه لم يجـن قتـلَ المـسلم المتحـرز

إن طال لم يملل وإن هي أوجزت ودَّ المحـدث أنَّهـا لم تـوجز

شرك العقـول ونـزهة مـا مثلهـا للمطمـئن وعقلـة المـستوفز[3]

وقال بشَّار بن بُرد:

وكـأنَّ تحـت لـسانها هـاروتَ ينفُـثُ منهـا سِـحرًا[4]

وقال كُثير عزة:

رُهبـان مـدين والـذين عهـدتهم يبكـون مـن حـذر المعـاد تعـوذا

---

(١) البيت من الطويل، وهو لكثير عزة في «الباقلاني» لأبي البركات الأنباري ص (٣٢٣).

(٢) البيتان من الطويل، وهما للبحتري في «نهاية الأرب في فنون الأدب» للنويري ص (٩٠٧).

(٣) الأبيات لابن الرومي في «الأشباه والنظائر» ص (٧٣)، و«التذكرة الفخرية» ص (١٦٣).

(٤) البيت من مجزوء الكامل، وهو لبشار بن برد في «الأغاني» (٣/ ١٧٥٨)، و«البيان والتبيين» ص (٣٨٤).

لـو يـسمعون كـما سـمعت حـديثها خـــرُّوا لعـــزة رُكَّعـــا وسُـــجُودا[1]

وقال المنتكب السلمي:

بيـــــضًا يظـــــل الـــــشيخ مجمـــدًا لحـــديثهن يجانـــب الحـــذر

* * *

(١) البيت من الكامل، وهو لكثير عزة في «العقد الفريد» لابن عبد ربه الأندلسي ص (٦٧٦)، و«ديوان الصبابة» لابن أبي حجلة ص (٤٩٣).

obeikandl.com

الباب الثاني من الجملة التاسعة

في أدب المؤاكلة

العيوب الَّتي مَن علمها كان خبيرًا بأدب المؤاكلة؛ وهي خمسة وخمسون عيبًا، وهذه أسماء أربابها: الحكَّاك، الزَّاحف، المجوِّع، المُشَنِّع، المتثاقِل، المدمِّع، المبلِّع، المقطِّع، المبعبع، المفرقِع، الدَّفَّاع، اللطَّاع، اللحَّاس، المِعطاش، المُعرِّض، النَّفَّاخ، الممتدُّ، المزَفِّر، المُقَزِّز، العائب، المستبد، المهمِل، الجَمَليُّ، المخرِّب، الفُضُولي، الطُّفيلي، الملقو، حاطِب ليل، النَّهِم، الحامِد، المبقِّي، المستظهر، المستهلك، المحتمي، الموحِشُ، المتشكِّي، المستأذِن، المملعِق، المتطاوِل، المنقِّط، المُرَشِّش، المَصَّاص، المتسابق، الموزِّع، الموفِّر، المحدث، المستأثر، المتعدِّي، اللفَّاف، العضَّاض، المتلفِّت، النَّثَّار، البقَّار، المغتنم، المبطر.

فأمَّا الحكَّاك: فهو الَّذِي يَحُكُّ رأسه أو موضعًا من جسده بعد أن غسل يده، وقبل أكل الطَّعام.

فقد حُدِّثت أن رجلاً غسل مع المأمون يده، وأبطأ الطَّعام، فسبقته يده إلى رأسه؛ فقال له المأمون: أعد غسل يدك، فغسلها ثم لم يلبث أن سبقته يده إلى لحيته، فقال له: أعد غسل يدك، فقال: أدام الله إقبالك، لا يجب غسل اليد إلا والطعام حاضر.

وأمَّا الزَّاحف: فهو الَّذِي إذا قدم الطَّعام زحف إلى المائدة قبل الجماعة، ورُبَّما كان الطَّعام لم يتكامل تصفيفه أو كان ربُّ المنـزل مرتقِبًا حضور من يترقبهم؛ فإن زحف الحاضرون إلى المائدة، فقد سجَّل على نفسه بالنَّهم، وإن تثاقلوا عن موافقته، بقي على المائدة زمن فيخجل، ورُبَّما كان الَّذِي يتوقعه ربُّ المنـزل من إخوانه هو المقصود بذلك الطَّعام، فإذا حثَّ على سبقه، ثقل على ربِّ المنـزل موضعه.

وأمَّا المجوِّع: فهو ربُّ المنـزل ينتظر مؤاكليه إدراكَ طعامه حتى يجيعهم.

حُدِّثت أنَّ محمدًا بن عبد الله بن طاهر دعاه رجل من أصحابه إلى دعوة، تقدم

فيها واحتفل لها، فلما حضر محمد طالبه بالطعام، فمطله ليتكامل، ويتلاحق على ما أحبه من الكثرة، والحفلة حتى تصرم النهار، ومسَّ محمدًا الجوعُ، فتنغص عليه يومه، وأراد محمد سفرًا، فتبعه هذا الرَّجُل حتَّى إذا دنا منه ليودِّعه، قال له: أتأمر بشيء؟ قال: نعم، اذهب، واجعل طريقك على أحمد بن يوسف الكاتب، وقل له: بعثني إليك الأمير لتعلِّمني الفُتُوَّة؛ فقال: سمعًا وطاعةً، ثم قصد في رجوعه دار يوسف بن محمد الكاتب، فأنكر أحمد مجيئي في مثل ذلك الوقت؛ فسألني عن حاجتي، فقلت: بعثني إليك الأمير لتعلمني الفتوة، فضحك، وقال: يا غلام، هات ما حضر، فجاء بطبق كبير عليه ثلاثة أرغفة من أنظف الخبز، وسكرجات مري، وخل، وملح من أجود الملح، وما يتخذ من هذه الأضناف، وابتدأ يأكل، فتداركه الطبَّاخ بطياهج[1]، ووافاه من دانٍ جرَّته بفضلة من شوي، وأهدى له جَام حلوًا، فانتظم أمره بشيء خفيف ظريف خفيف بغير احتشام ولا انتظار.

وأمَّا المُشَنِّع: فهو الَّذِي يجعل ما ينقِّيه من عظام أو نوى تمر أو غيره بين يدي جاره تشنيعًا عليه بكثرة الأكل.

حُدِّثت أن متلاحنين حضرا مائدة بعض الرؤساء، فقدم لهما رطبًا، فجعل أحدهما كلما أكل، جعل النوى بين يدي جاره تشنيعًا عليه بكثرة الأكل حتَّى اجتمع بين يديه ما ليس بين يدي أحد من الحاضرين مثل ذلك، فالتفت الأوَّل إلى ربِّ المنـزل، وقال: ألا يرى سيدنا ما أكثر ما أكل فلان من الرُّطب؛ فإن بين يديه من النوى ما يفضل به الجماعة، فالتفت إليه صاحبه، وقال: أمَّا أنا أصلحك الله، فقد أكلتُ رُطبًا كثيرًا، ولكن هذا الأحمق أكل الرُّطب بنواه، فضحك الجماعة، وخجل المشنع.

---

(١) الطَّيْهُوجُ: طائر، وقال ابن دريد: «لا أحسبه عربيًّا» [لسان العرب (طهج)].

وأمَّا المتثاقِل: فهو الَّذِي يُدعَى، فيجيب، ويحمل ذلك على نفسه، ويوثق منه بالوفاء ثم يتثاقل عن الدَّاعي الملهوف حتَّى يجيعه ويجيع إخوانه، ويلثم عليه عمر يومه، فجري ما بعد الاستظهار عليه بالحجة، وإعادة الرسول إليه أن يستأثر إخوانه بالمؤاكلة دونه معتمدين بذلك الاستخفاف؛ ليؤدِّبوه إن كانت فيه مسكة[1]، وينهوه إن كانت فيه فطنة.

وقد جاء في الخبر المأثور في إجابة الدعوة، وترك التأخر عنها ما جرى مجرى الفرض والحق الواجب، وهو قول النبي ﷺ: «**من دُعي إلى طعام؛ فليجب، فإن كان مفطرًا؛ فليأكل، وإن كان صائمًا؛ فليصل**»[2].

فإذا كان الصائم قد أُمِر بالحضور، فكيف بالمفطر، ومن أجاب ثم تأخَّر؟!

وقد نال ذلك جحظة البرمكي؛ فكتب إليه جحظة البرمكي هذه الأبيات:

تـأخَّرتَ حتـى كَـدَدتَ الرسـول ... وحتـى سَـئمتُ مـن الانتظـار

وأوحـشتَ إخوانـك المـسعدين ... وفجَّعـتهم بـشبابِ النهـار

فـإن كنـتَ تأمـلُ ألا تُـسَبَّ ... فأنـت وحقِّـكَ عـينُ الحـمار[3]

ويقال: «ثلاثة تفني: سراج لا يضيء، ورسول يبطئ، ومائدة تنتظر مَن لا يجيء».

وأمَّا المدمِّع: فهو المتناول اللقمة الحارة لا يصبر إلى أنْ تَبرد، فيتناول اللقمة،

---

(١) رجل مُمْسِك: بخيل [جمهرة اللغة (سكم)].

(٢) رواه مسلم (٢/ ١٠٥٤).

(٣) الأبيات من المتقارب، وهي لكشاجم في ديوانه من قصيدة البيت الأول مطلعها، وفي «محاضرات الأدباء ومحاورات الشعراء والبلغاء» للراغب الأصفهاني ص (٢١٢٥).

فتُخلِف ظنه في احتمال حرارتها، فتدمَع عيناه عند احتراق فمه، ورُبَّما اضطر إلى إخراجها من فِيه، وإلى ابتلاعها بجرعة ماء خوفًا من إحراقها معدته، وهو من عيوب المؤاكلة.

وأمَّا المبلِّع: فهو الَّذِي لا ينهنه اللقمة في فِيه حتَّى يبلعها قبل تكاملها، فإن ذلك مع كونه من أكبر علامات الشَّرَه والنَّهم يضر من وجهين:

أحدهما: تكليف المعدة هضم ما لا يسحق، وتنفصل أجزاؤه.

والثاني: أن الطَّعام إذا لم يطحن بالأضراس ناعمًا؛ كان أقل تغذية وتقوية.

وأمَّا المقطِّع: فهو الَّذِي إذا تناول اللقمة بيده استكبرها، فعضَّ على نصفها، وبقي بيده النصف الآخر، فيعاود غمسه في المرق ثم يأكله.

وأمَّا المبعبع: فهو الَّذِي إذا أراد الكلام لم يصبر إلى أن يبلع اللقمة، لكنه يتكلم في حال المضغ، فيبعبع كالجمل، ولا يكاد يُفسِّر كلامه خصوصًا مع كبر اللقمة.

وأمَّا المفرقِع: فهو الَّذِي لا يضم شفتيه عند المضغ، فيسمع لأشداقه صوت من باب داره، وهو من عيوب المؤاكلة، والأحسن ألا يسمع صوت الأكل أقرب النَّاس إلى الأكل.

وأمَّا الدَّفَّاع: فهو الَّذِي إذا جعل اللقمة في فِيه؛ أدخل معها بعض سبابته كأنه يدفعها بها.

وأمَّا اللَّطَّاع: فهو الَّذِي إذا استوعب ما في الإناء؛ لطعه بأصابعه.

وأمَّا اللَّحَّاس: فهو الَّذِي يلحس أصابعه، ليميط عنها وَدَكَ الطبيخ قبل أن يفرغ من الأكل، وهو من العيوب إلا أنَّه بعد الفراغ مباح على ألا يعاود إلى الطَّعام، وأفضل الحالين تعهد الأصابع بما يمسح به كل وقت كمئزر المائدة.

وأمَّا المِعطاش: فهو الَّذِي إذا عطش، وفي فمه لقمة لا يصبر حتَّى يبلعها ثم يشرب، بل يمسكها في شدقه ثم يشرب الماء، ويعاود إلى مضغها.

وأمَّا المُعرِّض: فهو الَّذِي يُعَرِّض بذكر ما أخلَّ به ربُّ المنـزل من الأطعمة، ولو في حكاية يوردها؛ فإن ذلك نوع استصغار ربِّ المنـزل إن لم يقدر على إحضاره، وتثقيلاً عليه إن تكلَّف إحضاره في الوقت، كمن يطعم الأرز باللبن؛ فيقول: هذا الطَّعام نافع، ولو كان مع العسل، ومع سكر؛ كان أنفع وأسرع للانهضام وكثير التغذية، فيحتاج ربُّ المنـزل إلى إحضار ذلك.

وبلغني أن المأمون طلب من عليّ بن هشام أن يعمل له دعوة، ولم يمكنه الزمان الَّذِي تمكن فيه أنْ يحتفل لدعوة، فلما دخل المأمون دار عليّ، شاهد من الآلات والتَّجمُّل ما حار له؛ فقال: ما أظنُّ أنَّ رجلاً تبلغ مروءته ونبله إلى ما أرى، وخاف عُمر ابن مسعدة على عليٍّ من المأمون.

فقال: يا أمير المؤمنين، إن عليًّا شعر بأنا نهجم عليه، فاستعد لنا واستعار، فلم يفطن عليٌّ بمقصوده، وظنَّه يذهب إلى الانتقاص بمروءته، فبادر وحلف برأس المأمون إن كان استعان بأحد في تَجَمُّله أو استعار شيئًا، فلما جلسوا على الطَّعام، غمز المأمون أبا أحمد ولد الرَّشيد، فقال: أشتهي مُخًّا؛ فقلت: صحاف المخ، وهو يأكل ويستزيد، فلمَّا شعر الطَّباخ بمقصوده، قال: أنت في دار عليّ بن هشام، وإن هؤلاء قصدوا التعدي على مروءة سيدنا ونبله، وإظهار عجزنا عن إحضار ما طلبوه، وقد ذبحت كل ما كان عندي، وملأت الصحاف بمخِّه، وهم غير مقتنعين، ولا يملأ عيونهم إلا مخُّ المهريِّ، وكان لعليّ مهري تسبق الريح، قد اشتراه بعشرة آلاف درهم، فقال له: ما انتظارك به؟ قال: أستأذنه؟ قال: ليس عندنا وقت إذن، وبادر الطباخ إلى الفصيل وذبحه، وخلَّص

عظامه، وصلفها، وخلَّص المخ، وصار يمدهم بصحاف المخ، وهم يأكلون، وأبو أحمد يستزيد إلى أن خجل المأمون، وغمز أبا أحمد فأمسك.

والنَّفَّاخ: هو الَّذِي يتناول اللقمة الحارَّة، فينفخها بفِيه ابتغاء تبريدها، وكان سبيله الكفُّ عن الطَّعام إلى أن يمكنه تناوله.

وأمَّا الممتدُّ: فهو الَّذِي يأكل من صحفة بعيدة عنه، فيحتاج إلى مدِّ باعه، والتزحزح لها.

وأمَّا المزفِّر: فهو الَّذِي إذا استدعى الماء في حال الأكل، تناول عروة الشربة بأصابعه الملوثة بالطعام؛ فيُزفِّر الشَّرَبة، والأدب في هذا أن يمسح أصابعه بالمئزر ثم يتناول بالخنصرين والبنصرين.

وأمَّا المُقزِّز: فهو الَّذِي يتحدث على المائدة بما تشمئز به نفوس مؤاكليه من سمْعه بذكر أخبار المرضى والقَيح والبراز والمخاط، وما شاكل ذلك، والَّذي يكثر من التنخُّع، والبصاق على الطعام.

وأمَّا العائِب: فهو الَّذِي ينبِّه على بعض عيوب الطَّعام؛ فيقول: هذا شِواء قد أحرقه الشَّوَّاء، وهذه هريسة جيدة لولا أنَّها سمراء، وهذا طبيخ كثير الملح.

وأمَّا المستبِد: فهو الَّذِي يستبد بالملعقة دون مؤاكليه أو يغيِّرها مِمَّا يجري هذا المجرى.

وأمَّا المهمِل: فهو الَّذِي لا يراعِي جاره الجالس إلى جانبه، والأدب أن يؤثِره ببعض ما يستطاب من قِطَع اللحم، وأن يعرض عليه الشُّرب عند تناوله الشَّربة.

فأمَّا الرئيس: فمن أدبه في المؤاكلة تقديم النَّوالات إلى مؤاكليه.

وأمَّا الجَمَليُّ: فهو الَّذِي من خشيته من تنقيط المرق على أثوابه يمدُّ رقبته، ويتطاول إلى قُدَّام كالجَمَل حتى يقطُر ما ينقُط من فِيه على المائدة أو المئزر.

وأمَّا المخرِّب: فهو الَّذِي إذا أكل من صحفة لم يُبقِ فيها سِوى العظام، وذلك من العيوب.

وأمَّا الفُضُولي: فهو الَّذِي لا يتمالك إذا رأى الخروف المشوي حتَّى يتناوله بيديه، ويُمَزِّقُه إربًا إربًا، ويظن أنَّه قد أحسن، ويرى الحاضرون في ذلك تثاقل على ربِّ المنـزل، ورُبَّما كان يريد ينفذ نصفه الواجد صحيحًا إلى مَنْ يريد، وهو بالجملة من عيوب المؤاكلة، إلا أنَّه من ربِّ المنـزل حسن.

وكذلك الَّذِي يتناول بيده ملحًا، فيضعه في الصحفة؛ لأنَّه رُبَّما أفسدها على من يؤاكله فيها، والَّذي يتناول صحفة المري، فيضعه على الهريسة، ورُبَّما كان في الحاضرين من يكرهه؛ لأنَّه لم يعتده، وسبيل المتأدِّب ألا يتجاوز إصلاح ما يأكله.

والطُّفَيلي: فإن حاله معروف.

والملقو: الَّذِي يأكل اللقمة الكبيرة، فيُرَى خارج فكِّه كالسلعة العظيمة على فكِّه مقدار البيضة، فيبقى كأنَّه الملُقو، ولو صغَّر اللُّقَم لأمِن ذلك.

وأمَّا حاطِب ليل: فهو الَّذِي لا يستقصي تأمُّل ما يأكُلُه، فرُبَّما أكل ذبابة عساها تقع في الإناء، وهو لا يشعر، فيتغامز عليه الحاضرون، وإن أكل سمكًا لم يستقص تنقيته من العظام قبل تناوله، فتراه في أكثر الأوقات قد نَشَبَ العظم في حلقه، وأشرف منه على مكروه، وقد ينشب أيضًا عظام دجاج في الحلق، فيبقى مدة طويلة يمتنع من الأكل والشرب ويذوق العذاب، كما أصاب الشيخ النَّجيب يوسف بن يعقوب رئيس هرايان؛ فإنه شارف الموت من ذلك عشرون يومًا حتى خلص العظم من حلقه.

والنَّهِمُ: هو الَّذِي يأكل لقمًا درَّاكًا، ويتأخَّر الجماعة عن المائدة، وهو على حاله.

وأمَّا الحامِد: فهو الَّذِي يحمد الله في وسط الطَّعام جهرًا كأنَّه يتسبب في ذلك إلى تنبيه الحاضرين على الكفِّ عن الأكل.

كما حَكى جحظةُ البرمكيُّ عن نفسه قال: أكل عندي بعض الرجال فسمعني،

وأنا أحمد الله في وسط الطَّعام لشيء خطر ببالي من نعمه الَّتي لا تُحْصَى، فنهض، وقال: أعطي اللهَ عهدًا، إن عاودت، وما معنى التَّحَمُّد في هذا الموضع؟ كأنك تُريدُ تعْلِمنا أنَّا قد شبعنا، ثم مال إلى الدَّواة؛ فكتب:

وحمـــدُ الله يَحْـــسُنُ كـــل وقـــتٍ ولَكِـــنْ لـــيس في وســـط الطَّعـــامِ
لأنـــك تُحْـــشِمُ الأضـــيافَ منـــه وتـــأمرُهُم بـــإسراعِ القِيـــامِ
وتـــؤذِنُهم ومـــا شَـــبِعُوا بِـــشَبْعٍ وذلـك لـيس مـن خُلُـقِ الكـرامِ[1]

وأمَّا المبقِّي: فهو مثل رجل دعاني يومًا، وأحضر على الطَّعام دجاجةً مع صحفات، وفي بيته ثلاث دجاجات سمان مسموطة معلقة؛ فكأنَّه أبقى عليها إذ صغرت هِمَّته عن طبخ كلما حضر عنده، ومثل من يُقَدِّم طعامًا قليلاً لا يكفي الحاضرين، واللحم في داره معلق بإزاء إخوانه.

ويُروى أنَّ رجلاً دعا أمير المؤمنين عليّ بن أبي طالب ﷺ؛ فقال: «**آتيك على ألا تدَّخر ما عندك، ولا تتكلَّف لنا ما ليس في وُسعك**».

وأمَّا المستظهر: فمثل بعض الأغنياء؛ فإنَّه اعتذر بترك الحفل بعذر، ما حسن قط الاعتذار بمثله، وذلك أنَّه قال: ما يمنعني عن الاحتفال إلا الاستظهار، فقيل: وكيف ذلك؟ فقال: أكره أن أحتفل؛ فيتأخَّر عنِّي من أدعوه، إما مِن عمد أو عائق، فأكون قد تكلَّفت شيئًا لم يُنتفع به.

فقال في ذلك بعض إخوانه:

إذا كنـت لا تـدعي الاحتفـال إلا لأنـك تـستظهر

---

(١) الأبيات ذكرها الحصري القيرواني في «زهر الآداب وثمر الألباب» ص (٩٢١، ٩٢٢).

فـلا تـدعُوَنَّ أحـدًا بتـةً فهـذا هـو النظـر الأوفـر

ولا سـيما أنـا مـن بيـنهم فـإني وحقـك لا أحـضر[1]

وكان آخر لا يشرع في شيءٍ من آلة الدعوة حتَّى يحضر إخوانه، ويأمن تأخرهم، فحينئذ يأمر بإصلاح ما يحتاج إليه بمقدار ما قد عرفه، فلا يلحق طعامهم حتَّى يتصرم يومهم، ويضرم نار الجوع في أحشائهم.

فقال بعضهم في ذلك:

خَـاف الـضَّياع عـلى شيء فعجَّلـه مـن المطـاعم إن إخوانـه ثَقُلـوا

فلـيس تعلـو عـلى الكـانون برمتـه حتى ترى أنهم في البيت قـد حـصلوا[2]

وحُكي عن بعض البخلاء أنَّه دعا قومًا، فابتاع لهم جديًّا، فأشفق من أن يذبحه، ولا يحضر القوم، فحضر إلى الجدي فنوَّره، وعمل على أنَّهم إن حضروا ذبحه، وأحضره كهيئة المسموط، وإن تأخَّروا استبقاه إلى يوم حضورهم، فانتهى إليهم الخبر، فدعوه إلى منـزل أحدهم، واحتالوا على الجدي حتى ظفروا به منوَّرا؛ فأخجلوه وفضحوه.

وأنشد بعضهم في ذلك:

ومـستظهر مفـرط الاحتيـاط بخيـل بمذهبـه مغتـبط

دعـا مـرَّة بعـض إخوانـه عـلى غـير عمـدٍ ولكـن غَلـط

---

(١) انظر: «البصائر والذخائر» لأبي حيان التوحيدي ص (٦٩٠).

(٢) انظر: «محاضرات الأدباء ومحاورات الشعراء والبلغاء» للراغب الأصفهاني ص (٢١٧٤)، و«قطب السرور في أوصاف الخمور» للرقيق القيرواني ص (٤٢٤).

وجـاء بجـدي كـبعض الجـداء أعظـم مـن جـسمِهِ جـسمُ قِـط

فقـال لغلمانـهِ نَـوِّروه عـلى أنـه أجـردٌ ممـتعط

فـإن جـاء مـن نتقـي أن يجـيء رأى أنَّـه ذابـحٌ قـد سُـمِط

وإلا أَمِنـا عـلى جـدينا وكـان حقيقًـا بـأن يُـرتبط[1]

وأمَّا المستهلك: فهو الَّذِي يفسد أسنانه، ويهلك أضراسه بشرب الماء عَقِيب الحلوى؛ فإن جلسائه يعيبون عليه ذلك، وكذلك شرب الماء الصَّادق البرد في الشتاء عَقِيب الحارَّة إلا من إبريق، وكذلك الشُّرب على الهرائس والأكارع، وما جرى مجراها؛ فليس من أدب المؤاكلة.

وأمَّا المحتَمِي: فهو ربُّ المنـزل إذا صغر اللُّقمة جدًّا، وتباعد بينهما طويلاً، وحكي بفضل الحمية حكايات، وأشار على من يشتكي وجعًا بالحمية؛ فهو في ذلك منحل.

وفي مثل ذلك يقول الأخطل:

حـسن أكـل الفتـى يـدل عـلى إيناسـه ضـيفه وبـسط أكيلـه

وتـراه يقـل منـه فيـدعو ذاك أضـيافه إلى تبخيلـه[2]

وأمَّا الموحِشُ: فهو ربُّ المنـزل الَّذِي يحرز على غِلمانه أو يهدد طباخه أو يضرب في داره جارية أو غلامًا عند اجتماع ندمائه.

وأمَّا المتشكِّي: فهو ربُّ المنـزل إذا اشتكى السنة غلاء الأسعار، واعتذر إلى

---

(١) انظر: «قطب السرور في أوصاف الخمور» للرقيق القيرواني ص (٤٢٥).

(٢) انظر: «محاضرات الأدباء ومحاورات الشعراء والبلغاء» للراغب الأصفهاني ص (٢١٥١).

ضيفه شدَّة ضائقته، وأقبح ذلك في حال الأكل أو قبله.

وحكى أبو العيناء قال: استضاف بي بعض العرب؛ فلمَّا حضر الطَّعام، وكانت سنة مجدبة، فاعتذرتُ إليه غلاء الأسعار، وأكثرتُ من ذلك؛ فرفع يده قبل أن يأكل، وقال: ليس من المروءة أن تذكر غلاء الأسعار للأضياف عند حضور الطَّعام؛ فاعتذرتُ إليه، وناشدته الله أن يأكل، فلم يفعل، ورحل من الغد، ولم يأكل طعامي.

وأمَّا المستأذِن: فهو الَّذِي يستأذن ضيفه في إحضار طعام.

كما قال أبو العلاء المعرِّي:

لا تَسأَلِ الضَّيفَ إِن أَطعَمتَهُ ظُهُرًا ... بِاللَيلِ هَل لَكَ في بَعضِ القِرى أَرَبُ

فَإِنَّ ذَلِكَ مِن قَولٍ يُلَقِّنُهُ ... لا أَشتَهي الزادَ وَهوَ السَّاغِبُ الحَرِبُ

قَدِّم لَهُ ما تَأَتّى لا تُؤامِرُهُ ... فيهِ وَلَو أَنَّهُ الطُّرثوثُ وَالصَّرَبُ[1]

وأمَّا المملعِق: فهو الَّذِي يتخذ من الخبز ملاعق يحتمل بها المَرَق، وقلَّما يسلم من تلويث يده وثيابه أو لحيته.

وأمَّا المتطاوِل: فهو الَّذِي يلح بالنظر إلى ما بين يدي غيره من الطبائخ؛ فكأنَّه يتطاول إليها أو يتمنَّاها.

والمنقِّط: معروف.

وأمَّا المُرَشِّش: الَّذِي يتناول القطعة القوية من اللحم بيديه جميعًا، ويروم أو يلوي فخذ دجاجة لينفكَّ مِفصَلُهُ؛ فيرُشُّ على جاره وجلسائه.

والمَصَّاص: الَّذِي لا يتمالك إذا رأى عظمًا عن استخراج مُخِّه ودقِّه ومَصِّه.

---

(١) الأبيات من البسبط، وهي لأبي العلاء المعري في ديوانه من قصيدة البيت الأول مطلعها.

وأمَّا المتسابق: فهو الَّذِي يمسك اللقمة في يده قد أعدها قبل أن يمضغ الَّتي في فِيه، فلا يُرَى فكُّه خاليا عن مضغ، ولا يده خالية عن لقمة يمسكها.

وأمَّا الموزِّع: فهو أيضًا فضولي، وهو الَّذِي يفرق معظم الطَّعام على غلمان ربِّ المنـزل، وليس ذلك من أدب المؤاكلة.

وأمَّا الموفِّر: فهو الَّذِي يحضر في أول طعامه ما يرخص عليه كالخل والبقل، ويطيل الأكل، ويؤخِّر إحضار الأطعمة الجيِّدة إلى أن يشبع الحاضرون مِمَّا هو دونها توفيرًا.

ومرَّ بعضهم بجدي سمين؛ فقال: ليت شِعري لغلمان من هذا؟ فُسئل عن معنى هذا القول؛ فقال: يُؤَخِّرُ أصحابنا الجداء، فلا يصل إلينا، فيفوز بها الغلمان.

وخُبِّرت أنَّ بعض المتقدِّمين كانوا يذكرون ما يصنع لهم من الطَّعام في رقعة، ويعرض على من يدعى؛ فمن استطاب شيئًا وقَّر نفسه عليه.

وأمَّا المحَدِّث: فهو ربُّ المنـزل يشاغل مؤاكليه بالحديث المتصل الَّذِي يستدعي الجواب، ويلهيهم الإصغاء عن الأكل، وذلك معدود من اللؤم.

وأمَّا الحديث الَّذِي لا يستدعي جوابًا، ولا يورد على عجلٍ بل يتأن كثيرًا، بحيث يحلل عشرة كلمات لُقمة؛ فهو صاحب المنـزل، والمائدة أحسن من الزائر المدعو.

كما قال بعضهم:

صـــادَفَ زادًا وَحَـــديثًا مـــا اِشـــتَهى

إِنَّ الحَـــديثَ طَـــرَفٌ مِـــنَ القِـــرى[1]

---

(١) الرجز للشماخ بن ضرار في «الأغاني» (٩/ ٥٩٤٢)، و«خزانة الأدب» ص (٣٠٧٨).

ولا محالة أن الآكل إذا اشتغلت همَّته بالإصغاء إلى حديث حَسَن أو استماع شيء يعجبه أو يهمُّه أمره، وهو في خلال الإصغاء مقبلاً على الأكل، كثر مقدار ما يحصل له من الطَّعام.

ويستجاد لبعض المحدثين:

كَيفَ اِحتِيالي لِبَسطِ الضَّيفِ مِن خَجَلٍ عِندَ الطَّعامِ فَقَد ضاقَت بِهِ حِيَلي

أَخافُ تَردادَ قَولي كُل فَأَحشِمَهُ وَالصَّمتُ يُنزِلُهُ مِنّي عَلى البَخَلِ[1]

وأمَّا المستأثر: فهو ربُّ المنزل يدعو رجلاً؛ فيؤاكله ثم يغلب عليه النَّهَم فيستأثر بأطايب الطَّعام دونه، وإن اتفق الطَّعام لا يكفيهما جميعًا كان شبعه أهم عنده من شبع ضيفه.

وفي عكس هذا المعنى يقول مُتمِّم بن نويرة:

لقد كفَّنَ المنهالُ تحت ردائهِ فتىً غيرَ مِبطانِ العشياتِ أروعا[2]

يريد: أنَّه كان يؤثر الأضياف بالزاد على نفسه، ولا يستوفي منه شبعه.

وقد قال المبرد: إنَّه كان يُؤَخِّرُ العشاء إلى الليل انتظارًا لضيف أو طارق يؤاكله.

وأحسنُ ما قيل في إيثار المؤاكلين قول حاتم طيئ:

وَإِنّي لأَستَحيِي صِحابِيَ أَن يَرَوا مَكانَ يَدي في جانِبِ الزَّادِ أَقرَعا

---

(١) البيت من البسيط، وهو لدعبل الخذاعي في «محاضرات الأدباء ومحاورات الشعراء والبلغاء» للراغب الأصفهاني ص (٢١٥٢).

(٢) البيت من الطويل، وهو لمتمِّم بن نويرة اليربوعي في «الآمالي» لليزيدي ص (٢٧)، و«المفضليات» للمفضل الضبي ص (٢١٩).

وَإِنَّـكَ مَهـما تُعـطِ بَطنَـكَ سُـؤلَهُ وَفَرجَـكَ نـالا مُنتَهـى الـذَّمِّ أَجمَعـا[1]

وحُكي عن الرَّشيد ﷺ من كرم المجالسة ولطف البِرِّ في المؤاكلة على ما يتجاوز هذا كله، وهو أن الفزاري قال: دخلتُ عليه بالرقة، وهو في قصر الخشب، ولم يكن معنا ثالث غير من يقوم بين يديه من خاصة حشمه، فتحدثنا مليًّا ثم أومأ إلى بعضهم، فجاءوا بطبق كبير مغطًّى، فوضعه بين يديه، وأدخل يده فيه من غير أن يرفع المنديل، فاستخرج رطبة، فأكلها ثم استخرج أخرى، فأومأ بها نحوِي، فقمت فتناولتها، وقبَّلت يده ثم أمره برفع المنديل؛ فلما رُفِعَ، فلم أر في الطَّبق شيئًا؛ فقال: إنَّه كان أُهدِي لنا فيه رطب ولات، ولم يكن بقِيَ منه غير ما رأيته، فعلمت أنَّه أمر بتغطيته؛ لئلا أرى فِعلته، فأمتنع من أكل الرُّطبة الَّتي ناولنيها أوفرها عليه.

وأمَّا المتعدِّي: فهو الَّذِي يأكل ما بين يدي غيره.

وأمَّا اللفَّاف: فهو الَّذِي يلفُّ لنفسه لفَّة بعد لفةٍ من الخبز كل واحدة نحو ثلث رغيف، ويعضُّها في عدة مرات؛ فهو بين الإخوان غير مستحسن أنْ يفعله المرء لنفسه، لكن يحسن أنْ يفعله ربُّ المنـزل لغيره، وخصوصًا للنساء؛ فإن اعتماد ذلك معهن مِمَّا يقرب إليهن، وخصوصًا بعد امتناعهن من الأكل.

والعضَّاض: هو الَّذِي يعضُّ أحد مؤاكليه، ولا يجد ماء لغفلته عن إعداد الماء قبل الأكل.

والمتلفِّت: الَّذِي لا يزال يتلفَّت إلى الناحية الَّتي يُنقل عنها الطَّبيخ كأنَّه يتوقع طبيخًا آخر؛ فإذا رُفِعَ الطَّعام أُلفِيَ متلفِّتًا إلى صحفائه كأنَّه يُشيِّعها بنظره، فيوهم من يراه أنَّه لم يشبع منها.

---

(١) البيتان من الطويل، وهما لحاتم الطائي في «البيان والتبيين» ص (١٣٨٠)، و«الشعر والشعراء» ص (٢٤٧).

والنَّثَّار: هو الَّذِي يُفرط في القهقهة، واللُّقمة في فِيه، فيشاهِد جلساؤه اللقمة ممضوغة داخل شدقه، ويتناثر منها ما استحق على ما بين يديه.

والبقَّار: هو الَّذِي يُخرج لسانه كالبقرة وقتًا بعد وقت، للحس شفتيه وخارج فمه.

وأمَّا المغتنم: فهو النديم الَّذِي إذا عرض عليه الرئيس غسل يده بحضرته تجَمُّلا اغتَنَم ذلك، وبادر إليه، ولو أتى ذلك، وغلب الأدب؛ لخفَّ على القلب، واستفاد الحظوَة، وأمِن التَّقبيل.

ولو اصطلح النَّاس على الاعتزال لغسل الأيدي مع كل طبقة حتَّى لا يرى بعضهم بعضًا، لكان ذلك أليَق الطُّرُق، وأشدَّ مكانًا، لما يحتاج إليه من استقصاء الغسل والتنظيف، وإحاكة الأنامل في اللهوات، والخلال في الأسنان، وما شابه ذلك، مِمَّا لا يشك أحد أن ستره عن النَّاس محِبّ ومبغِض، ورفيع ووَضيع، أحمد من اطلاعه عليه، وأنَّ المرء يتأذى بأن يرى ذلك من نفسه، فكيف من غيره.

وحُكي أن الحَجَّاج أصبح جائعًا؛ فقال لأصحابه: ما خُبِز الغذاء؟ فقال ابن القرية: بواكره أيها الأمير، فقال: ولم ذلك؟ وهل ذلك في كل أوان؟ فقال: نعم، إن كان الزمان شتاءً؛ فلِطول الليل، وهضم المعدة، وإن كان قيظًا؛ فلبرد الماء، وقلَّة الذُّباب، رجَّل رجلاً، فقال له: هل لك أن تصير إلى منـزلي، فنأكل خبزًا وملحًا؟ فظن ذلك القول منه على المجاز، فمشى معه، فلم يزده على الخبز والملح شيئًا، فبينما هما يأكلان إذ وقف بالباب سائل، فردَّه صاحب الدار مِرارًا، فلم يبرح وألحَّ عليه، فقال: إما انصرفت، وإلا خرجتُ إليك فكسرتُ رأسك، فقال له المدعو، وهو يسمع: يا هذا انصرف؛ فإنك لو عرفت من صدق وعيده ما عرضت له.

وقد حُكي عن محمد بن عبد الملك، قال: أعين على أحمد بن أبي داود بأشياء لم أعن مثلها، حتَّى أنه أُعين عليَّ في تمكن حاله عند الواثق بأنَّه كان طيب الأكل، طحون الضرس، هضوم المعدة، وكنت على خلاف ذلك، فحضرته يؤاكل الواثق، وليس معهما ثالث، ودعاني الواثق إلى الطَّعام، فأقبلت أنقِّر على حسب عادتي، وخمود شهوتي، وهما

يتباريان في تكبير اللُّقمة، وجودة الأكل، فلما رأى ذلك منِّي أحمد، قال: يا أمير المؤمنين، ما جلوس هذا المحتمِي معنا يحصِي علينا اللُّقَم؟

إمَّا أكل كما نأكل فوفَّانا حقَّ المؤاكلة، ولم يحشمنا، وإلا نهض، فيتفرَّد بمؤاكلة أمير المؤمنين من يحسن حضورها، ويقابلها بما يلائمها، فقال الواثق: قد صدق أحمد، فاختر أو دَع؛ فما نهضتُ.

لبعض الشعراء يوصي طُفَيليًّا:

وإذا القطـائف جـاء والفـالوذج ... يـصبو الفـؤاد إليـه أو يتمنـع

فاحـسر كمامك عـن ذراعـك كلـه ... حتـى كأنـك طـول شيء تـذرع

ثـم افترسـه فريـسة الليـث الَّـذِي ... هـو منـذ شـبع في الفـلاة مُجَـوَّع

وإذا ضـعفت فغـنِّهم متمـثلاً ... وقفـاك في أيـديهم يتقطَّـع

وَتَجَلُّـدي لِلـشامِتينَ أُرِيهِـمُ ... أَنّي لَرَيـبِ الـدَّهرِ لا أَتَضَعـضَعُ[1]

مـن كـان تعجبـه الجـداء الرُّضـع ... مـن غـير حاصـله فلـم لا يـصفع

وحُكي أنه كان على سُفرة بعض الكِرام مكتوبًا هذه الأبيات:

ألا كُـلْ هنيـا ولا تجتـشم ... فـما الاجتـشام فعـال الكـرم

فـما الجـود والفـضل إلا لمـن ... تفـضل يومًـا بنقـل القـدم

(١) البيت من الكامل، وهو لأبي ذؤيب الهذلي في «الحماسة المغربية» للجراوي ص (٤٣١)، و«العقد الفريد» ص (١٨٩٣).

الباب الثالث من الجملة التاسعة
في أدب الشَّراب

مجلسُ الشَّرابِ مجمع النُّدماء والأصحاب، ومَوسم مؤانسة الإخوان والأحباب، ومعدن اللذات والمسرَّات، وله آداب أهمُّها سبعة عشر أدبًا:

الأوَّل: تحرُّز ربِّ المنـزل من إحضار نبيذ قد تسلط عليه الهواء أو فُتح رأس إنائه منذ مدة، أو قد مُزِج يومًا أو أكثره ممزوجًا أو في طعمه مرارة؛ فإن النَّاس إنَّما اجتمعوا على الخمرة؛ لأنَّها تفرح، والخمر الَّذِي قد فُتِح منذ زمان قَلَّ ما يفرِّح، والَّذي قد تسلط عليه الهواء أو بطول مكثه ممزوجًا بحيث يتغير طعمه يولِّد الغمَّ والفكر، خصوصًا إذا مال إلى شيء من الحموضة.

فإن المعاشِرين يجوِّزون في الطَّعام، ولا يحتملون كدَرَ الشَّراب، ويشربون الجيِّد الرَّائق من الشُّراب، فيعفِي عن صغير الطَّعام، والكثير من غليظ الشَّراب يفسد ما يولَع به من شريف الطَّعام زمان المشاربة أطول من زمان المؤاكلة.

قال أبو نواس في مدح رائق الشَّراب، وذم غليظه:

مِـــن شَرابٍ أَلَـــذَّ مِـــن نَظَـــرِ المَعـــ ـــشوقِ في وَجـــهِ عاشِـــقٍ بِابتِـــسامِ
لا غلـــيظٌ تنبـــو الطبيعـــةُ عنـــه نَبـــوَةَ الـــسَّمعِ عـــن غلـــيظ الكـــلام[1]

وقال البحتري:

إِذا صُـــبَّ مُـــسوَدُّهُ في الزُجـــا جِ فَكَـــأسُ النَـــديمِ بِـــهِ مَحـــبَرَه[2]

---

(١) البيتان من الخفيف، وهما لأبي نواس في «اللطف واللطائف» لأبي منصور الثعالبي ص (١٠٩)، و«المحب والمحبوب» للسري الرفاء ص (٨٨٢).

(٢) البيت من المتقارب، وهو للبحتري في «التذكرة الحمدونية» لابن حمدون ص (٥٦٧٦)، و«التشبيهات» لابن أبي عون ص (٣٠٥).

وقال أحمد بن الرومي:

عَلَّنـــي أحمـــدٌ مـــن الدُّوشـــاب شَربـــةً بَغَّـــضَتْ قِنَـــاعِ الـــشبابِ

لـــو تـــراني وفي يـــدي قـــدحُ الـــدُّو شـــاب أبـــصرتَ بَازيـــارَ غُـــرابِ[1]

ولجحظة البرمكي في المعنى:

لأبي الفـــضل نبيـــذ جيِّـــد لـــيس يُعـــابُ

هـــو في حـــال طعـــام وهـــو في حـــال شراب

والثاني: ألا يُحضر نبيذين جيِّدًا ورَدِيًا، يخص بالجيد قومًا دون قوم؛ فإن ذلك مِمَّا يُبَخِّل به ربّ المنـزل ويستلام به مشاربوه، ولو لم يكن مِمَّا ذممنا من تلوين الشَّراب إلا لما سار في هذا المعنى قول الشاعر:

رأيـــت نبيـــذين في مجلـــس فقلـــت لإخواننـــا مـــا الـــسَّبَب

فقـــالوا الَّـــذِي نحـــن في بيتـــه يفـــضِّل قومًـــا بـــسوء الأدب[2]

وقال العطوي:

نَبيـــذانِ في مَجلِـــسٍ واحِـــد لا يُثـــارُ مَثـــرُ عَـــلى مَعـــسَر

فَلَـــو كُنـــتَ تَفعَـــلُ ذا في الطَّعـــا مِ لَزِمـــتَ قِياسَـــكَ في المَـــسكَر[3]

---

(١) البيت من الخفيف، وهو لابن الرومي في «التذكرة الحمدونية» لابن حمدون ص (٥٦٧٤)، و«التشبيهات» لابن أبي عون ص (٣٠٤).

(٢) البيتان في «الجليس الصالح» للمعافى بن زكريا الجريري ص (٢٢٦٦)، و«قطب السرور في أوصاف الخمور» للرقيق القيرواني ص (١٢٢).

(٣) البيت للعطوي في ديوانه من قصيدة البيت الأول مطلعها، وبلا نسبة في «الأغاني» (٨/ ٥٣٢٣)، و«قطب السرور في أوصاف الخمور» ص (١٢١).

والثالث: ألا يغفل ربُّ المنـزل عن عرض الطَّعام على مَن يدخل عليه في مجلس الشُّرب قبل عرض الشَّراب عليه لا سيما إذا صادفه الداخل على الشُّراب، ولم يُدْع إليه، فرُبَّما وافقت هذه الحالة منه جوعًا لا يَحتمل الشُّرب إذ في ذلك من التَّعرض للمغص والمرض ما يُحترز على الإخوان من مثله.

والرابع: أن يعفَي ربُّ المنـزل عن الشُّرب من يستعفيه، ولا يلح عليه بالتشفُّع، ولا يثقل عليه بالنـزول عنده إلا أن يتفرَّس أن امتناعه يكون ارتقابًا؛ لأن يُلزم بذلك، فالناس أطوار، ورُبَّ صالح تَقِيٍّ في ثياب فاجر، وبالضِّد.

وما أحسن قول أبي نواس:

ولـــست بقابـــل لنـــديم صـــدق وقـــد دار الـــشَّرَاب بوجنتيـــه
تناولهـــــا وإلا لم أذقهـــــا فيأخـــذاها وقـــد ثقلـــت عليـــه
ولكنـــي أصـــدُّ الكـــأس عنـــه وأتركهـــا بغمـــزة حاجبيـــه
فـــإن مـــدَّ الوســـاد لنـــوم سُـــكرٍ دفعـــت وســـادتي أيـــضًا إليـــه[1]

وإذ يحتمل أن يكون للمستعفي من الشُّرب مهما لا يمكنه دفعها، وهو يستبقي لها.

والخامس: أن يعفي عن الشُّرب من استعفى، ويغير الدور عمن استقال، ولا يلفت إلى بغيض أمر بلزوم النظام؛ فإن اختار المستقيل من الدور عين الجهل إذا مزجه النَّاس لا يتناوى في احتمال الشُّرب والأكل؛ لأن الإنسان شيال المزاج مستعد لحدوث الأعراض المانعة عن الشُّرب؛ كالمغص والشري والخوانيق.

---

(١) الأبيات لأبي نواس في «محاضرات الأدباء ومحاورات الشعراء والبلغاء» ص (٢١٢٥)، و«التذكرة الفخرية» ص (٤٩٧).

وأصل ترتيب الشُّرب على الدور إنَّما جعل ليكون عرض الكأس على حاضريه بالعدل والسَّواء والقسط؛ فيؤمن نسيان الساقي أحدهم، وإغفاله من تحتشمه المجلس عن المطالبة بالكأس.

قال عمرو بن معدي:

صـــددتِ الكـــأس عنَّـــا أمَّ عمـــرو وكـــان الكـــأس مجراهـــا اليمينـــا[1]

والغرض من ألا يغفُل الساقي عن أحد الحاضرين أن يتساووا في الشُّرب، والغرض من ذلك تساويهم في النشوة في السرور الَّذِي يحدثه، والأخبار بمعزل من اجتلاب المسرَّات، وتوخِّي الأفراح.

وكما أن من النَّاس من يشعر نفسه أن القليل من المسكر يلحقه بالمنتشين، وإذا تجاوز ذلك سبقهم إلى السُّكر، كذلك أيضًا من النَّاس من لا ينشيه القليل، ولا يسكره الكثير، فلا إكراه على الأوَّل، ولا منع على الثاني، والأحسن أن يشرب الأوَّل بالصَّغير، والثاني بالكبير، والأول أن يكثر مزاج قدحه وأن ينقصه، والثاني أن يصرفه ويدهقه.

وقال السهمي بن عبد الرحمن في ظرفاء الحجاز:

إذا أنـــت نادمـــت العتـــير وذا النَّـــدى جبـــيرًا ونازعـــت الزجاجـــة خالـــدًا

أمِنـــت بحمـــد الله أن تُقـــرع العـــصا وأن توقِظوا من نومة الـسُّكر راقـدًا[2]

وقلَّما سمعنا بأحد يبين منه، ومنه كثيرًا محل الأغلب عليه إجبار النديم على

---

(١) البيت من الوافر، وهو لعمرو بن معدي كرب الزبيدي في «الأغاني» (١٥/ ١٠٠٦٨)، و«معجم الشعراء» للمرزباني ص (١٦).

(٢) البيت بلا نسبة في «الأغاني» (٢٠/ ١٣٤٤٢)، و«الأشربة وذكر الاختلاف فيها» لابن قتيبة الدينوري ص (٢٥).

الشُّرب، والحلف عليه، واستثقاله واستزادته إذا تأبَّى وامتنع، ولا عيب على النديم في السكر إذا كان مجبرًا عليه بل يغفر له فرطاته، ويقيل فيه عثراته.

كما قال العطوي:

ومن حكَّمتَ كأسك فيه فاحكم له بإقالةٍ عند العثار[1]

والسادس: ألا يستعفي من الدور مَن يكون قادرًا على الشُّرب؛ فإن الحرفاء تشق عليهم تخلف الحَرِيف عنهم في الشُّرب، مع علمهم باستطاعته وقدرته عليه؛ لأنهم ينسونه إلى استبقاء حسه وعقله، لينفرد بالهزؤ بهم، وإحصاء فرطاتهم.

قال الحسين بن الضحاك:

على مدير الكأس حيث على الكأس نديا
سأقول الدَّهر أحسنت وإن كنت مسيا
لست أستعفيك من حثك في السقي عليّا

وجوَّد بعضُ الكُتَّاب في قوله:

ولست بمُستعفٍ من السكر صاحيًا إذا كان يهوى أن أصير إلى السكرِ
ولكنني أسعى إلى السُّكرِ واثقًا بما فيه إن أخطأت من سعةِ الصدرِ
فإن هو أعطاني سكرت ولم أكن لأكثر من شرب يزيد على القدرِ[2]

والسابع: أنْ يسقي كل حرِّيف بما يوافقه من المزاج والمقدار، ولا يجاوز إلى ما يكرهه الشارب.

والثامن: المسارَّة لبعض الحاضرين استشعارًا، وإثارة معاتبات وعربدات؛ فهي

(١) البيت للعطوي في «التمثيل والمحاضرة» ص (٩١٠)، و«زهر الآداب» ص (٢٧١).

(٢) البيت الأول والثاني لأبي نواس في «قطب السرور في أوصاف الخمور» ص (٣٦٠).

مِمَّا يكره في مجلس الخمر حتَّى كأنَّه لم يكن، بحيث لم يعترف بشيء منه، ولو نيل منه، وكتمان ما تبديه النَّشوة من فلتات اللسان، وعورات الكرام، وما يبديه المتكلِّم.

قال عليّ بن الجهم:

وَالقَومُ إِخوانُ صِدقٍ بَينَهُم نَسَبٌ ... مِـنَ المَـوَدَّةِ لَم يُعـدَل بِـهِ نَـسَبُ

تَراضَـعوا دِرَّةَ الـصَّهباءِ بَيـنَهُمُ ... وَأَوجَبوا لِرَضيعِ الكَأسِ ما يَجِبُ

لا يَحفَظـونَ عَـلى الـسَّكرانِ زَلَّتَـهُ ... وَلا يَريبُـكَ مِـن أَخلاقِهِـم رِيَـبُ[1]

وقال آخر:

كَـريمٌ يُميـتُ الـسِّرَّ حَتّـى كَأَنَّـهُ ... إِذا استَخبَروهُ عَن حَـديثِكِ جاهِلُـه[2]

والأصل في هذا ما حُكي عن المأمون في قوله: [النذ بساط؛ فإذا رفع طووه][3].

والعاشر: ألا يمازح أحد على الخمر من لا يمازحه، ولا يعبث بمن لا يعرفه.

والحادي عشر: قلَّة العبث بالنُّقل إلا بما يجيء به.

والثاني عشر: الامتناع عن الشُّرب عَقِيب الطَّعام؛ فإنه يهدر الطَّعام قبل انهضامه، ويتذرف به إلى العروق قبل تحلله، إلا إن انتظر إلى ذلك حضور من لا يمكنه مخالفته؛ فيشرب حينئذ بالصَّغير.

والثالث عشر: التحرز من قول شيءٍ يثقل على ربِّ المنـزل حين تستحسوا السماحة به.

---

(١) البيت من البسيط، وهو لعلي بن الجهم في «الأغاني» (١٠/ ٦٧٨١)، و«التذكرة الحمدونية» ص (٥٦٨٦).

(٢) البيت من الطويل، وهو لكثير عزة في «نهاية الأرب في فنون الأدب» للنويري ص (٣٨١٠)، و«الأمالي» لأبي علي القالي ص (٧١٨).

(٣) هكذا في الأصل.

حكى أبو الفرج الأصبهاني: أن حمزة بن بيض كان من خلعاء عبد الملك بن مروان، وكان عبد الملك يعبث به عبثًا شديدًا، فوجَّه ذات ليلة رُسُله إلى حمزة، وقال: خذوه على أي حال وجدتموه، فوجدوه يريد أنْ يدخل الخلاء؛ فقالوا: أجب الأمير، فقال: ويحكم، إني أكلت طعامًا كثيرًا، وشربت نبيذًا حلوًا، وقد أخذتني بطني، فأخذوه فجهد على الخلاص منهم، فلم يقدر؛ فأتوا به إلى عبد الملك؛ فوجدوه جالسًا في طارمة، وعنده جارية كان يتحظَّاها، وهو يبخِّر الند، فجلس عنده يحادثه، وهو يعالج ما هو عليه.

قال حمزة: فعرضَت لي ريح؛ فقلت: أسرِّحها واستريح، فلعل نتنها لا يتبين مع هذا البخور، فأطلقتها، فغلب نتنها والله على الند، فقال: ما هذا يا حمزة؟ فقلت: عليَّ عهد الله وميثاقه، وحلفت له أني ما فعلتها، وما هذا إلا من عمل هذه الفاجرة؛ فغضب، وخجلت الجارية، فما قدرتْ على الكلام، ثم جاءتني أخرى فسرَّحتها، فسطع ريحها، فقال: وما هذا ويلك؟! والله أنت الآفة؛ فقال: امرأته طالق إن كان فعلها، فقال: هذه اليمين لازمة لي إن كان فعلتها، وما هو إلا عمل هذه.

فقال: ويلك ما قصَّتك؟ قومي إلى الخلاء إن كنت تجدين حسًّا، فازداد خجلها وأطرقت، فسرَّحتُ أخرى، فسطع ريحها ما لم يكن في الحساب، فغضب عبد الملك حتَّى كاد يخرج من جلده، ثم قال: يا حمزة! خذ بيد هذه الزَّانية، فقد وهبتها لك، فقد نغَّصَت عليَّ ليلتي، فأخذت بيدها وخرجت، فلقيني خادم له، فقال: ما تُريدُ تصنع؟ فقلت: أمضي بهذه، فقال: لا تفعل، فوالله ليبغضنَّك بغضًا لا ينتفع به أبدًا، وهذه المائة دينار خُذها، ودع الجارية؛ فإنه يتحظَّاها، وستندم على هبته إيَّاها لك، فقلت: والله لا نقصتها عن خمسمائة دينار، فلم يزل يزدني حتَّى بلغ بي مائتي دينار، فلم تطب نفسي على أن أضيِّعها، فقلت: هاتها، فأعطانيها، وأخذ الجارية.

فلما كان بعد ثلاثة أيام دعاني عبد الملك، فلما قربت من داره لقيني الخادم؛ فقال لي: هل لك في مائة دينار، وتقول ما لا يضرك، ولعله ينفعك؟ فقلت: وما ذاك؟ قال: إذا دخلت عليه ادَّعيت أن الثلاث فسوات منك، ونسبتها إلى نفسك، وانضح ما قرفت به الجارية، فقلت: أفعل، فدخلت على عبد الملك، فقلت: لي الأمان حتَّى أخبرك بما يسرُّك ويضحكك؟

قال: لك الأمان، قلت: أرأيت ليلة ما جرى؟ قال: نعم، قلت: عليَّ وعليَّ، إن كان فسا الثلاث فسوات غيري، فضحك حتَّى استلقى على قفاه، ثم قال: ويلك، فلِم لَم تخبرني؟ قلت: أردت بذلك خصالاً؛ منها أني قمت فقضيت حاجتي، وقد كان رسولك منعني ذلك، ومنها أني أخذت جاريتك، فقال: وأين الجارية؟ فقلت: والله ما برحت من الدار، ولا خرجت، وحدثته حديثي وحديث الخادم؛ فسرَّ بذلك، وأمر لي بصلة، وجاءني من الجارية مائة دينار؛ فما رأيت أغلى من تلك الفسوات[1].

والرابع عشر: التَّحَرُّز من مكر الخلفاء من مبايعة، أو معاملة على طريق المزاح؛ فهذه الحيلة أخذت من عبد الله بن جعفر الهاشمي الجارية الَّتي هواها يزيد ابن معاوية، وقد سموه العاشق، فسألته عن حاله؛ فأخبرني أن أميرًا شكا بعد معاملة عامله، ثم والفه وقرَّبه واستعماله وواكله وشاربه، ثم ذاكره أمر جاريته، وكان عنده جارية تركية فائقة في الجمال.

قال: فسامني بيعها حين علم أن الخمرة قد استولت عليَّ، فامتنعت من بيعها لكلفي بها، فأعانه الجماعة الحاضرون عليَّ، وقبَّحوا لي مخالفته، وخدعوني حتَّى بعتها إياه بمائة دينار، فأنفذ من تسلمها في ليلة، وعند الصباح ندمت على ذلك، وبذلت الجهد في

(١) انظر: «الأغاني» (١٦/ ١٠٥٧٧).

ردِّها، فلم يكن لي سبيل، واستغثت إلى أتابك ثلاث مرات، وما أفادني، فأنا أعزِّي نفسي وأسليها، وإن كنت لا أسلوها.

وحكى الهيثم بن عدي أن عبد الله بن العجلان كان سيدًا في قومه، وكان أبوه أكثر بني نهد مالاً، وكانت هند امرأته التي كانت له من بني نهد، وكانت أحبَّ النَّاس إليه وأحظاهم، فمكثت عنده سنين سبعًا أو ثمانيًا لم تلد له؛ فقال له أبوه: إنَّه لا ولد لي غيرك، وهذه المرأة عاقر، فطلِّقها وتزوج غيرها، فأبى ذلك عليه، فآلى ألا يكلمه أبدًا حتَّى يطلقها، فأقام على أمره، فعمد إليه يومًا، وقد شرب حتَّى سكر، وهو جالس مع هند؛ فأرسل إليه أن صِرْ إليَّ.

فقالت له هند: لا تمض إليه؛ فوالله ما يريدك لخير، وإنما يريدك؛ لأنَّه بلغه أنك سكران، فقد طمع فيك، أن يقسم عليك، فتطلقني، فنم مكانك، ولا تمض إليه، فأبى وعصاها، فتعلقت به، فضربها بمسواك كان بيده، فأرسلته، وكان في يدها زعفران؛ فأثَّرت في ثوبه مكان يدها، ومضى إلى أبيه، فعاوده في أمرها وضعَّفه، وجمع عليه مشيخة قومه وفتيانهم، فتناولوه بألسنتهم، وعيَّروه لشغفه بها، وضعف حزمه، ولم يزالوا به حتَّى طلَّقها.

فلما أصبح أُخبر بذلك، وقد علمت هند؛ فاحتجبت عنه، وعادت إلى بيت أبيها، فأسِف عليها أسفًا شديدًا، فلما رجعت إلى أبيها زوَّجها رجلاً من بني نمير؛ فبنى بها عندهم، وأخرجها إلى بلده، فلم يزل عبد الله بن عجلان دنفًا سقيمًا، يقول فيها الشعر، ويبكيها حتَّى مات أسَفًا عليها.

وقال في طلاقه إياها:

فارقـــت هنـــدًا طائعًـــا ونـــدمت عنـــد فراقهـــا

فـــالعين تـــذري دمعـــة كالـــدُّرِّ مـــن آماقهـــا

ولقـــــد ألـــــذُّ حـــــديثها وأُسرُّ عنـــــد عناقهـــــا[1]

وقال عروة بن الورد لما فارق الكنانية على الخمر، وأصبح نادمًا لذلك:

ســـقوني الخمـــر ثـــم تكنَّفـــوني عـــداة الله مـــن كـــذب وزُور

فيـــا لله كيـــف غلبـــتُ أمـــري عـــلى شيءٍ ويكرهـــه ضـــميري[2]

والخامس عشر: ترك استباحة الرئيس على السُّكر، وطلب الحاجة منه عند انتشائه؛ فإن ذلك ترى منه جاريًا مجرَى الخديعة، ويدخل في باب الحيلة إلا ملوك زماننا هذا؛ فإن مجالستهم في أكثر الأوقات لا تخلو عن الخمر، وأكثر أوقات أمرهم ونهيهم إنَّما هي أوقات جلوسهم على الخمر، وإن عدل الحرِّيف عن المسألة لنفسه، واستمع لغيره، ودخل ذلك في باب حسن [الضيافة] والحض على الكرم، وخرج من النعيم واللوم، فأمَّا إذا لم يشب المجالسة والمحادثة [.....][3]، ودفعت الصُّورة إلى المسألة؛ فالأحسن في ذلك ألا يبتدئ بالسؤال محضًا، وأن يتوخَّى له من الأحاديث والمعاريض، ما يندرج السؤال في أضعافه على ألطف ما يمكن في ذلك، وأقربه من النادرة.

كما فعل المفَضَّل الضبي، وقد بات عند المهدي فلم يزل يحادثه ويناشده حتَّى ذكر حمَّاد الراوية، فقال له المهدي: ما فعل عياله؟ ومن أين يعيشون؟ فقال له: من ليلة مثل هذه كانت له مع الوليد بن يزيد.

والسادس عشر: ألا يمنع ربُّ المنـزل أحدًا من الانصراف إذا ظهر منه صدق الرغبة في ذلك؛ فرُبَّما منعه ما هو أهم عليه من النبيذ.

---

(١) الأبيات لعبد الله بن عجلان في «الأغاني» (٢٢/ ١٤٩٧١).

(٢) البيتان من الوافر، وهما لعروة بن الورد في «الأغاني» (٣/ ١٥٤٤)، و«منتهى الطلب من أشعار العرب» لابن المبارك ص (٥٩٣).

(٣) غير واضح بالأصل.

والسابع عشر: ألا يكون قصد المتناول للخمر أنْ يجعل بطنه دِنًّا للخمر؛ فإن إدمانه والإفراط فيه مفسد للحس، مضعف للأعصاب، والمستهتر بالإكثار منه يعاني من الدَّوار والخمار ما لا خفاية، حتى لقد قال بعض الأدباء: «لو أن المخمور يعلم بقصته لقدَّم وصيته».

وأكبر عيوبه السُّكْر، والأَوْلى بالعاقل ألا يكون قصده من الخمر إلا نفعها في البدن، وذلك يحصل بالقليل منها والنشوة، وهي ما تحصل بالمقدار المعتدل، فأمَّا إذهابها للعقل، فعلى قدر مزاج الشارب، ومزاج ما شرب من الكمية والكيفية وقدر عقلِه في جهلِه وصحوِه.

قال الشاعر:

على قدر عقل المرء في حال صحوه تؤثِّر فيه الخمر في حال سُكره
فتأخذ من عقل كثير أقلَّه وتأتي على العقل القليل بأسرِه[1]

وقال آخر:

تزيدُ حُسا الكأس السفيهَ سفاهةً وتتركُ أخلاقَ الكريمِ كما هيا
وإنَّ أقلَّ الناسِ عقلاً إذا انتشى أقلُّهمُ عقلاً إذا كانَ صاحيا[2]

ولذلك لا يجب أنْ يشربها الحمقى والسفهاء والجهَّال؛ فتزيد في فجورهم وسفههم، وتكثر حماقاتهم.

---

(١) البيتان بلا نسبة في «التذكرة الفخرية» ص (٤٥٣)، و«النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة» لابن تغري بردي ص (٣٦٣٢).

(٢) البيتان من الطويل، وهما لأبي نواس في «التذكرة الحمدونية» ص (٥٦٤٤)، وبلا نسبة في «ديوان المعاني» ص (٨٠٠)، و«العمدة في محاسن الشعر وآدبه» ص (٣٣٠).

قال أبو نواس:

والخمـــر قـــد يـــشربها معـــشر ليـــسوا إذا عـــدُّوا بأكفائهـــا[1]

حُكي أن أحد الشعراء شرب عند أحد الملوك بمدينة حِمْص؛ فجار عليه السَّاقي حتَّى أخرجه من الأدب، وعمل فيه الطرب حتى قام فرقص في المجلس، فضرب بيده على الملك، فأقامه ليرقص، فغضب الملك، واستخفَّ به، وهمَّ بتأديبه، ثم أخرجوه الغلمان مطرودًا، فلما أصبح كتب إلى الملك يقول:

لا تلمنـــي ولُمْ مُـــدامَك واصـــفح يـــا بريئًـــا مـــن كـــل ذنـــب ونقـــص
هـــي رأس البلايـــا والـــذنب للخيَّـــا ط عنـــد التفـــصيل لا للمَقَـــصِّ
وإذا عـــدت للحقيقـــة فيهـــا هـــي خمـــرٌ ونحـــن في أرض حمـــص

وقال أبو العلاء المعرِّي:

البابِلِيَّـــةُ بـــابُ كُـــلِّ بَلِيَّـــةٍ فَتَـــوَقَّيَنَّ هُجـــومَ ذاكَ البـــابِ
جَـرَّت مُلاحـاةَ الـصَّديقِ وَهَجـرَهُ وَأَذى النَّـديمِ وَفُرقَـةَ الأَحبـابِ[2]

وقال أبو نواس:

وَإِذا رامَ نَـــديمٌ عَربَـــدَه فَـــأقرَعَن بِالـــصِّرفِ مِنـــهُ كَبِـــدَه
ثُـــمَّ وَسِّـــدهُ إِذا مـــا غَلَبَـــت سَـــورَةُ الـــراحِ عَلَيـــهِ عَـــضُدَه

(١) البيت من السريع، وهو لأبي نواس في «التذكرة الفخرية» ص (٣٧١).

(٢) البيتان من الكامل، وهما لأبي العلاء المعري في ديوانه من قصيدة البيت الأول مطلعها، وفي «البديع في البديع في نقد الشعر» لأسامة بن منقذ ص (٣٧).

خَلَّتـــا ســـوءٍ تَـــشينانِ الفَتـــى حَيـــثُما كـــانَ الخَنـــا وَالعَربَـــدَه[1]

وقال آخر:

لا تقعـــدن مـــع خالـــدٍ في مجلـــس أبـــدًا ولا تحمـــل دم الآخَـــرِين

ريحانـــه بـــدم الـــشجاج مُلطَّـــخ وتحيـــة النـــدمان لطـــم العـــين[2]

وقال آخر:

ومعربـــــــدٍ أخرجتـــــــه لمـــــا تعـــــرَّض للنـــــدامى

أغلقـــــت بـــــابي دونـــــه وتركتـــــه يرعـــــى الخُزامـــــى[3]

فأمَّا الرئيس ذو المُلك والأمر النافذ فلو كان السُّكر أو مقاربته حلالاً لا اختلاف فيه لكان عليه حرامًا؛ لأن بادرته إلى نفسه وغيره لاستقال، وأمره لا يراجع، ولأنه يقهر ولا يُقهر، ويحجُر ولا يُحجَر عليه، وقلَّما سمعنا بحادثة عظيمة، وغدرة قبيحة، وسطوة عظيمة، استحاذها ملك، وحياها إلى نفسه أو نديمه أو حشمه وسائر من يخصُّه إلا على سُكْر ثم يقع عليه بعد ذلك الندامة، ويلحقه ما لا يتلقَّاه من العار والمسبة.

فيمن تهيأ ذلك عليه من ملوك الجاهلية جذيمة بن مالك الأبرش المسمى بـ «الوضاح»؛ فإن أخته عشقت عديًّا نديمه، فأرسلت إليه أن إذا استولت الخمر على أخي، فاخطبني منه؛ فإنه يزوِّجك لفرط سكره؛ لأنه شديد اللين إذا سكر، ضعيف الرأي، سهل الانخداع، ففعل ما أمرته؛ فزوَّجه جذيمة لفرط سكره، فلما تفرَّق القوم،

---

(١) الأبيات من الرمل، وهي لأبي نواس في ديوانه من قصيدة البيت الأول مطلعها.

(٢) البيتان من الكامل، وهما لمحمد بن يسير في «الأغاني» (١٤/ ٨٩٧١)، و«التذكرة الحمدونية» ص (٥٧٠٢).

(٣) البيتان لأبي نواس في «محاضرات الأدباء ومحاورات الشعراء والبلغاء» ص (٢٣٠٩)، وبلا نسبة في «قطب السرور في أوصاف الخمور» ص (٥١٩).

ونام جذيمة، أرسَلَت إلى عَدِيٍّ أن صِرْ إليَّ، فأتاها، وهي في قبة من أدم، فقالت له: ابن بأهلك؛ فإنك لا تعلم عن ماذا يسفر غد، فبنى بها من وقته، وبات معرِّسًا إلى الصبح، فلمَّا أفاق من سكره عند الصباح خاف من جذيمة، فخرج من عندها هاربًا على وجهه، ولم يقف له على خبر.

فلمَّا أفاق جذيمة، نهض أيضًا ليسلم على أخته، وكان عادته ذلك في كل يوم، فوقع نظره على القبة الأدم، فأنكرها، وسأل عنها، فقيل له: أليس هذه قبة العروس؟ فقال: ويلكم! وأي عروس؟! قالوا: عدي زوَّجْته الليلة بأختك، ودخل بها، فغضب، وعاد إلى منـزله؛ فكتب إلى أخته هذه:

خبريـــي فأنـــت لا تكـــذبيني الحـــرُّ زُوجـــت أم هجـــين

أم بعبـــد فأنـــت أهـــل العبيـــد أم بـــدون فأنـــت أهـــل لـــدُّول

فأجابته تقول:

أنـــت زوجتنـــي ومـــا كنـــت أدري وأتـــاني النِّـــساء للتـــزيين

ذاك مـــن شربـــك للندامـــة صِرفًـــا وتماديـــك في الـــصَّبا والمجُـــون[1]

ومن ملوك الإسلام الوليد بن يزيد بن عبد الملك؛ فإنه لم يزل يهمل الأمر، ويواصل السكر منسطحًا ومغتبقًا، حتى انتشر أمره، واضطرب نسله، فقُتِلَ وجماعة من أصحابه، وكان هو السَّبَب في هلاكهم، وهلاك من بحضرتهم اختيارهم السكر، ومطالبتهم بدمائهم به.

وقال البارع البغدادي يذم الخمرة:

ألا قاتـــل الله المدامـــة إنهـــا تُبـــدِّل منِّـــي حازمًـــا بجهـــولِ

ولـــو لم يكـــن مـــن عبثهـــا غـــير أنَّهـــا تبـــوح بـــسري أو بـــسرِّ خليـــلِ

(١) انظر: «خزانة الأدب» ص (٦٨٢٤)، و«البصائر والذخائر» ص (٧٨٠).

الباب الرابع من الجملة التاسعة
في أدب السَّماع

أما السَّماع المطرب، فلو اقتصر عليه داعيك دون كل مأكول ومشروب لقضى حقك، وأحسن تعويضك، ويشهد بذلك الرَّاعي في السير، سمعهما سامع يمضي فيهما، وهُما:

وكنت إذا ما زرت سُعدى بأرضها أرى الأرض تُطوى ويدنو بعيدها
من الحفرات البيض ودَّ جليسها إذا ما انقضت أُحدوثة لو تعيدها[1]

فأطربه، وأعجبه حتى مال إليه، واستعادها فأعادهما، وقال: والله لو كان عندي قِرَىً ما أعدتهما.

وقال الآخر:

لأبي جعفر سمَّاع عجيب جمع اللهو فيه والإطْرابا
فالندامى غيُّون عن أنْ يبتغي لهم مَطعمًا وشَرابًا

وكتب جحظة البرمكي إلى من كان يزهد في السَّماع:

إن كنت تنكر أن في الـ ألحان فائدةً ونفعًا
فانظر إلى الإبل التي هي ويك أغلظ منك طبعًا
تصغي لأصوات الحدا ة فتقطع البيداء قطعًا
ومن العجائب أنهم يظمونها خمسا وربعًا
فإذا تورددت الحيا ض وحاولت في الماء كرعًا

(١) البيتان من الطويل، وهما بلا نسبة في «الأغاني» (٧/ ٤٤٣٢)، و«العقد الفريد» ص (٤٥٨٦).

وتـــــشوفت للـــــصوت مـــــن حـــاد تـــصيخ إليـــه ســـمعًا

ذهلـــت عـــن المـــاء الـــذي تلتـــــذه بـــــردا ونقعًـــــا

شـــــوقًا إلى الـــــنغم التـــــي أطربنهـــــا لحنـــــا وســـــمعًا[1]

قال المربي: مررنا مع الشافعي، وإبراهيم بن علية على دار قوم، وجارية تغنيهم هذا البيت:

خلـــيليَّ مـــا بـــال المطايـــا كأنَّهـــا تراها على الأعقاب بالقوم تـنكص[2]

قال الشافعي: «ميلوا بنا نسمع هذه، فلمَّا فرغت»، قال لإبراهيم: أيطربك هذه؟ قال: لا، قال: ما لك حسٌّ.

وحق لمن أمتعك بسماعه، وشاركك في أخصِّ لذَّاته، وسوَّى بينك وبينه في استماع نغمه، من لعلمه يغار عليه من ظلمه، أن تجعل ثوابه على هذه المكرمة؛ غض طرفك عن هذه الجهة الَّتي تلي السِّتارة، والناحية الَّتي يأتي منها النغمة حتى لا يكون باطن السِّتارة بأخفى عليك من ظاهرها.

ولا يخرج بك الطرب عن حدِّ الحرية والأدب؛ فيلج في الإقداح، وتتحقق بالعلم والحذق؛ فتسمع فتدمع العَبرة، وتترصَّد الهفوة؛ فإنْ سمعت مجازًا لحنته، وإنْ مرَّ بك زخارف عيَّرته وورثته، وقد قيل: «النُّصح بين الملأ تقريع بالذنب»[3]، و«من قل علمه كثر رده».

---

(١) الأبيات من مجزوء الكامل، وهي لجحظة البرمكي في «الذخائر والبصائر» ص (٤٣٨).

(٢) انظر: «نهاية الأرب في فنون الأدب» ص (٢٦٦٤).

(٣) انظر: «تاج العروس (قرع)».

والعربية أكثر وجوهها أن يحظى فيها متكلم، وأنفس العيان، ومعهن أنفةً وحمية؛ فمن استعمل هذا معهن؛ فهو أبدًا عليهن يعمل، وعندهن مقيت، لا يعدم أن تراقبه الواحدة منهُنَّ، وتكايده، فيتعالل إن حضر، ويعدل عنه بما يستحسن، فتقطع الصوت عند انتحابه، وتريض بالغناء انصرافه.

ولبعضهم في غضِّ الطرف عن السِّتارة:

إني عـــلى مـــا فيَّ مـــن عهـــد الـــشبيبة والغـــضارة
لأغـــض طـــرفي حـــين يـــأ منني النـــديم عـــلى الـــسِّتارة[1]

وكتب جحظة إلى بعض أصدقائه، وكان له سماع وغيرة مفرطة:

إن شـــئت فاســـتر عـــلى ســـماعك وإن شـــئت يومًـــا فبطِّـــل الـــسترا
فـــإنَّ عنـــدي مـــن العفافـــة مـــا تحمـــده منظـــرًا ومختـــبرا
أُمكِّـــن أذني مـــن الـــسماع ولا أمكِّـــن لحـــاظ عينـــي النظـــرا

ومن آداب السماع الكف عن الحديث المتصل وقت غناء الموسيقار.

* * *

(١) انظر: «محاضرات الأدباء» ص (٢٦٦٤).

الباب الخامس من الجملة التاسعة

في أدب المنـادمـة

قال بعض الفضلاء: إذا ولِيت عملاً؛ فانظر مَن كاتِبك؛ فإنما يعرف مقدارك من بُعدٍ عنك بكاتبك، واستعقل حاجبك؛ فإنما يقضي عليك الوفود قبل الوصول إليك بحاجبك، واستطرف نديمك وجليسك؛ فإنما يزنك الداخل عليك بمثقال من يراه معك.

وقيل: إنَّه فاخر كاتبٌ نديمًا، فقال الكاتب: أنا معونة، وأنت مئونة، وأنا للحديث وأنت للهزل، وأنا للشِّدَّة وأنت للذَّة، وأنا للحرب وأنت للسلم.

قال النديم: أنا للنِّعمة وأنت للخدمة، وأنا بالحظوة وأنت بالمهنة، تقوم وأنا جالس، وتحتشم وأنا مؤانس، تدأب لراحتي، وتسعى لما فيه سعادتي، فأنا شَرِيك وأنت مُعِين، كما أنك تابع وأنا قرين.

ولبعض الأدباء في النديم، ومدحه:

أرى للكـــــأس حقًّـــــا لا أراه لغـــــير الكـــــأس إلا النـــــديم

هـــو القطـــب الَّـــذِي دارت عليـــه رحـــا اللـــذات في الـــزمن القـــديم[1]

وقال أبو نواس، وهو أمير هذا الشأن وفارسه:

نادَمتُهـــــا إِذ لَم أَجِـــــد مُـــــسعَدًا أَرضـــــاهُ أَن يَـــــشرَكَني فيهـــــا[2]

فهذا إنَّما يدل على فضل النَّديم، وأنَّه لم ينفرد بالنبيذ مختارًا، وإنما تفرد بشربه

---

(١) البيتان في «محاضرات الأدباء» ص (٢٢٨٧)، و«المحب والمحبوب» ص (٨٦٤).

(٢) البيت من السريع، وهو لأبي نواس في «التذكرة الحمدونية» ص (٥٦٤٥)، و«قطب السرور» ص (٤٣٩).

ضرورة؛ لأنه لم يجد نديمًا، أو ليس هو القائل:

فَـــالراحُ طَيِّبَـــةٌ وَلَـــيسَ تَمامُهـــا إلا بِطيـــبِ خَلائِـــقِ الجُـــلاسِ[1]

وقد ملح عصابة الجرجرائي في قوله:

اقـرِ الـسلام عـلى الأمـير وقـل لـه إن المـــدامَ الرضـــاعُ الثـــاني[2]

وليس أحد من أصحاب الملوك وخلطائهم هو أولى باجتماع محاسن الأخلاق، وأفاضل الآداب، وظرائف المُلح، وغرائب النتف من النَّديم، حتى إنَّه يحتاج إلى أن يكون فيه أشياء متضادة، ويكون فيه مع شرف الملوك تواضع العبيد، ومع عفاف النُّسَّاك مجون الفتَّاك، ومع وقار الشيوخ مزاح الأحداث.

وكلُّ واحدٍ من هذه الأحوال يحتاج إلى أن يجتمع له من قوة الخاطر ما يفهم به ضمير صاحبه الَّذِي ينادمه، على حسب ما يتلوه من خلائقه، ويعلم من معاني لحظه وإشارته ما يغنيه عن تكلف الإفصاح ببغيته؛ فيسبقه إلى إرادته، ويبدُرُه إلى شهوته.

كما قال بعض الكتاب:

ونـــديم حلـــو الحـــديث يجاريـــ ـــــك بـــما تـــشتهيه في ميـــدانك

ألمعـــيٌّ كـــأن قلبـــك في أضـــ ـــــلاعه أو كلامـــه في لـــسانك[3]

---

(١) البيت من الكامل، وهو لأبي نواس في «الشعر والشعراء» ص (٩٣٦)، و«محاضرات الأدباء» ص (٢٢٩٠).

(٢) البيت من الكامل، وهو لعصابة الجرجرائي في «ثمار القلوب في المضاف والمنسوب» لأبي منصور الثعالبي ص (١٣٢٧)، و«زهر الآداب وثمر الألباب» ص (١١٣٧).

(٣) البيت بلا نسبة في «قطب السرور» ص (٣٤٠)، و«نهاية الأرب في فنون الأدب» ص (١١٣٧).

ومن صفة النديم أنْ يجمع إلى الصبر على مغص الجوع؛ احتمال كظِّه الازدياد من الشبع؛ لأنه مدفوع إلى مؤاكلة، إما سخيٌّ شديد المحبة؛ لأن يؤكل طعامه، فيطالبه بالإكثار منه، ومساعدته عليه، ومساواته فيه، فإذا فعل ذلك حَظِيَ عنده، وقرب من قلبه بالمشاكلة، وإن قصَّر أنـزل ذلك منه على التحيل له، وتعمد التنقيص عليه، أو لسم طعامه عند سمعه وبصره، فإن أسرع إليه، وتناول أطايبه؛ فكأنما أكل من جوارحه، فهو مضطر لأن يجاهد نفسه، ويغالب طباعه، حتى يألف هاتين الحالتين، فيكون حينئذ أتم في آلات الندام، وأقهر لسلطان الشهوة.

فمن يعتمد على الأكل في منـزله، وينتقل بمثل ما رأينا جماعة من المترسمين بالندام، يستعملون من اتخاذ المخازن المملوءة أدهانًا في خفاف غلمانهم، واللفاف مدرجة في المناديل؛ فإذا مضَّهم الجوع، وتحدَّهم الشراب؛ تغنموا الغفلة، وانتهزوا الفرصة، وتناولوا ما أعدُّوا من ذلك في الخلاء، وما أشبهه من المواضع الخسيسة، وكان ذلك قبيحًا جدًّا إذ لو اطلع عليه بعض حاشية المنادم، فأنَهاه إليه؛ أوعر قلبه، وأحفظه[1]، ورأى أنَّه في ذلك الفعل قد كَله؛ لأنه ليس لكل ذِي خُلقٍ زي يعرف به نفسه، بل كم من ذوي العيوب، يعمى عليه عيوبه، أو يتعدى الموضع الَّذِي يوجد مثل ذلك؛ فينال جهة من الضَّرر بمفارقة العادة ما يؤلمه ويعلله.

فأمَّا العبث والمزاح؛ فله موقع لطيف، ومحل خصيص، إذا تبيَّن النديم نشاطًا لذلك.

وقال قائل للمأمون: أيأذن لي أمير المؤمنين في المداعبة؟ فقال: وهل العيش إلا فيها؟!

(١) أي: أغضبه [لسان العرب (حفظ)].

وقدم عليه العتابي، ودخل عليه، وعنده إسحاق بن إبراهيم؛ فسلَّم فردَّ عليه وجلس، وأقبل يسأله عن حاله، وهو يجيبه بلسان طلق، فاستطرفه، وأخذ في مداعبته؛ فظن الشيخ أنَّه قد استخفَّ به؛ فقال: يا أمير المؤمنين، الإيناس ثم الإبساس، ثم أخذ في المفاوضة والحديث، فأغرى المأمون به إسحاق، فأقبل يعارضه في كلِّ ما يذكره، ويزيد عليه، فعجب منه العتابي، ثم قال: أتأذن لي يا أمير المؤمنين في مسألة هذا الإنسان عن اسمه ونسبه؟ فقال: افعل، فقال له العتابي: من أنت؟ وما اسمك؟

قال: أنا من النَّاس، واسمي «كُلْ بَصَل»؛ فقال العتابي: أمَّا النسبة فمعروفة، وأمَّا الاسم فمكروه، وما كلْ بَصَل من الأسماء؛ فقال إسحاق: ما أقل إنصافك! وما كلثوم من الأسماء؟ والبصل أطيب من الثوم؛ فقال العتابي: لله درُّك، فما أحجك! ما رأيت يا أمير المؤمنين كالرَّجُل قَطُّ، أتأذن لي يا أمير المؤمنين في أن أصله بما وصلني به أمير المؤمنين؟ فقال المأمون: هو موفَّر عليك، ونأمر له بمثله، ونهضا؛ فانصرف العتَّابي إلى منـزله، ونادمه بقية يومه[1].

وينبغي أن ينادمه بكلِّ ما يتنافس به الملوك فيه ويغالون، من الرقيق المثمن، والجوهر النفيس، والآلات المحكمة، وأنواع الطيب، والفُرُش، وغير ذلك من الخيل والسلاح، وسائر ما يهدَى الملوك في مجالس لذاتهم، ويعرض عليهم في أوقات نشاطهم.

ولذلك قال الواصف نفسه للفضل بن يحيى البرمكي يرغبه في اصطحابه، ويحضه على اختصاصه وندامه في أبيات كثيرة:

لَـــستُ بِالناسِـــكِ المُـــشَمِّرِ ثَوبيـــ ـــهِ وَلا المـــاجِنِ الخَليـــعِ الوَقـــاحِ

(١) انظر: «وفيات الأعيان» لابن خلكان ص (٢٨٤٩).

أَبـــصَرُ النـــاسِ بِـــالجَوارِحِ وَالخَيـــ ـــلِ وَبِـــالخُرْدِ الحِـــسانِ المِـــلاحِ[1]

فمن أبرد من النديم مجلسًا، وأكسف منه بالاً، إذا عُرض على الملك شيئًا من هذه الأعلاق، فاعتمد فيها على معرفته، ورجع في انتقادها إلى تقليبه، ونظره فلم يجد عنده شيء منها علمًا، ويستظرف منه أن يصف اللون المليح الغريب من الطبيخ، والصوت البديع من الشعر، واللحن الشجي من الغناء.

وقالوا: من لم يدر عشرة أصواتٍ، ويحكم من الطبيخ عشرة ألوان؛ لم يكن ظريفًا حاذقًا، ولا نديمًا جامعًا، ولا يستحق هذا الاسم، حتى يكون له جمال ومروءة، أما جماله: فنظافة ثوبه، وطيب رائحته، وفصاحة لسانه، وأمَّا مروءته: فكثرة حيائه، وانبساطه، ووقار مجلسه، مع طلاقة وجهه في غير سُخف، ولا يستكمل المروءة حتى يسلو عن اللذَّة، وقيل: ما المروءة؟ قال: ترك اللذَّة.

وقال عبد الله بن المعتز:

بَـــينَ أَقـــداحِهِم حَـــديثٌ قَـــصيرٌ هُـــوَ سِـــحرٌ وَمـــا سِـــواهُ كَـــلامُ[2]

وسبيله أن يحضر في زي الموكب، والزي الَّذِي يشهد فيه المحافل من غير أن يشتهر، فإن شاء الرئيس أنْ يغيِّر زِيَّهُ، فخلع عليه المأمون، والمشتهر من أثواب الندام؛ حَسُن أن يلبس ذلك في وقته، حتى ينقضي المجلس، وما يحسن ظهوره فيه في مجلس ثانٍ؛ لأنه شيء كان الرئيس اختاره في ساعة طربه وتبذّله، لا في كل أوقاته.

---

(١) البيتان من الخفيف، وهما لأبان اللاحقي في ديوانه من قصيدة مطلعها:

أَنـــا مِـــن بغيَـــةِ الأَمـــيرِ وَكَنـــزٌ مِـــن كُنـــوزِ الأَمـــيرِ ذو أَربـــاحِ

(٢) البيت من الخفيف، وهو لابن المعتز في «التذكرة الحمدونية» ص (٥٧٣٦)، «التذكرة الفخرية» ص (٤٢٩).

فأمَّا العمامة والخف؛ فسبيله ألا يخل بهما، وله أنْ يلطفهما ويخففهما، فإنما كان الغرض ملازمتهما ألا يحسر الرأس، ويبدو القدم.

ومما يأخذ به نفسه الإسراع في المشي إذا كان بحيث يراه الملك، حتى لا يرى مشيه اختيالاً.

وحُدِّثتُ عن الطبقة العالية من ندماء الخلفاء الماضين أنهم كانوا يجتمعون في منـزل، فإذا مشى أحدهم في ذلك الموضع، مشى مسرعًا، وسُئِلَ أحدهم عن السَّبَب في ذلك؛ فقال: إنَّما نفعله في كل موضع، وإن كان لا يلزم إلا في مجلس الخليفة؛ حذرًا من أنْ يخلَّ بالعادة، فيعدل عنها في موضعها؛ فاستحسنت هذه الرياضة.

ومما يلزمه التحفظ منه أبدًا ألا يصبحه أبدًا، ولا يمسيه، ولا يشتمه، ولا يستخبره، وإنما ترك هذا كله لما فيه من التكليف للجواب، وليس من حق منادم ذي الرياسة والسلطان، إذا تبيَّن لنديمه منه لين الخلق، ووطأة الكنف، وخلع ثوب الكِبر، أن يَستعمل معه من الدالّة، ما يجحد به حق الرياسة، ويقدح في سلطانه، ويفسد عليه تدبيره.

ويقال: ينبغي لمن خُصَّ بالسلطان أن يكون آنس ما كان به، أوحش ما يكون منه؛ فإن سلم من ذلك كلّه، فواجب عليه ألا يخلّ بتوقِّي الملال، والتحرز من وقوعه.

وبينما المأمون ينادم إبراهيم بن المهدي بعد رضاه عنه، وتعمُّده ما كان منه؛ تبيَّن منه دالة أذكرته ما كان من ذنبه، فنهض، وأمر بإقراره ومن كان معه على جملتهم، ثم صار إلى مجلس جدِّه؛ فاستولى على سريره، وتزيَّا بزيِّ الخليفة، وأحضر القضيب، وجمع الجنود بالسَّواد والأسلحة، ومُدَّ السَّماطات، وشُهرت السيوف والأغمدة، ثم أُحضِر إبراهيم بن المهدي معسوفًا؛ فلما مَثَلَ بين يديه أطرق عنه مليًّا، ثم رفع طرفه، وإبراهيم

يرعد؛ فقال له: ما حملك على ما كان منك؟ كرسيٌّ خلا من صاحبه يا أمير المؤمنين، فكنت جديرًا بحفظه عليه، حتى أعاده الله عليه، وقد سبق من عفو أمير المؤمنين ما لا خلاف معه؛ فقَبِل عذره، وأحسن جوابه، وردَّه إلى منـزله، وعاد المأمون إلى مجلس النَّدام من ساعته.

وحكى جحظة عن أبيه كما كان ينادم إسحاق بن إبراهيم الطَّاهري جوهري، من حلة التُّجَّار ووجوههم، حتى اختص به، وتبين لطيف موضعه منه، ولم يكن يتقدمه عنده أحد، وكانت فيه آلة، وله أدب يستحق به تلك المنـزلة؛ وإنه لَعَه ذات يوم، والستارة مضروبة، إذ وصِف للمتوكل فِصٌّ كبير جليل المقدار، كان عنده، وقع إلى هذا الجوهري، فوقع إلى إسحاق بإحضار هذا الرَّجُل، ومطالبته بالفص ومناظرته عليه وتقدير ثمنه، ووافى التوقيع.

فلمَّا نظر إليه، دعا بالجلادين والسِّياط، وأمر بتجريد الجوهري؛ فقال: أيها الأمير! ما قصَّتي؟ فلم يذكر له شيئًا، حتى نُصِبَ بين العقابين، وكاد السوط أنْ يأخذه؛ فلما علم أن السَّوط قد رهب، وسكن قلبه من الهيبة، ما أنساه الدالة والمنادمة، قال له: فص ما عندك من حالته وقصته.

قال: أحضره الساعة، فليأمر الأمير بإطلاقي حتى آتيه به الساعة، قال: لا سبيل إلى ذلك، فدعا بدواة وقرطاس، وكتب في تلك الحال إلى ثِقَتِه في منـزله بعلامة كذا، وأكَّد عليه القول؛ يأمره بإحضاره للفَصِّ؛ فأحضره، وجعله في منديل، وختم عليه ثم قام بنفسه إلى الجوهري، فتولى حلَّ وثاقه بيده واعتنقه، وخلع عليه من فاخر الكسوة، وقال له: لم يكن يجب في حق السلطان إلا ما رأيت، ولو لم أفعل ذلك لما أمنتُ إليك، ولا كنت أراك تخرج مثل هذه العقدة النفيسة بتسمُّح أعطافك، ويلحقني من إنكار أمير المؤمنين ما يفسد حالي وحالك، فسكن الرَّجُل إلى عذره وقبله.

وواجبٌ على النديم أنْ يتعهد من أحوال ظاهر جسمه وباطنه ما يأمن معه أنْ يسبق إلى طرف الرئيس أو أنفه من جهته حال يذمها، وليكن على أوكد ثقة، من نقاء فِيه من الخلوف، وثوبه من الدَّنس، ومعانيه من الدَّرن، بتوفيه هذه الأشياء حقها من التنظيف والتطييب.

وليس من حق نفسه عليه إذا كان على الطبقة أنْ يبخسها حقها، ولا يحطَّها عن درجتها توهمًا أن يعاينه الرئيس لمنـزلته أكثر عنده، وأعطف لقلبه عليه.

كما أنه ليس من حق الرئيس المصطفِي له أن يتصوره بصورة من يغالطه، ويسخر منه؛ بإعطائه ما ليس له، وعلى أن عقول الرؤساء أقوى، وفطنتهم أدق من أن يجوز عليهم مثل هذا.

* * *

obeikandl.com

الباب السادس من الجملة التاسعة

في آداب المضاجعة

وهي أربعة عشر أدبًا:

الأول: تنظيف الفم بالمضمضة والسواك البالغ، واستعمال ما يزيل رائحة ما عساه، غلب على طعامه كالثوم وأشباهه، ومضغ شيء من حوار سن العود أو العود نفسه.

والثاني: استنشاق الماء مرَّات كثيرة؛ ليذهب عن الأنف ما يعتريه من الروائح؛ فإن الرائحة تحصل في شعر الأنف، ولا ينقلع إلا بالاستنشاق عدَّة دفعات.

والثالث: تعهد إبطه بالغَسل البالغ.

والرابع: أن يحذر العَشَاء؛ فإن العشاء مولِّد للقراقر والرِّياح، وثقل النوم، وعسر الانتباه، ويولِّد الغطيط، وكثرة السُّعال والمخاط.

والخامس: أن يسبق ضجيعه في الشتاء إلى الفراش، ويتأخر عنه في الانتباه، وأمَّا في الصيف؛ فيتأخر عنه في إيواء المضجع بمقدار ما يستقر به.

والسادس: ألا يبطئ على ضجيعه، بحيث يطول عليه ارتقابه؛ فمن النَّاس من يغشاه النوم عند أول استقراره في المضجع، وأقل حركة تنبهه، فلا يثقل في النوم بعد ذلك.

السابع: ألا ينام على ظهره أصلاً، إن كان مِمَّن يَشخُر، وأنَّه متى أحس من نفسه في أثناء الليل بالشَّخير يحطُّ من أنفه ما يقدر عن حطِّه بالقوة.

والثامن: أنَّه إذا أحس بسُعال قد همَّه؛ لا يتكاسل عن أن يجلس.

والتاسع: ألا يجعل رجله أو ساقه أو فخذه فوق ضجيعه إلا إن استدعى ذلك منه.

والعاشر: إنْ كان مِمن يقوم بالليل للبول؛ فليشرب قبل النوم نصف درهم لبان، ويشرب بكرةً ربع درهم لبان، ويلازم كلَّ ثلاثة أيام يومًا.

ومن يبول في فراشه يحذر العشاء، ويمتنع من شرب الماء وقت المساء، ويهجر البطيخ والقثاء والخيار والقرع واللبن، ويأكل المقبِّضات كالبلُّوط المشوِيِّ والشاهلوط والخرنوب الشامي.

والحادي عشر: ألا يوقظه من نومه بكثرة تقلُّب أو ضحك أو نحنحة أو سُعال، وما أشبه ذلك.

والثاني عشر: الإجابة إذا دعاه، وأن يبادر بالتلبية من أول دعوة.

والثالث عشر: ألا يتخلف عنه عند الجلوس؛ فأمَّا التقدم فلا بأس به.

والرابع عشر: ألا يفتح فاه عند النوم بل يطبقه، ويكلف نفسه اعتياد ذلك.

* * *

openkandil.com

الباب السابع من الجملة التاسعة
في أدب المجامعة

خير أنواع المجامعة مجامعة من تقدم في النفس ميل إليه، فمن عزم على مجامعة شخص؛ فليحرص على أن يقدم قبل استمالته من غير أن يشعره أنَّه يريد استمالته، وأول طرق الاستمالة الغاية في النظافة والتجمل والمبالغة فيهما، والإكثار من الطيب الحارِّ ولا سيما البخور بالعود، وإدامة البشاشة، وطلاقة الوجه، ومجانبة العبوس، وتحرِّي حسن النُّطق، والتَّؤدة في الكلام، والمعاملة بحسن الخلق والكرم والإيثار، وإذا حصل الميل، وزال ما عساه يكون صَلَف أو غيره.

فمن النَّاس من لا تشعر به المرأة حتى يرفع رجليها، فيحشمها ويطأها، إذ رُبَّما لم تكن في تلك الحال منبعثة الشهوة، ورُبَّما كانت غير مستعدة له، فتكره اطلاعه منها على ما لا يؤثر أشدَّ كراهية، ولا يصادف منها مستمتعًا طائلاً، فيخطئ طريق إدراك اللذَّة.

فأول الآداب: المبالغة في الاحتراز من عيوب الناظرين؛ فإن ذلك أوكد الأسباب في انبساط المنكوح، واسترساله، ومؤاتاته إليه كلما برد منه.

وألا يغفل قبل ذلك بتعهد إبطه بغَسل بالغ، ومسحه بخرقة نديَّة، ثم تشديد مسامِّه بالمَرتَكِ[1]، وغسل وجهه، والمضمضة والسواك والاستنشاق.

وألا يعبث بها دون السَّراويل قبل التَّقبيل والدَّغدغة[2]؛ فإن التَّقبيل يهيِّج نار الغلمة، ويحرك الشبق، ويقال: «التَّقبيل وحصاده الجماع».

---

(١) المَرتَكُ: فارِسيٌّ مُعَرَّبٌ، وهو المُرداسَنْجُ [تاج العروس (مرتك)].

(٢) الدَّغْدَغة: هي شبيهة بالقرص بأطراف الأصابع [جمهرة اللغة (دغدغ)].

وأن يتعمَّد أنْ يكون خلوته بمن يريده على خِفٍّ من المعدة؛ فكم من قد قطعه الامتلاء عن الخلوة.

وأن يباشر إحليله بالماء البارد والهواء البارد قبل حاجته إلى قوته بساعة؛ فإن ذلك من أسباب الإنعاظ.

وأن يتجنب قبل ذلك الرُّمان والخلَّ وأشباههما مِمَّا يقطع عن الباءة، والبخور بالعود محرِكٌ للغلمة منشط للباءة.

وألا يقوم بمباشرة اللُّواط؛ فإنهن لا يردنه، ولو أظهرن الميل، ولا يتنفس نفسًا عاليًا عند التَّقبيل.

وألا يضع لسانه في فم من لم يعتد ذلك، بل إذا أراد ذلك، استدرجه إليه في مهل.

وألا يهمل بأنَّه يسهِّل الولوج من ريق أو إحدى اللُّعابات أو دُهن طيِّب حارٌّ، والريق أفضل؛ لأنَّ الدُّهن يرخي الذَّكَر ويليِّنه، فيمتنع عن المعاودة إلا إن كان دهنًا حارًا، وينطل عَقِيب الجماع بالماء البارد على العضو؛ ليقاوم فعل الدهن.

وكثير مِمَّنْ تلصق الرِّجل بأشفارهن، تراهن إذا أوين المضاجع قد جعلن عند رءوسهن مخازن دُهن بنفسج، ودُهن الورد، ولعاب حبِّ السَّفرجل محلولاً في ماء الورد، وهذا أقل ما يحتمل منْ حملهن منْ دفع إلى رعناء كهولة؛ فسبيله ألا يسخطها بالمخالفة، بل يستدرجها إلى ما تريده بالملاطفة، ويعلمها أن دُهْن البنفسج يرخي، ودُهْن الورد يقبض، وأن تلك الحال يستدعي استعماله ما يبسط الروح، وينشر القوى لا ما يقبض، وأنَّ اللعابات باردة؛ فهي تكسب النَّشاط لذلك.

وأنَّها إذا أرادت أمثال ذلك؛ فسبيلها إعدادهن البان، ودُهْن الخيري، ودُهْن

القُسط المعتبر الحلو، ودُهْن الزَّئبق محلولاً فيه اليسير منْ السُّكبينج والجاوشير، وقليل منْ المسك.

ومنهُنَّ من يمنع من ترطيب الآلة عند الجماع بشيء ما، وتستدخله جافًا، لعلمها بأن رحمها كثير الرطوبة أو ليعسر ولوج الإحليل؛ فينسب ذلك إلى الضِّيق، فلا ينساغ احتمال ذلك منها إلا إن كانت قريبة العهد بأخذ الشَّعر، والأدب في هذا أن توافق المرأة على غرضها في هذا، لكن لا يتكلف الدَّفع مرَّة واحدة مع الجفاف؛ فإن في ذلك ألمًا ومانعًا عن اللذَّة، بل على طريق العبث والتَّدريج.

وأن يدخل من الذَّكَر مقدارًا يسيرًا ثم يخرج ثم يدخل أكثر من الأوَّل حتى يستوعب إدخال الجميع في عدَّة مرات برفق، وإن كان هناك من الجفاف أو الضِّيق أو غلظ الإحليل ما يمنع من دخوله؛ فالوجه استعمال المزلق، ولقد زعمت أن الوحي قد نـزل عليها بتحريمه.

ومنهُنَّ من إذا راودها الرَّجُل واستجابت، لم تمكِّنُه من نفسها، حتى تمضي إلى بيت الطهارة، وتستعمل الماء البارد؛ لأنه بالغ في التضييق، وذلك منهُنَّ مِمَّا يكره؛ إذ هيجان الشهوة لا يحتمل المطل والانتظار، وشدَّة الإنعاظ لا تبقى على حالها، والماء البارد يكسب العضو برودة يكرهها أكثر الرجال، إلا مَن كان منهم قد غلب على أعضائه الحرارة.

لكن سبيلها إذا شعرت من نفسها بحاجة إلى التنظيف والتضييق عند المراودة لها؛ ألا تجيب إجابة مستسلمة، بل يُغالَط بممازحة أو بوعد، وتمضي لشأنَها فتستعمل ما أرادت، وتعود كالمفاتحة في الحديث الَّذِي غالطت عنه؛ فإن استحيت من المفاتحة أن ترنو إلى الرَّجُل بعيني شبقِه، وتبتسم في وجهه، وتقول: «إيش قلت»، وتقبيل فم المليحة عند جماعها مِمَّا لا يجوز الإخلال به.

والبطيئـة الإنـــزال لا تجـامِع إلا بعـد إطالـة مـداعبتها، وكثـرة دغـدغتها، وتضحيكها إلى أن يحمرَّ وجهها؛ لأن ذلك يهيِّج الدم ويسخنه، ومحاككتها بغـير إيـلاج إلى أن يظهر عليها أمارات الشبق، وأمَّا السريعة الإنـزال؛ فلا يطال مداعبتها.

فإن جامع رجل امرأة، وهي نائمة، وشعرت به بعد إيلاجه؛ فالأدب في ذلك ألا تتكلم، وألا تشعره، وأن تستديم حالتها من النوم، وترخي ساقيها وفخذيها، حتى لا يجد منها مدافعة عن أي جهة أراد تحريكها إليه، وأن تخفف عنه بعض ثقل ساقيها، ولا سيما إن علمت من نفسها أنَّها سريعة الإنـزال؛ فإنها إذا اقتربت، واقتصرت على حركة الرَّجُل؛ قضى وطره، وإن اختارت معاونته؛ فلتساعده ببعض الحركة لكن على تدريج.

أعني: أنَّها أول ما تتحرك حركة ضعيفة جدًّا، ثم تزيد فيها قليلاً قليلاً بطول تؤدة، لتمَكِّن حركة موافقة لحركته، يستقبل بها قربه منها بقربها منه، ثم تفتح من عينيها اليسير، ثم لا تزداد في فتحها، وتحرك أشفار عينيها، وتقوي حركتها تحته بالتدريج، وتعلي نفسها حتى إذا قبَّلها قبَّلته قبلة ضعيفة، وامتصت شفته، وتأوَّهت التأوه الرخيم، وجانبت العبوس، ولتُكِنَّ حاجباها أو عيناها كالمبتسمة، ولا بأس حينئذٍ أن تتكلم بما يبسطه مِمَّا يوافقه.

قال الشاعر:

وَيُعجِبُنـــي مِنـــكِ عِنـــدَ الجِـــما ... عِ حيـاةُ الكـــلامِ وَمـــوْتُ النَّظـــرِ(١)

ومما يستطاب ذلك الوقت، ويقوى به متاع الرَّجُل، ويزيد شبقه أن أول حركة

(١) البيت لأبي شبل البغدادي في «الكشكول» لبهاء الدين العاملي ص (١٩٨٨)، وبلا نسبة في «العقد الفريد» ص (٤٧٩٧).

يستدل بها الرَّجُل على أن المرأة قد استيقظت؛ تكون فخذيها ورجليها تضمها على ظهره، كأنَّها تكرُّه بها إلى نفسها، أو حركة يديها تعانقه بها، وتلصقه بها، ثم تقبِّله، وتتنفس نفسًا عاليًا، ثم تعسه برهز وحركة إلى آخر الأمر؛ فإن هذا يلزم معاودتها، ويولد عنده كلفًا بها.

ومن آداب الجماع الواجبة على المرأة: ألا تزايل جيبها أو يدها منديل لطيف ناعم جدًّا تمسح به إحليل الرجل عند انفصاله عنها، ولا يحتمل هذا أيضًا في عمله، بل ينبغي أنْ يكون معدًّا حيث يمكنها أن تحفظه بسرعة، وتبادر به حين يُخرج نصف الإحليل منها، وتستقصي مسحه من غير تطويل.

وتحذر في هذه الحال أن تقع يدها على بيضة الرجل؛ فإن المرأة لا تكون أمينة عليها أبدًا، ولا يظن ظانٌّ أن هذا الفعل من المرأة خدمة للرجل فقط، وإنما هو ستر لبعض عوراتها عنه، وإماطة أذاها عن جسمه، وما يكره وصول ريحه إليه، من فضلات الرَّحِم الَّتي هي في الأكثر رديئة الرائحة، موفِّرة النُّفور عن النِّساء، متى صعد إلى دماغه نتنها، ولذلك تصلح أن تكون هذه المنديل مطيَّبة مبخَّرة بالطِّيب الموافق لمزاج إحليل الرَّجُل.

وليست تقع في هذه الخدمة إلا امرأة تكون مثل عريب المأمونية؛ فإن الأصفهاني صاحب كتاب «اللباب» حكى أنَّها كانت تتطيَّب بسبعين مثقالاً من المسك، فكانت إذا مشطت رأسها؛ جلست جاريتاها تحفة وبدعة، واقتسمتا الماء الَّذِي غسلت به رأسها في القوارير.

ومن الآداب المفروضة على المرأة: ألا تزال يداها ناعمتين خاليتين من الخشونة، وأن تكون أظفارها مقلمة مبرودة ناعمة؛ لئلا تؤذي إحليل الرَّجل أو تخدشه.

ومن الآداب المهمة: أن تحترز المرأة أن يبعد عنها المنديل، فلا تدري في أي موضع تركتها من الفراش؛ فترى إحداهن وأحد ساقيها تحت الرَّجل، وقد مالت بساقها الواحد في طلب المنديل والتفتيش عنه، وهو مُشطِرها، ومتاعه فيها.

ومن الآداب: غسل الفرج بالماء البارد عقب الجماع، يجب فعله على الرجل وعلى المرأة؛ فإن الماء البارد يقوي الإحليل، ويضيِّق الرَّحِم، ويحذر الماء الحارَّ؛ لأنه يرخي الإحليل، ويضعفه، ويمنعه من القدرة على المعاودة، وأمَّا المرأة فيوسعها، ويجلب إلى رحمها الرطوبات؛ فيعاف كلُّ واحدٍ منهما المعاودة، ولا يجوز لأحدهما أنْ يمنع صاحبه عن الاغتسال.

ومن الآداب: ألا تتحرك المرأة أكثر من حركة الرجل؛ فكثير منهُنَّ يتوهمن أن إفراطهن في الحركة تحظيهن، والأمر بخلاف ذلك، ولا يجوز أنْ تتحرك المرأة زيادة على حركة الرَّجُل، وأمَّا الأقل فجائز، وأفضل من سائر الحركات الحركة الَّتي تخفى عن الحِسِّ وتشبه بالسُّكون، وهو أن تسكن المرأة على شريطة أنْ يكون كل عضو منها إذا استدعاه الرَّجُل بأدنى إيماء، أسرع إليه إجابةً، وانفعل له، كالريشة في سرعة لمح البصر، حتى أنَّه لو حرَّك أثقل أعضائها؛ لتحرك كالريشة خفةً.

ومن الآداب: ألا يُمنَع الرجل من لمس الرَّحِم والعبث به، ولا تعترض عليه في ذلك، ولهذا يجب عليها أنْ تكون على دائم الوقت من النَّظافة، والاستعداد للامس، على غاية لا تخشى معها حدوث السَّلَوة.

وقد قال الشاعر:

أَلَمَ تَرَياني كُلَّما جِئتُ طارِقًا وَجَدتُ بِها طيبًا وَإِن لَم تُطَيَّب[1]

وقال كثير عزة:

---

(١) البيت من الطويل، لامرئ القيس في «الأغاني» (٨/ ٥٢١٤)، و«الكامل» ص (١٣٣٤).

بِأَطيَـــبَ مِـــن أَردانِ عَـــزَّةَ مَوهِنًـــا وَقَد أوقِدَت بِالمَندَلِ الرَّطبِ نارُهـا[1]

ومن الآداب: ألا تقول المرأة على سبيل المزاح والمداعبة كلامًا معناه الاستزادة من الجماع؛ فإن ذلك غير محتمل من المرأة، ولم يُحقِّق الرَّجُل أنَّها مازحة، بل الأولى إن توهمت أن الرَّجُل قادر على المعاودة، وأعجبها ذلك، أن تتقرب إليه، وتتحبب له، وتحادثه أحسن الحديث وأمتعه وأجلبه لقيام الذَّكَر، وفي أثناء ذلك تقرب منه، وتُبدِي له ما تعلم أنَّه يعجبه منها، وفي خلال ذلك تُكبِّس يده، وتلف ساقها على ساقه، ولا بأس في خلال ذلك بأن تقبِّله قليلاً؛ فإن الرَّجُل لا يلبث أن ينشط لمعاودتها، ولو كان عنينًا.

ومن آداب الجماع: ألا تمتنع المرأة عن الجماع إذا ألحَّ في المراودة؛ فإنه إنَّما يلِحُّ لشدَّة إنعاظه، ولصدق شهوة يجدها، وإصرارها على الامتناع؛ يكسر شهوته، ويفسد رأيه فيها، لا سيما إن كان عزيز النَّفْس، عالي الهمة، فأمَّا اللواتي يمتنعن ليحلو موقعهن عند الرَّجل؛ فقد أخطأت الطريق، وضيَّعْنَ مقصودهنَّ.

فإن المرأة عورة، والجماع حال يقتضيه الشهوة، ولا يقتضيه العقل في أكثر الأوقات، وأكثر النَّاس عالم بما في الجماع من الضَّرر، وما في غشيان المرأة من النَّقص، ولكنَّه [سهرج][2] على نفسه حالها لهائج شهوته، فإذا وقعت الممانعة؛ رتب ما يُسَكِّن هائج الشهوة قبَّح العقل ذلك، ولوى وجه الرَّجل ، وذكر سوء خُلُق المرأة، وتخلفها عن موافقته، فينقص موضعها عنده.

ويحذر كل الحذر من أنْ يجامعها، ويقطع عليه عمله، والامتناع عليه، إذا

(١) البيت من الطويل، لكثير عزة في «الصناعتين» ص (١٨٦)، و«الشعر والشعراء» ص (٥٨٠).

(٢) هكذا بالأصل.

صدقت شهوته؛ فإن المنيَّ ينـزعج ويُدغدَغ حينئذٍ للخروج، ولا يمكن السكون إلا بعد خروجه.

ومن الآداب: ألا يجامع الرَّجل إلا منعظًا قوي الإنعاظ، ولا يتكلف لها بما لا يسمح به طبعه، فيجامعها بمتاعٍ رخوٍ، فإن كانت زوجة؛ أضمرت تعجيزه، وإن كانت خليلة؛ توسَّمت في معاشرته قِلَّة المتعة، لا يعتمد على قيام الذكَّر من غير وجود شهوة صادقة؛ فإن ذلك القيام لا يدوم إلا بمقدار ما يتوسَّط الفرج، فيرخيه بحرارته، ويبقى على أشبه الأحوال بالمساحقة.

وما أحسن قول ابن المقفع: ولا تُطِل الخلوة فتملَلهن ويملَلنك، واستبقِ من نفْسك بقية؛ فإن إمساكك عنهن، وهن يردْنك باقتدارٍ؛ خير من أنْ تَهجم منك على ضعفٍ وانكسارٍ.

ومن الآداب المأخوذة على المرأة: ألا تمتنع عن امتثال سائر ما يأمرها به، من كلام يعجبه منها، وانعطاف، وجلوس، وارتفاع، واضطجاع على جنْب، وغير ذلك.

والمرأة تستلذَّ بفحاش الجماع، وألذُّ أبوابه عندهن الأصمول، وهو أنْ تضع تحت إليتها مخدَّة ثم تمدُّ رجليها ما استطعت، وتجعل رأس ركبتها على ثدييها، ثم تدخِل يدك من تحت ركبتيها، فتجعلها على رأس الكتفين، وتجذبها إليك، وتنحطُّ عليها، ولا تنم على بطنها، وكن مستوفرًا قاعدًا على أطراف أصابعك، وتعمَّد سقف الحِر؛ فإن لذَّة المرأة في سقفه إذا كانت قَعِرَة، فإن كانت شفرة؛ فما من شيء ألذَّ عندها من ذلك الأمر بين شفريها، ورُبَّما غُشِيَ عليها عند ذلك، والتي تكون هكذا لا تكون حبولاً، وإن علقت لم تلد إلا البنات.

قال بعض الكُتَّاب: لا يغُرَّنَّكم قول الواحدة: قتلتني وأوجعتني والموت؛ فإن قلقها واضطرابها لشدَّة الشهوة، وكلما فعلت ذلك، فازدد في الرَّهز وجَوِّد؛ فإن ماتت فدمها في عنقي.

الجملة العاشرة: في بيع وشراء الرَّقيق

وهي خمسة أبواب:

الباب الأوَّل من الجملة العاشرة

في ذكر وصايا ينتفع بها في البيع والشراء

وهي ثلاث عشرة وصية:

الوصية الأولى: سبيل المستعرض للجواز ألا يقطع بأول نظرة؛ فإن الجائع يستجيد كلَّ طعام يشبعه، والعريان يستوفق كل طمرٍ يستره ويدفِّيه، ولهذا قال: لا يستعرض جارية شبق، فليس لنعِظٍ رأي؛ لأنه يقطع بأول نظرة ينظر، وللجديدة لذة، وللغريب روعة؛ فإذا صادف منه حاجة داعية، قطع ما يكذِّبه حواسُّه عند الاستغناء عنه، ولهذا قال: تكرار اللحظ مخلف كل جدة، ولمعاودة التقليب يظهر التصنع ويهرج المدلِّس.

الوصية الثانية: أن يحذر شراء الرقيق في المواسم؛ ففي مثلها يتم للنخَّاسين الحيل، فكم سمراء كمدة بيعت بصفراء مذهبة، وأبخر الفم بطيِّب النَّكهة، وكم قد جعلوا العين الزرقاء كحلاء، وحمَّروا الخدود المصفَّرة، وسمَّروا الوجوه المقعقعة، وأعدموا الخدود شعور اللحى، وأكسبوا الشَّقراء حالك السَّواد، وجعَّدوا الشُّعور السَّبطة، وبيَّضوا الوجوه المسمَّرة.

وكم من مريض بيع بالصحيح، هذا زائد على ما يوصون به الجواري من دلٍّ ومجانة على مسافرين، فدخَّل لهم لحم الميتة، وسوى ما يفعلنه من تزيُّنهن بالخضاب والحنَّاء والملابس الناعمة المصبَّغة.

قال بعض النَّخَّاسين: درهم حنَّاء يزيد في ثمن الجارية مائة درهم فضَّة، ولهذا قال: اتَّهم نظرك فيما تستحسنه، حتى يكون الاستحسان دائمًا على صورة لا يُنقصها تكرار النظر، ولهذا لا يتمُّ إلا في دفعات.

الوصيَّة الثالثة: ألا يقطع بأول كلامٍ يسمع أو غلامٍ أو جارية فرُبَّما جاء اتِّفاقًا أو عن تلقين فوافق من سامعه قبولاً، ولا يكون وراء ذلك الكلام أمثاله، ولكن خذ بسوء الظنِّ تسلم.

الوصيَّة الرابعة: ليحذر الرؤساء مِمَّنْ كان له سمعًا، ويخشى عليه منه، أو يخاف أن يطَّلع له على سرِّ شراء خادم أو جارية خاصة إن كانت كاتبة، وخرجت من دار سلطان إلا بعد خبرة بها، وشراء جارية مولَّدة بأجر جلاب؛ فإن هذه حيلة قد هلك بها جماعة من الملوك.

الوصية الخامسة: التَّحَرُّز من شراء مملوك كان يكثر ضربه أو جارية قد تمرنت على العقوبة؛ فإن مَنْ هذه صفته، قد انفسد، وامتنع عنه وجه الصلاح والتأديب.

الوصية السادسة: ألا يشتري مملوكًا ذا جرأة على ذم مولاه وتنقيصه.

الوصية السابعة: أن يغفل المسألة عن سبب بيعه وشرائه؛ لأن بيعه مولاه ولأن يشتريه؛ ففي هذا الفحص فوائد كثيرة في استنباط ما يدل على الصلاح في ارتباطه وتسريحه وتركه.

الوصية الثامنة: ما وُصي به قبل استخدامه، قالوا: المملوك على أول ما يراه منك، أول دخوله دارك؛ فإن أطمعته طمع، وإن هذبته انقمع، وإن خالطه مفسد من الغلمان فسد.

الوصية التاسعة: في التَّحَرُّز في استبراء الأمان من الحَبَل قبل الهلك، واحذر بالسَّداد، والدواعي الكاذبة؛ فإن كثير ما تجعل في خرقهن دم غيرهن.

وليكن مِمَّنْ يشتري لك منها امرأة تكره أن يلصق بك ولد غيرك، ومرها بتفقد ثديها، وحسن حشاها، وتأمل شحوب لونها، وشهوتها للطعام المالح الدال على

التَّوحُّم، وأن تسقى عند النوم من العسل أوقيتان ممزوجًا بمثله ماء المطر، وينظر هل يغص أم لا؟

والعلة فيه احتباس النُّفُخ بمشاركة المعاء، وهو صحيح مجرَّب، وأيضًا تكلَّف الصوم يومًا، وعند المساء ترمل في ثياب، وتدخن عن أحانة أو قمع بخور، فإن خرج الدخان ورائحته من الأنف والفم؛ فليس بها حبل.

الوصية العاشرة: بعد الشراء، وهو تحرز المشتري من أنْ تحبل الجارية بغير إرادته، وذلك أنَّه إذا اشترى غير بالغة؛ فرُبَّما بلغت في منكحه، وهو لا يعلم، وكتمت عنه ذلك رغبةً في الولد، ويحذر حبل الجواري اللاتي توهمْن أنَّهنَّ عقيم، وهن كارهات للحبل، فرُبَّما خدعن الملك بذلك.

الوصية الحادية عشرة: ألا تخرج جارية من منكحه إلا في دمٍ؛ فرُبَّما حبلت في حجرة النخاس، وادَّعت أنه من بائعها على أن ذلك من الجواري نادر.

الوصية الثانية عشرة: أن تجتهد في البراءة من كل عيب يخرج في الجارية، وألا يغفل عن البراءة من كيٍّ يكون في ثديها.

فكثير من طوائف الترك يكوي الجارية على ثديها حتى لا تسترخي، ويسقط ثدياها كثيرًا، ومنهُنَّ من يكوون الجارية في وسط رأسها، ومنهُنَّ من يكوون الجارية على فرجها، وللترك في هذا خرَّافات إلا أنهم يفعلون ذلك ببناتهم، والشرع يوجب للمشتري ردَّها، ولو بعد الوطئ إذا لم تكن بكرًا، ولم يعلم بالكيِّ وما شابهه.

حدَّثني بعض التُّجَّار أنه اشترى جارية تركية؛ فلما ملَّها عزم على ردِّها، قال: وكان على فرجها كيٌّ صغير على مقدار التُّرمُسة؛ فرددتها على صاحبها بمحضر من القاضي.

وحدَّثني صديق لي أنَّه اشترى جارية تركية حسناء، ووطئها عدَّة أيام، فناما ليلة حتى طلعت الشمس ثم جلسا، فحانت منه نظرة إلى عينيها، فرأى شعرة في جُفن عينها مقلوبة، وقد دمعت عينها؛ فردَّ الجارية على صاحبها بهذا العيب.

ولا أعلم أحدًا قد أمِن من هذا إلا أهل؛ فإن أحدهم إذا باع جارية، كتب بينه وبين المشتري شرطًا مجتمعًا على تعديد سائر العيوب والأمراض واحدًا واحدًا، ويبيعه على البراءة من جميعها؛ فإن رضي وإلا لم يبيعه.

الوصية الثالثة عشرة: للمسافر بالعبيد والجواري أن يُشهد بعض عدول المدينة عند أول وصوله إليها على إقرار المملوك والجارية بالعبودية له، والاختيار بشهادة قوم عليه بأنَّه في منـزله وخدمته؛ فهذا القدر كاف في الاحتراز من نشوز الغلام أو الجارية وهربه وادعائه الحرية.

* * *

الباب الثاني من الجملة العاشرة

في أجساد الرقيق بحسب كل واحد منهم على مذهب الأطباء

وهو ثلاثة وثلاثون أصلاً:

الأوَّل: تفقد اللون ألا يكون إلى الصفرة؛ فإنه يدل على ضعف الكبد، وغلبة الصفراء، ولا إلى السَّوداء والكمودة؛ فإنه على السَّوداء وضعف الطَّحال، والأبيض ناشفًا؛ فإنه يدل على أمراض في الرَّحِم أو الأحشاء أو المقعدة، لكن إن كان أبيض؛ فليكن مشربًا بالحمرة، وإن كان أسمر؛ فلتكن سمرته صافية.

الثاني: من البشرة أن تكون نقية خالية من البَهَو أو البرص أو الوشم أو القوباء أو الكي أو الصبغ أو الثآليل أو عرق مدني أو أثر قرصة لا سيما إن كان من عضة كلب.

الثالث: تناسب الأعضاء في الطول والقصر لا سيما الرقبة؛ فإن قصرها قبيح مكروه، وقصر إحدى اليدين عن الأخرى أو قصرهما جميعًا؛ فإن ذلك رديء في الأعمال.

الرابع: تفقد الشعر والرأس لئلا يكون به داء الثعلب والحية والسَّعفة والحزاز.

الخامس: ألا يكون كثير الفضلات كالبصاق والمخاط، ويكره كثرة النوم وكدر العين؛ فإن ذلك من مخايل الصَّرع.

السادس: تفقد العينين لئلا يكونا مطربتين؛ فإنه من علامات الوسواس لا سيما إذا لم يكن الكلام منتظمًا، ويعتبر لونهما؛ فإن كان بهما زرقة في السواد فإنها من علامات الماء، ولا يكون بياضها كدرًا أو اصفرارًا عروق؛ فإنه من مقدمات السُّل، وألا يكون شكلهما مستديرًا؛ فإنه من علامات الجذام، أو تفقد المآق لئلا يكون به ظفرة، ولا لحم زائد ولا ناصول، وعلامته أنك إذا عصرت المآق خرج منه مدَّة، وتفقد الأجفان لئلا يكون شفرهما منتشرًا ولا منقلبًا، ولا يكون في الأجفان غلط.

السابع: تفقد الأذن والأنف لئلا يكون في داخل أحدهما لحم زائد، ويمتحن بالروائح، والكلام.

الثامن: أن يستنطق لئلا يكون به لثغة إما لقبض اللسان أو لغلظه أو لسقوط جزء منه أو لآفة من عضلَة أو بسقوط بعض الأسنان أو لالتصاقه من الحيلة أو لأثر قرحة، ورُبَّما كان قد عضَّ لسانه لصَرَعٍ به.

التاسع: تفقد الأسنان لئلا يكون قد عضَّ لسانه لصرع ناقصة بعد الثغر؛ فإنها لا تعود، وتفقد ألوانها وصلابتها، وامتحان ذلك بأن يؤمر بكسر اللوز والجوز والبطر والفستق، وسلامتها من الحفور، وبعدها من الضرس بصبرها على الحامض، واجتماعها أجود من تفرُّقها، وإن كان السَّبَب محبوبًا عند العرب.

العاشر: اللثة ألا يكون فيها قروح، واستنكهه لئلا يكون فيها بخر من عفونة أو تآكل ضرس أو بلغم عفن في المعدة.

الحادي عشر: تفقد اللهاة لئلا تكون مسترخية؛ فإن ذلك سبب اتصال السُّعال، والنازلة إلى أسفل؛ فإنه يتبع ذلك الخناف.

الثاني عشر: تفقد النغانغ لئلا يكون بها سَلع أو أثر خنازير.

الثالث عشر: تفقد الصدر لئلا يكون ضَيِّقًا أو معَوَّجًا أو قليل اللحم، فإن ذلك سبب الذُّبول والسعال والنـزلات والسل، ولا سيما إن كانت الأكتاف متجنحة.

الرابع عشر: تفقد الساعد والمرفق لئلا يكون منه رشح من خرَّاج أو جرح أو عرق مَدَني، واستبينه بأن يُفيض على يدك بقوة.

الخامس عشر: أن يأمره بأن يستلقي على ظهره، ويحسُّ حشاه من فم المعدة إلى العانة، فإن رأيت الماء أو خلطًا؛ علمت به لا سيما إن وافق ذلك فساد لون، وتقبيح في المحاجر، وكان يقطع نفيه عند الإحضار.

السادس عشر: أن تأمر امرأة ترفع رجلي الجارية، وهي على ظهرها مستلقية حتى تصل ركبتاها إلى ثديها، وحتى يصير كعبها عند أُذنها؛ فينظر هل تتأوه أو تتألم أو تجمع بطنها؟

فإن فيهن من يكون في أحشائها أوجاع، ومثانتها قروح، ولا يمكنها رفع الرجل كثيرًا إلا بالألم، فتراها إذا جومعت لا يمكنها إمالة رجليها كثيرًا.

والسابع عشر: أن ينظر كيف أكل الجارية، وعملها للأشغال؛ فرُبَّما كانت تأكل بيدها اليسرى، وتعمل بها أكثر أعمالها؛ فذلك من العيوب.

الثامن عشر: أن ينام الغلام أو الجارية في بيتك ليلتين أو ثلاثة، وتمنعه أن يُلقي من فِيه شيئًا عَقِيب تنخُّع أو سعال إلا في طاسٍ، مشتمل على ماء قد أعددته لذلك، وتراقبه أيضًا بعد هبوبه من المضجع، فلا يمكن من إلقاء شيء من فِيه إلا في الطاس، ثم يتأمل ما في الطاس، ويحرك في الماء بقصبة؛ لتفرق أجزاؤه، بحيث يخلص من الرطوبات ما عساه يتشبث بها من المِدَّة، فإن رسب شيء؛ فهو عن قرحة في الصدر أو في المريء أو المراق أو الرِّئة، وأرداها ما كان لونه بعيدًا عن البياض.

فكم من مصدور بيع بالصحيح، ويبقى المشتري سنة لا يعلم بحاله، ولا يظهر على المريض علامات ذلك؛ لأنه لم يتفقد منه ما ذكرنا؛ فإن قرحة الصدر خاصَّة إذا حدثت عن أخلاط رديئة كان خروج الفُتح منها ونفثه بغير سُعال، ولا سيما إذا اعتقت؛ لأنَّ الأعضاء الَّتي تمر بها الفتح بالنخع بلا سُعال.

التاسع عشر: تفقد المعدة ألا يكون الطَّعام فيها يستحيل إلى الحموضة أو الدُّخَّانية أو التُّخمة، وألا يكون ساقط الشهوة قليل الأكل جدًّا أو لا يكون بها خلط داع إلى أكل الفحم والطين.

العشرون: أنْ يُطعَم اللحم مشويًا أو مقليًا، وتتأمل أطرافه بالليل، ومنهم من يكون بها سداء دِقٍّ، وتصلح في الشتاء، وترجع في الصيف إلى أشدِّ ما كان؛ فإذا أكل اللحم أسرعت الحرارة إلى أطرافه خاصَّة يديه ورجليه؛ فيسخنان بالليل سخونة رديئة.

الحادي والعشرون: أن يؤمر بأن يتبوَّل في طاس عقب النوم الأطول، ويتفقد هل يتبين فيه رمل أو مِدَّة، فيدل على قرحة أو حرارة في الكُلى أم لا؟

الثاني والعشرون: يتأمل الغلمان خاصَّة عند البول، فإن كان يفرك الإحليل طويلاً قبل خروج البول؛ فذلك دليل عُسر البول أو قرحة في القضيب.

الثالث والعشرون: يمنع من التَّبرز في جُبٍّ يختفي فيه البراز، بل يُلجيء إلى أن يتبرز على بسيط الأرض، ويتوكَّل به من يفتقد برازه، هل فيه دم أو قيح؟

وقد يخرج البراز غليظًا، ولا يُرَى معه قيح، لكن إذا تفقدت جوانبه؛ وجدت في أحد الجوانب من البراز رطوبة خضراء، وقيح يسير، ودال على شجج في المعاء، وبُعده من المعاء يعلم بعد موضع القيح من أول البراز إذا مدَّ كل الحبل.

الرابع والعشرون: أنْ يؤمر من يشرف عليه من ورائه إذا تبرز، وهو لا يشعر حذرًا من أنْ يكون مِمَّنْ تخرج مقعدته إذا تبرز.

الخامس والعشرون: الأنثيان لا يكون بهما دوالي أو بأحدهما عطبًا أو إحداهما صغيرة والأخرى كبيرة أو يكون ذا بيضة واحدة.

السادس والعشرون: مختص بالرَّحِم بألا يكون ما بين السرة إلى العانة عند الحس غليظًا أو صلبًا؛ فإن ذلك دليل سرطان.

السابع والعشرون: يحترز بألا يعرض للجارية الغشي الشبيه بالسكتة في أول الحيض؛ فإن ذلك دليل اختناق الرَّحِم يتبعه الموت فجأة.

الثامن والعشرون: ألا يكون في الرِّجل عوج أو تشنج أو عرق نسا أو خلع ورك، وهذا يتبين إذا أمرته بالعَدْو.

التاسع والعشرين: تفقد الركبة لئلا يكون بها ورم صلب أو خلع الأصل.

الثلاثون: الساقان لا يكون بها تقويس أو حنف أو فحح، ولا في باطنهما دوالي.

الحادي والثلاثون: أن يؤمر بالعشاء، ويطعم الخيار؛ فإن كان له عادة يبول في الفراش جرى على عادته.

الثالث والثلاثون: تفقده في حال النوم ألا يكون يصرُّ بأسنانه، ولا يهذي في نومه، وبألا ينام على وجهه، وبألا يكون مِمَّنْ يمشي، وهو نائم.

***

obeikandl.com

الباب الثالث من الجملة العاشرة

في تعرف الأخلاق لقياس الفراسة على مذهب الفلاسفة

مقدمات الفراسة مأخوذة بتشابهات موجودة في أشخاص من النَّاس أو من الحيوان، ولا يحكم على دليل واحد، ومتى اجتمعت دلائل متضادة حُكِم بأقواها، ورُجِّح أظهرها، ودلائل الوجه والعينين خاصَّة بأقواها وأوضحها مثال.

من دلائل الشجاعة: تراه مأخوذًا من صفات الأسد أن يكون قويَّ الشعر خشنه، شديد العظام والأطراف والأصابع، عظيم الصدر والأكتاف والرَّقة، عريض الصدر، ضامر الورك، معرَّق الجبهة، قوِيَّ المفاصل، منتصب القامة، ممشوخ الإليتين، بعيد ما بين المنكبين، ممدود الحاجبين، أرب الصدر والكتف، والجبان بالضد.

دلائل اللون: الأشقر والأحمر يدلان على كثرة الدم والضحك، الَّذِي بين البياض والحمرة دليل على اعتدال، اللون الناري دليل رأي، الأحمر دليل حياء، الأخضر دليل سوء الخلق.

دلائل العينين: عظمها دليل كسل، غورهما دليل دهاء وحسد، جحوظهما دليل هذر وقحة، زرته إحداهما تدل على البلادة، سوادهما دليل جبن، شبههما بعيون الأعنز دليل جهل، سرعة حركتهما وحدة بصرهما دليل مكر وحيلة، بطء حركتهما وإبعادهما دليل كسل وشبق، حمرتهما دليل شر وإقدام، سودهما دليل كسل وبلادة؛ فإن مالتا إلى الصُّفرة كان صاحبها سفَّاكا للدماء، الزرقة مع الأصفر دليل رداءة الخلق جدًّا، النُّقَط والشُّعَب حوالي السواد يدل على هذر وحمق وحسد وشر، وإذا برز السواد على البياض دل على الحمق، صغرهما وجحوظهما دليل ميل إلى الشهوات.

دلائل الحاجب: كثرة الشعر فيه من دلائل الهَمِّ، طوله نحو الصُّدغ دليل التيه والصلف، طوله نحو الأنف دليل البله.

دلائل الأنف: دقة طرفه دليل محبة الخصومة؛ فإن كان ذلك مع طول دل على حمق، غلظه دليل قِلَّة الفهم، الفطسة دليل شَبَق، غلظ أرنبيته دليل غضب.

دلائل الجبهة: المستطيلة الَّتي لا غصون فيها دليل شغب وخصومة، الكثيرة الغصون دليل صلف، صغرها دليل الجهل.

دلائل الفم: سعة الفم دليل شجاعة، طول الأنياب دليل شره وشر.

دلائل الوجه: من كان حاله كأنَّه سكران أو غضبان فحاله كذلك، قِلَّة لحم الوجه دليل كسل وغلظ طبع، وضده بالضد، الوجه المستدير دليل جهل، العظيم دليل كسل، الصَّغير دليل خفة، السَّمح الوجه رديء الخلق، طوله دليل قحة، الأوداج البارزة دليل غضب.

دلائل الأذن: عظمها دليل جهل ودُهاء وطول عمر وبالضد.

دلائل الصوت والنَّفَس: العظيم الصوت دليل شجاعة، سرعة الكلام دليل عجلة وبله، وحسن الصوت دليل رعونة، النفَس الطويل دليل رداءة الهِمَّة.

دلائل اللحم: اللحم الكثير الصُّلب دليل غلظ حس وفهم واللين بالضد.

دلائل الضحك: كثرته دليل دماثة الخلق وقِلَّة اهتمام بالأمور وبالضد، علوه دليل قحة من عرض له عنها لضحك سعال؛ فهو مستحي.

دلائل الحركات: الحركة السريعة دليل طيش، البطيئة دليل بلادة.

دلائل البطن: كبرها دليل البلادة، وصغرها بالضد.

دلائل العنق: قصرها دليل مكر، طولها دليل جبن، عظمها دليل شجاعة.

دلائل الظهر: عرضه يدل على القوة والغضب، استواؤه يدل على العقل، انحناؤه دليل رداءة الخلق.

دلائل الكتفين: العريض جودة العقل، الدقيق ضده، شخوص رأس الكتفين دليل حمق.

دلائل الذراع: إذا بلغ منتهى الكف رأس الركبة دلَّ على نبل النفس وحبِّ الرئاسة، وقصره بالضد.

دلائل الكفِّ: اللينة اللطيفة دليل سرعة التعلم والفهم وبالضد، الطويلة الدقيقة تدل على زعارة الخُلقِ.

دلائل الحقو والساق والقدم: القدم اللحيم الصلب دليل بلادة، والصَّغير الحسن دليل فجور ومرح، غلظ العقب دليل شدَّة وبالضد، غلظ العاقين والعراقيب دليل بله وقحة، دقَّة الحقو دليل حب النِّساء.

دلائل الخُطى: الخُطى الواسعة البطيئة دليل تأن وتؤدة، والخُطى القصيرة المسرعة بالضدِّ.

* * *

obeikandl.com

الباب الرابع من الجملة العاشرة

في معرفة أجناس الرقيق وما يصلحون له من الأعمال

الجارية الخماسية هي الَّتي يكون طولها خمسة أشبار، والشهوارية ليس اسمها مشتقًا من جنس من الأجناس لكنها مشتقة من الشَّهوة الكاملة، والمنصورية من المنصورة الَّتي هي وراء النهر، وهي غير منصورة العرب، والفارسية موَلَّدة فارس، مولَّد الزنجية إذا تكرر مع النسل في البيض ثلاث دفعات؛ صار أبيض، وبعد الفطس أقنا، ولأنت أطرافه وتطبعت أخلاقه، ومثل ذلك في كل الأجناس.

فأمَّا أهل البلاد الشرقية: فألوانهم بيض مشربة بحمرة، وأبدانهم مخصبة، وأصواتهم صافية، وأمراضهم قليلة، وصورهم جميلة، وأخلاقهم كريمة، وأعشابهم كثيرة، وأشجارهم عظيمة، وما لهم غضب ولا حدة لاعتدال كيفياتهم لكنهم أهل سكون ودعة.

وأمَّا أهل البلاد الغربية: فأحوالهم تكاد تضاد جميع ما ذكرناه في البلاد الشرقية.

وأمَّا البلاد الشمالية: الَّتي هي بنات نعش والجدي كبلاد الصقالبة؛ فأهلها عراض الصدور، شجعان، وحشوا الأخلاق لكمون الحرارة، دقاق السوق طويلون الأعمار لجودة هضمهم، نساؤهم عواقر لا يبقين من دم الحيض.

وأمَّا البلاد الجنوبية: وهي الَّتي أهلها سكان تحت القطب الجنوبي كالحبشة؛ فأحوالهم ضد أحوال البلاد الشمالية، ومياههم كدرة مالحة، ومعدهم باردة، وهضومهم رديئة، وأخلاقهم هادئة، وأعمارهم قصيرة، وبطونهم ليِّنة لسوء الهضم.

وأمَّا الهنديات: مسكنهن أول الجنوب على سمت المشرق، ولهن حسن القوام، وسمرة الألوان، وحظ وافر من الجمال مع صفرة وصفاء بشرة، وطيب نكهة، وحسن نعمة، ولكن الشيخوخة تسرع إليهن وفيهن.

أعني: وفاء عهد ومودة، وكثرة محافظة، وبعد غور وسلاطة، ونفوس عزيزة، لا يعبدون على الذُّل، ولا يتألمون للقتل، ركَّابون العظائم متى أحوجوا وأُغضبوا، وهن يصلحن للولد، ورجالهم لحفظ النفوس والأموال والصنائع الدقيقة غير أن النـزلات تسرع، وقد يوجد فيهم الجوار البيض الحسان على ما حدثنا التُّجَّار.

روى الأمير مؤيد الدولة أسامة بن منقذ عن أشياخه بإسناده إلى أحمد بن أبي خالد وزير المأمون، قال: كتب ملك الهند إلى المأمون مع هدية أهداها له ما هذه حكايته: من دُهمي ملك الهند، وعظيم أركان المشرق، وصاحب بيت الذهب، وإيوان الياقوت، وفرش الدر، الَّذِي قصره من العود الَّذِي يختم عليه فيقبل الصُّورة قبول الشمع، وتوجد رائحة قصره من عشرة فراسخ، والَّذي يسجد له إمام البُدّ الَّذِي وزنه ألف ألف مثقال من الذهب، وعليه مائة ألف حجر من الياقوت الأحمر والدر الأبيض، والَّذي ركب بالسعادة في ألف مركب وألف راية مكللة بالدر والجوهر، وتحت كل راية ألف فارس معلمين بالحرير والذهب، والَّذي في مربطه ألف فيل خراطيمها أعنَّة الذهب، والَّذي يأكل في صحاف الجوهر على موائد الدُّر، والَّذي في خزانته ألف تاج وألف حلة جوهر لألف ملك من آبائه، والَّذي يستحيي من الله أنْ يراه خائبًا في رعيته إذ اختصه بالأمانة عليهم والرئاسة فيهم، إلى عبد الله ذي الشرف والرئاسة على أهل مملكته، أما بعد؛ ما تقدم به ذكرنا أيها الأخ من الملك والشرف والثروة مِمَّا خطر ما ترتحل به الأوقات، وتجره الساعات ذهابًا وزوالاً عند الخطر الَّذِي يجب على المستودعين من الله سبحانه فضيلة العقل الاعتداد به والمكاثرة فيه، ولكنا جرينا على ما جرت به سنَّة الملوك، ولم يجهل أن الله له الشرف الَّذِي يفوت الألسن ذكره فإن الابتداء بتمجيده من أفضل الاعتداد، ولكنا أجللناه عن الافتتاح بذكره إلا في مواطن المناجاة

له عابدين، وأخبارك ترد علينا بفضيلة لك في العلم لم نجدها لغيرك، ونحن شركاؤك في المحبة والرغبة، وإن لك في أفئدتنا من ذلك ما لم نـزل به بالله بالفضل ذاكرين، وقد استفتحنا استهلال بأن وجهنا لك كتاب ترجمته بسمته، وبعثنا إليك لطفًا بقدر ما وقع منا موقع الاستحسان له، وإن كان دون قدرك.

ونحن نسألك أيها الأمير! أن تُنعِم في ذلك بالقبول، وتوسع عذرًا في التقصير، وكانت الهدية جام ياقوت أبيض فتحه شبر في غلظ الأصبع مملوءًا درًّا، ووزن كل درَّةٍ مثقال، والعدد مائة درة، وفراشًا من جلد حية تكون بواد الدهراج تبتلع الفيل، ووشي جلدها دايرات سود كالدرهم، في أوساطها نقط بيض لا يتخوف من جلس عليها السُّل، وإن كان به سل، وجلس عليها سبعة أيام برئ، ومصليات ممتلئة وسائدها من جلد طائر، يقال له: السَّمندل، إذا طرحت ريشه في النار لم يحترق فراوزها درٌّ، ومائة مثقال عود هندي يختم عليه؛ فيقبل الصُّورة، وثلاثة آلاف مثقال كافور محبب مثل اللوزة، وجارية طولها سبعة أذرع تسحب شعرها، لها أربع ضفائر، وكل شفر من أشفار عينيها أصبع، إذا أطرفت بلغ نصف خدها، ناهدًا لها ثمان عكن، وهي في نهاية الحسن والجمال ونقاء البياض.

وكان الكتاب مكتوبًا في لحاء شجرة تنبت بالذهب، يقال لها: «الكادي»، لونه إلى الصفرة، والخط باللازِوَرد، مُفَتَّح بذهب.

فأجابه المأمون يقول: من عبد الله الإمام المأمون بالله أمير المؤمنين الَّذِي وهب الله له ولاية الشرف بابن عمه النبي المرسل ﷺ، والتصديق بالكتاب المنـزل، إلى ملك الهند، وعظيم من تحت يده من أركان المشرق سلام عليك، فإني أحمد الله إليك الَّذِي لا الله إلا هو، وأسأله أنْ يصلي على نبيه، وصلَ كتابك؛ فسررت لك بالنعمة الَّتي ذكرت،

ووقع مداحك إيانا الموقع الَّذِي أملت من قبول ذلك، ولولا أن السُّنَّة جارية بترك تقديم من لم يكن لنا على الشريعة مواليا ما تركنا ما يحسن من مبرَّتك بالتقديم، والاعتذار بهذا أحد المتقدمين، وأنت له منا أهل، وقد أهدينا لك كتابًا ترجمته ديوان الأدب، وبستان نوادر العقول، ومطالعتك مودعة يحقق عندك فضيلته، وجعلنا لذلك عنوانًا من الهدية، وهو لُطف استقللنا قدرها لك، ولو كانت الملوك تهداها على أقدارها؛ لما اتسعت لذلك خزائنها، وإنما تجري في ذلك على قدر ما يدلُّ على النية بالتوطين إن شاء الله تعالى.

وكانت الهدية فرسًا بفارسه، وجميع آلاته من عقيق، ومائدة جزع فيها خطوط سود، وحمر على أرض بيضاء، وفتحتها ثلاثة أشبار، وغلظها أصبعان قوائمها من ذهب، وخمسة أصناف كسوة ثياب مصر، وخز السوس، ووشي اليمن، وملجم خراسان، والديباج الخسرواني، وفُرش قُرمُز، وفُرش حمر، ومائة طنفسة إبريسم بوسائدها كل ذلك خز، وفُرش خز نوسي مائة قطعة من كل صنف، وجام زجاج فرعوني فتحه شبر، في وسطه صورة أسَد، وأمامه رجل قد برك على ركبتيه، وفوَّق السهم في القوس نحو الأسد، وكانت المائدة والجام مِمَّا أُخِذ من خزائن بني أمية، وكان الكتاب في طومار ذي وجهين.

وغلظ الخط أصبغ ذكرنا هذه الحكاية لِما وصفنا من صفة الجارية الهنديَّة والسِّندية تزيين المشرق والجنوب، وهن قريبات الشبه بالهنديات لمتاخمة بلادهم غير أن السِّنديات يتفرَّدون بدقَّة الخصور وطول الشعور.

عن جعفر بن زياد قال: عشق إبراهيم بن سيابة مولى بني هاشم جارية سوداء؛ فلاموه على ذلك، فقال:

يكـــون الخـــال في وجـــه قبـــيح فيكـــسوه الملاحـــة والجـــمالا

فكيـــف أُلام في حبِّـــي فتـــاة أراهـــا كلهـــا في العـــين خـــالا[1]

قال أبو شبل: كانت لي جارية سندية اسمها سكر، فدخلت يومًا إلى منـزلي، ولبست ثيابي، لأمضي إلى دعوة دُعيت إليها؛ فقالت لي سكر: إلى أين تمضي؟ فقلت: إلى دعوة؛ فقالت: أقم في دعوتي؛ فأقمت عندها، وقلت فيها:

أنـــا في دعـــوة ســـكر والهـــوى لـــيس بمـــسكر

كيـــف صـــبري عـــن غـــزال وجهـــه دلـــو مقَـــيَّر[2]

فلما سمعت البيت الأوَّل، فرحت وسُرَّت به، فلمَّا أنشدتها البيت الثاني قامت إليَّ تضربني، وتقول: هذا الآخر الَّذِي فيه دلو مقيَّر لمالك لولا الفضول، ومازالت، والله تضربني حتى غُشِي عليَّ.

والمدنيَّات: سُمر الألوان قوامهن معتدل قد اجتمع لهنَّ حلاوة القول، ونعومة الجسم، وملاحة، ودلٌّ، وحسن، وشكل، وبشرة، لا غيرة فيهن على الرجال، قنوعات بالقليل، لا يغضبن، ولا يصخبن، ويوجد فيهن الخفيفات الرُّوح، ويصلحن للقيان.

والطائفيات: سمر مذهبات مجدولات، أخف خلق الله أرواحًا، وأحسنهم فكاهةً ومزاجًا، أمهات أولاد، ويكسلن في الحَبَل لفساد الهضوم، ويهلكن عند الولادة، وهن أشدُّ النَّاس تحببًا، وأذوقهم عِشرة، وأحسنهم غِناء.

واليمانيات: في حسن المصريات، وخلق البربريات، وشكل المدنيات، وهن

---

(١) البيت من الوافر، وهو لبشار بن برد في «التشبيهات» لابن أبي عون ص (٣٨٤)، و«نهاية الأرب في فنون الأدب» ص (٥٨٠)، ولإبراهيم بن سيابة في «الوافي بالوفيات» ص (٤٠٥٥).

(٢) البيت لأبي شبل عاصم بن وهب في «الأغاني» (١٤/ ٩٢١٣).

أمهات أولاد، حسان الوجوه، أشبه شيء بالأعراب، ومعظم جوار الخلفاء اللواتي ضربت الأمثال ببراعتهن، وبلغن عندهم المبلغ العظيم، يمانيات، وطائفيات، ومدنيات، مولدات العرب.

والجليات: هنَّ المولدات بالجلَّة بأرض العراق، وهن مولدات العرب، أطيب النِّساء متعة، وأعجبهن خلوة، وإذا سُبق إلى البكر منهُنَّ؛ قبل بأُلف العهد، وتعتاد الفحش؛ فهي الغاية في هذا الباب.

والبربريات: من جزيرة بربرة، وهي بين الغرب والجنوب ألوانهم على الأكثر سود، ويوجد فيهن الصفراء، وإذا وجدت فيهن الكتامة الصباحية الأب المصمودية المنشأ؛ فإنها تصادفها مطبوعة على المواتاة في كل أمر، وهن نشيطات للخدمة، يصلحن للولد واللذة؛ لأنهن أحذر شيء على ولد.

وقال بعض سماسرة هذا الشأن: إذا اجتمع للبربرية مع جودة الجنس أنْ تُجلب، وهي بنت تسع حجج ثم كانت بالمدينة ثلاث حجج، وتكبر ثلاث حجج ثم جاءت إلى العراق بنت خمسة عشرة سنة؛ فكانت في العراق في الأدب عشرة سنين، ثم ملِكت ابنة خمسة وعشرون سنة الَّتي جمعت إلى جودة الجنس شكل المدنيَّات، وخُبْث المكِّيَّات، وأدب العراقيات، استحقت أن تُحَبَّى في الجفون، وتوضع في العيون.

والزربحيات: من بلدة يقال لها: «زربح»، بينها وبين مدينة المليان مسيرة شهرين والمليان وسط الهند، وخاصَّةً هذا الجنس، إنَّهن إذا بوشرن فَعَزِقن بدمائهن عرق كالمسك، لكن لا يصلحن للولد.

الزنجيات: مساوئهن كثيرة، وكلما زاد سوادهن، وقبحت صورتهن، وتحددت أسنانهن؛ قل الانتفاع بهنَّ، وخيفت المضرة منهُنَّ، والغالب عليهن سوء الأخلاق، وكثرة الغمِّ والهمِّ، وليس في طبعهن سوى الإيقاع والرَّفْض، ويقال: لو وقع الزنجي من السماء إلى الأرض ما وقع إلا بإيقاع.

وهنَّ أنقى النَّاس ثغورًا لكثرة الريق، وكثرة الريق لفساد الهضوم، وفيهن جَلد على الكدِّ، والزنجي إذا شَبِع، فصُبَّ عليه العذاب صبًّا؛ فإنه لا يتألم، وليس فيهنَّ متعة لِصُنانهنَّ، وخشونة أجسامهنَّ.

والحبشيات: الغالب عليهن نعومة الأجسام ولينها وضعفها، يتعاهدهن السِّل والدِّق، ولا يصلحن للغِناء، ولا يوافقهن غير البلاد الَّتي نشأت فيها، وفيهن مباشرة وخيرية وسلامة انقياد، يصلحن للائتمان على النفوس، تخصُّهم قوة نفس، وضُعف أجسام كما يخُصُّ النوبة قوة الأجسام على دقَّتها، وضعف النفوس، قصار الأعمار لسوء الهضم.

والمكيات: حسان مواتيات، ألوانهن إلى البياض المشرب بسمرة، وشعورهن جعدة، وعيونهن مراض فاترة.

والزغاويَّات: رديئات الأخلاق، وذوات دمدمة؛ لحملهن غلظ الأكباد، وشره الطباع على عظم الأفعال، وهن شر من الزنج، ومن جميع أجناس السُّودان لا يصلحن للمتعة، ورجالهن لا يصلحن للخدمة.

والنحاويات: هنَّ فيما بين الجنوب والغرب في الأرض الَّتي بين الحبشة والنوبة، مذهبات الألوان، حسنان الوجوه، ملس الأجسام، ناعمات البشرة، جواري متعة، إن جلبت إحداهن صغيرة، وقد سلمت من أنْ ينكل بها؛ فإنهن يقررن، ويمسح بالمواسي ما على فروجهن، حتى يبدو العظم، فيصرن فظيعات المنظر، ويقطعون أثداء الرجال.

وقيل: الرَّصفة من الركبة، يعني: الناعي منهم زعموا، والسرقة فيهم طبع؛ فلهذا لا يجوز أن يؤمنوا على مال، ولا تصلح الجواري منهُنَّ أن يكن خازنات.

وأمَّا الحبشة؛ فكثير منهم يعلقون أنفسهم، ويعلقون أولادهم، وذلك أنهم يُرَكِّبون للخيل عارية لا يضعون عليها سرجًا، ولهم من الخيل ما يفوق خيل العرب في المرح، والقوة والوثب، فيخاف أحدهم حين يثب إلى ظهر الفرس أو يثب به الفرس أن يحصل إحليله تحته، فكثير منهم قد كان هلاكهم شبه ذلك، وذلك أن إحليل الأسود وساقه طويلتين.

والنوبيات: من جملة السُّودان ذوات ترف ولطف، وأبدانهن يابسة مع لين البشرة، وقوة مع دِقَّة وصلابة، وهواء مصر يوافقهن؛ لأنَّ ماء النيل شُربُهن في بلادهن، وإذا انتقلن عن مصر، تسلطت عليهن العلل الدموية، ويسير الأذى يقدح في أجسامهن، وإلا فأخلاقهن ظاهرة، وأجسامهن لينة، وصورهن مقبولة، وفيهن دين وحرية وعفة وتَصَوُّن، وإذعان للموالي، كأنَّهن فُطرن على العبودية.

والقندهاريات: في معنى الهِذيات، ولهن فضيلة على كل النِّساءِ؛ فإن الثيب منهُنَّ تعود كالبكر.

والديلميات: حسنان المنظر، جميلات المخبر، غير أنَّهن أسوأ النِّساء أخلاقًا، وأغلظهن أكبادًا، وفيهن صبر على الشدة كالطَّبريات في كل حال.

واللابيات: ألوانهن مشربة بحمرة، وأفرجهن يغلب عليهن البرد، وهن للخدمة أصلح منهُنَّ للمتعة؛ لأنَّ فيهن خيرية طبع وثقة، وحرص على المحافظة والموافقة، وهن قليلات الشبق.

والتركيات: قد جمعن الحسن والبياض والمتعة، وجوههن مائلة إلى الجهامة، وعيونهن وصغرها مائلة إلى الحلاوة، وقد يوجد فيهن السمراء الأسيلة الخدين، وقدودهن مائلة في الرفع والقصر والطول فيهن قليل، ملتحهن غاية، وقمحتهن آية، وهن كنوز الأولاد، ومعادن النسل، قلما يتَّفِق في أولادهن وحش، ولا رديء التركيب

ولا جبان، وفيهن نظافة ولباقة وقوة شبق، معدهن جيدة الهضم لا يكاد يوجد فيهن نكهة متغيرة، ولا من له عجيزة عظيمة، ولهن أخلاق سمحة، وقِلَّة وفاء، والحسناء منهُنَّ إذا جلبت صغيرة ورُبِّيت؛ فهي أبعد عن الشر، فأمَّا الَّتي تجلب كبيرة، وتكون مع جمالها قوية؛ فالخلوة بها من أعظم الخطر لمن كان شيخًا ضعيفًا أو قليل البطش.

حدثتني جارية لي أن الَّذِي جلبها نـزل بها في خان في بعض مراحله في مدينة من مدن خراسان، وكان في بعض حجر الخان شيخ تاجر كثير المال والتجمل معه زوجته، وله عدة جوار تركيات منهُنَّ واحدة فائقة الجمال، وكان التاجر في كل ليلة يشرب مع صاحب المدينة، وينصرف وقت النوم، وبين يديه قوم يشيعونه إلى منـزله، فراوده الأمير في بعض الليالي في بيع الجارية الحسناء على الخمر فامتنع، وجعل كلما أسنى له العطية، وبالغ في التوسل لا يجيبه إلى بيعها ثم انصرف إلى منـزله الَّذِي بالخان وقت منامه، ونام تلك الليلة مع الجارية في حجرة غامضة داخل الحجرة الَّتي تسكن فيها زوجته وجواريه.

وكانت تلك الجارية قد سمعت برغبة الأمير فيها، وأن مولاها غير مسامح في بيعها، فأغلقت الباب عليها وعليه، وقد وقع من النوم والسُّكر، وطمعت فيه، فأقبلت عليه، فأوثقته كتابًا سجل قد أعدته، ففطنت بها جارية من جواريه؛ لأنها ارتابت منها لما أغلقت الباب عليها وعلى مولاها، وقفلته فمازالت قائمة تنظر من شق الباب حتى رأتها قد فعلت ذلك ثم أنَّها استخرجت سكينة من كمرانه، وأقبلت عليه ضربًا في عنقه، وقطعًا في أوداجه؛ فأسرعت الجارية إلى ابنة عم مولاها صارخة فقامت والجواري، وصحن في الجارية وهدَّدنها، وهي لا تكف عنه حتى قتلته، وكان الباب وثيقًا لا ينكسر سريعًا، فما قدروا على كسره إلا بعد هلاكه بساعة، فلم تحفل بهم حين دخلوا عليها لقوة قلبها بأنَّها بغية صاحب المدينة، فأكبت عليها ابنة عمِّه ضربًا، وساعدها الجواري، فأوثقوها كتافًا.

ووافى أصحاب الأمير ورسله يشفعون إليها في الجارية، ويطلبونها منها بحكمها، وكانت ابنة عم التاجر امرأة ذلقة اللسان، فما استطاعوا خلاص الجارية من

يدها، وهددتهم بأنواع الشناعات والتشويهات بنفسها إن أخذوها منها، فمكنها السلطان منها، فقطعت أطرافها، وقلعت عينيها وفرجها، في مجمع من النَّاس، وتركتها حية، فعاشت سبعة أيام تسأل النَّاس الطَّعام حتى ماتت.

ذكرت هذا الخبر لما فيه من الوعظ لمن اعتاد أن يثق بالتركيات على نفسه.

فأمَّا غدرهن وميلهن إلى الفساد والتعشق للأتراك والمرد؛ فأعرفُ منه حكايات وقصصًا جرت لجوار جماعة من الوزراء والأماثل أكره ذكرهم؛ فإنهن لو شاهدن كلبًا أو خنـزيرًا على رأسه طربوش كان آثر عندهن من بدر الدجى في عمامة، فسبيل من عاشرهن ألا يلقاهم في عمامة مهما استطاع.

والرُّوميات: بيض شقر، سباط الشعور، زرق العيون، ذوات طاعة وولاة وموافقة وخدمة ومناصحة ووفاء ومحافظة وأمانة، يصلحن للخَزن لضبطهن، وقِلَّة سماحتهن، لا يخلو أن يكون بأكفهن صناعة دقيقة.

والأرمنيات: لهنَّ الملاحة لولا ما خصوا به من وحشة الأرجل، وبهن شدَّة أسر وقوة، والعفة فيهن قليلة أو مفقودة، والسرقة فيهن قاسية، وقلَّما تجد فيهن بخل، وفيهن غلظ طبع، وليست اللطافة في لغتهن، وهن عبيد كدٍّ وخدمة، متى نُهِنه العبد منهُنَّ ساعة بغير شغل؛ لم يدْعُه خاطره إلى خير، لا يصلحون إلا على العصا والمخافة، ليس لهنَّ فضيلة غير تحمل العناء والأعمال الثقيلة.

والواحد منهم إذا رأيته كسلان؛ فذلك لِعنة فيه ليس عن عجز قوة فدونك والعصا، وكن مع ضربه وانقياده لما تُريدُ على حذر؛ فإن هذا الجنس غير مأمون عند الرِّضا فضلاً عن الغضب، ولتوسط بلادهم في بلد الإسلام؛ فهم أطمع الرقيق في الهرب، والعودة إلى الوطن، وجملة الأمر أن الأرمن شرُّ البيض كما أن الزنج شرُّ السُّود، وما أشبه بعضهم ببعض في قوة الأجساد، وغلظ الأكباد، وكثرة الفساد.

* * *

الباب الخامس من الجملة العاشرة
في التحرز من تلبيسات النَّخَّاسين
الَّتي يُدَلِّس بها في مواسم الرقيق على المشتري

أمَّا الَّذِي يفعلونه في تغيير البشرة؛ فإنهم يصَيِّرون الصفراء ذهبية بوضعها في أبزن ماء الكرويا أربع ساعات من النهار.

وأمَّا الدُّرِّيَّة اللون فيصيرونها بيضاء إذا غُمِّز وجهها بباقلاء قد نُقِع في بطيخ سبعة أيام، ونُقِل إلى لبن حليب أيام، وغُيِّر اللبن عليه كل يوم.

وأمَّا ما يُحَمِّر الخدود المصفرَّة؛ فهو غسول هذه صفته: دقيق الباقلاء والكرسناء فيه أجزاء عروق الزعفران وبورق وحنَّاء من كل واحد ربع جزء.

وأمَّا السُّودان فيُدهن أطرافهن ووجوههن بدهن البنفسج.

سمعنا ربَّات القصور تقول: الَّذِي يكسب الشعور الشُّقر السواد الحالك؛ فَدُهن الآس، ودُهن قُشور الجوز، وغسله بالأملج، ودهنه بدُهن الشقائق، ويجعد الشعور السبطة عَلَقها بالسِّدر والزادرخت.

ومن عادة النخاسين إذا أرادوا أنْ يطولوا الشعور أن يوصِلوه بضفيرةٍ من جنسه، وإذا أرادوا الوضع من الإماء ألصقوا في الأصداغ شعرًا أبيض ليَحُثَّ البائع على قبض الثمن، ويزيلون الشعر عن الوجه والأطراف بالمنقاش أو بالنُّوَّرة ثم بعد ذلك يطلونه ببيض النَّمل أو بدُهن قد طُبِخ فيه ضفادع خضراء أو عَضاية أو دم الأرانب دفعات كثيرة، ويغلى بالشِّبت والبورَق الأخضر.

وعادتهم أن يسَمِّنوا الوجوه الهزيلة، والرَّوادف الممسوحة، والسِّيقان المعرَّقة، بالدَّلك بالمناديل الخشنة، والأدهان الحارة، والطِّلاء بالعاقر قرحًا والخراطيم المُعرِّقة.

وينعمون الأطراف الخشنة بالدُّهن والشمع واللوز المرِّ، ولخلحة معمولة بماء

الورد ودُهن البنفسج، وترك مباشرة الأجسام الخشنة كالخشب والحجارة وهجر المآكل المولدة للمرّة.

ويدهُنُون آثار الجدري والنَّمش والوشم بغسول معمول من عروق القصب واللوز المرِّ والكرسنة والباقلاء وحب البطيخ معجون بغسل ما يَخضِب البرص القلفديس والعفص والزنجار من كل واحد جزء ويعجن بماء ولبن التبن ويغرَّز بإبرة، ويطلى أربعة أيام في الشمس حتى يبقى أربعين يومًا، ويطلى بمري وخل ما يغسل به الخضاب من البرص خل واتنان مغلي وماء القِلا والبورق أو ناطف وماءٍ حارٍ.

وما يقل القمل والصيبان من الشعر والبدن يُغسل بالبورق، وماء السَّلق أو دردِيّ الخل والشراب والصابون ما يزيل الكلف من البشرة الشويز، وأصل قثاء الجمان وورق الخبازي، وبزر الجرجير وأصل الكرم يعجن بغسل ويُطلى به.

ما يُزيل الشعر الَّذِي يكون في أصل الأظفار غسلها بالعسل والخل والمرتك أو دُهن الورد واللوز، ويعالج البرص فيها بالزرنيخ والكبريت.

ما يطيِّب الفم والنَّكهة مضغ العود الرَّطب والكسفرة والفوفل وقشور الأترنج، والمضمضة بالخمر وماء الورد والعود المنقوع في الشُّراب، وأكل اللبن بعد الطَّعام والصحناء أيضًا.

ما يزيل روائح الأنف السُّعوط بدُهن المزرنجوش والبنفسج واللينوفر والنرجس والياسمين.

ما يجلو الأسنان السواك بالأشنان والسُّكَّر وسحيق الدار صيني أو الفحم والملح المدقوق.

ما يُطَيِّب الجسد الصندل والورد والمرتك المربَّى بماء الورد والبخور

والرياحين، وبخلط الثياب المعبقات المعمولة من الرياحين على التفاح والفواكه مبَخَّرة بالكافور.

ما يُضَيِّع البياض العارض في سواد العين يقطر لبن أتان حار في العين، ما يستعمل في الثيب لتصير كالبكر، فلوق الرُّمَّان الحامض وعفص أخضر يعجن بمرارة البقر وتتحمل به.

ما يغيِّر به زرقة العين لتصير كحلاء يُقَطَّر فيها ماء قشر الرمان.

ما يُخْفِي الحمل وصايا النخاسين للجارية أن تعتمد الشِّداد، وتُظهِر الدم الكاذب المصنوع من ماء الصَّمغ ودم الأخوين، هذا إن لم يكن يمكنها إعداد دم حيوان، ما يُتَعَرَّف به الحمل هل ذكر هو أم أنثى؟

وهذا يتبين بأن يُقَدَّر بخيط في وسط المرأة إلى وسط الفقَّارة المحاذية لها، ويعلَّم المكان بمداد، وتديره من الجانب، فإن نقص الخيط عن العلامة من الجانب الأيمن؛ فهي بذكر، وإن طال فبأنثى.

* * *

ما يوصِي به النخاسون الجارية

أن يصرفوا العناية كلها إلى النظافة والطِّيب والتبرج للمشتري تارة والاختفاء تارة؛ فإن هذا باب من التحبب مالك للقلوب.

ومن وصاياهم لهنَّ أن يظهرن أجمل ما فيهن ويُخفين أقبح ما فيهن.

ومن وصاياهم لهنَّ أن يدارين المشايخ والنَّافري الطباع، ويستميلوهم ويتحببن الشباب ويمتنعن عليهم ليتمكنَّ من قلوبهم.

ومن ذلك ما يعتمدون في ملابسهم؛ فإنهم يلبسون الأبدان الخصبة البيض الغلائل الشفافة الخفيفة الكحلية والموردة والسَّوداء الغلائل والحمر والصفر، ويجرون الصناعة مجرى الطبيعة في كشف العقل بالمتضادات من ألوان الزهر.

وما يلزموهن به من تحمير خدودهن بالمساسح، وخضاب حواجبهن بالرامك وأطرافهن؛ فإن كانت الجارية بيضاء بالخضاب الأخضر، وإن كانت سوداء بالذهبي والأحمر، وإن كانت صفراء بالأسود.

ومن ذلك إلصاقهم الشعر المنقلب في العين بالمصطكيِّ والصَّمْغ العربيِّ أو أخذ الشعر بالمنقاش.

ومن ذلك ما يوصون به الجارية الناقصة اللون من إدامة دلك وجهها بيدها كل ساعة عند مغافلتها للجلساء؛ لينجذب الدم إلى وجهها فيحمر، ويأمرونها بتقريض شفتيها وامتصاصها كل ساعة حتى تحمر، واللواتي بهنَّ مبدأ الدِّقِّ يوصونهن بغسل أطرافهن بالماء البارد في النهار مرات كثيرة، وأن يظهرن أن ذلك منهُنَّ إنَّما هو من لمبالغتهن في النظافة.

* * *

الجملة الحادية عشرة في التزويج

وهي أربعة أبواب:

الباب الأوَّل من الجملة الحادية عشرة

في الصِّفات المحمودة من النِّساء[١]

الربجلة الضخمة على اعتدال، والسبحلة الضخمة الَّتي لم يشتها اللحم، والخميلة الوصية الَّتي بها مسحة من جمال الحسانة المليحة الَّتي تشبه بعضها بعض، والغانية الَّتي استغنت بجمالها عن الزينة، والمغطال الَّتي لا يبالى من حسنها تجلت، وتلبَّست أم لا، والوسيمة التي حسنها ثابت كأنه قد وسم، والقسيمة الَّتي قسم لها حظ وافر من الجمال، والرائعة الَّتي تروع المنظر إليها، والخَود الشابة الحسنة الخلق، والممكورة الدَّفقة المحاسن الممتلئة الجسم، والخُزعبة الحسنة القدِّ اللينة العصَب، والهيفاء، والقباء، والحمصانة اللطيفة البطن الممشوقة الخصر الممتدة القامة الوركانة العظيمة الوركين، والرداح العظيمة العجيزة، والخدلجة الممتلئة الساقين والذراعين.

والمزهزهة الَّتي ترعد من الغضاضة والنضارة، والرقراقة الَّتي كأن الماء يجري في وجهها من حسنها، والنَّضة الناعمة الرقيقة البشرة بيضاء كانت أو سمراء، والفيق الَّتي تعرف في وجهها نضارة النعيم والأنارة الوهنانة الَّتي كان فيها فتور عند القيام لسمنها، والهنانة الطيبة الروائح، العبهرة العظيمة الخُلق مع الجمال، والرودة السريعة الشباب، والغيلم الحسناء المرودة، العيطموس[٢] الحسنة الطويلة.

والعبقرة الجميلة الناعمة، الغيداء، والغادة المنثنية من اللين والنعمة الرشوف،

---

(١) انظر في هذا الباب «المخصص» لابن سيده (١/ ٣٠٠).

(2) العيطموس: التامة الجمال.

والطيبة الفم، اللعوب الضحوك، الفرعاء التامة الشعر، الدرماء التي لا تُرَى كُعوبُها لكثرة اللحم، والأملود الناعمة، والخريع اللينة مأخوذة من نبت الخروع، وهو كل نبت ليِّن، والسُّرعوفة الطويلة الناعمة، وكل ناعم سرعوف، والمرْمورة والمرمارة الَّتي ترتج.

والعطبولة الطويلة العنق، وكذلك العطبول، والعنطاء، والعنقاء الحمرة [والجهدة] (١) المرأة الخفية، الرخيمة المنخفضة الصوت، العروب، المحبة لزوجها، المتحببة إليه، النوار النفور لريبه، القَدور الَّتي تتجنب الأقدار من الأفعال الحسان، المرأة العفيفة الصناع، المعاملة الكفين، النثور الكثيرة الولد، البروك الَّتي تتزوج وابنها رجل، المُشِلة الَّتي تقوم على ولدها بعد موت زوجها ولا تتزوج.

ومن محاسن الحاجب الزجج، وهو دقة الحاجبين، وامتدادهما كأنهما خُطَّا بقلم، والملح وهو أن يكون بينهما فرجة، والعرب تستحب ذلك، ويكره القرن، وهو اتصالهما، والدَّعج شدَّة سواد العين مع سعة المقلة، البرح شدَّة سوادها وشدَّة بياضها، النحل شدَّة سعتها، الحور اتساع العين، الوطف طول أشفار العين، برد الأسنان واستوائهما وحسنها، المزيل حسن تصيدها واتساقها، والظلم المائية الَّتي تجري على الأسنان من البريق لا من الريق، الجيد طول العنق، الصباحة في الوجه، والوضاءة في البشرة، والجمال في الأنف، والحلاوة في العينين، والملاحة في الفم، والظرف في اللسان، والرشاقة في القد، واللباقة في الشمائل، وكمال الحسن في الشعر، الشمم ارتفاع قصبة الأنف مع استواء أعلاها، والقنا طول الأنف ودقة أرنبته، والدَّلف شُخوص طرفه مع صغر أرنبته، النهادي مشية المرأة السمينة والشيخ الضعيف والصبي الصَّغير، والاختيال والتبختر مشية المرأة المعجبة والرجل المتكبر.

وأحسن ما قيل في الحياء قول عبد الله بن الدُّمينة حيث يقول:

---

(١) هكذا بالأصل.

بِنَفسِي وَأَهلِي مَن إِذا عَرَضُوا لَهُ بِبَعضِ الأَذَى لَم يَدرِ كَيفَ يُجِيبُ

ولم يَعتَذِر عُذرَ البَرِيءِ وَلَم يَزَل بِهِ صَعقَةٌ حتّى يُقالَ مُرِيبُ[1]

وقال الشنفرى:

كَأَنَّ لَهَا في الأَرضِ نِسيًا تَقُصُّهُ إِذا ما مَشَت وإِنْ تكلمك تبلت[2]

يقول: كأن لها في الأرض شيئًا قد نسيته؛ فهي تقص أثره تطلبه لا ترفع رأسها ولا تتلفَّت، وإن كلمتها حارت، فلم تدر ما تقول لك.

وقال جرير بن عَطيَّة:

ما اِستَوصَفَ الناسُ عَن شَيءٍ يَروقُهُمُ إِلا أَرى أُمَّ عَمروٍ فَوقَ ما وَصَفوا[3]

وقال عبد الله بن المعتز:

كَمَّلَ الحُسْنَ وَالمُلاَحَةَ فِيها خالِقٌ هَزَّ غُصْنَها تَحْتَ بَدْرِ[4]

وقال آخر:

ما الحلي إلا زينة لنقيصة يتمم من حسن إذا الحسن قصَّرا

---

(١) البيت من الطويل، وهو لابن الدمينة في «الشعر والشعراء» ص (٨٣٠)، و«الأشباه والنظائر» ص (٤٣٠).

(٢) البيت من الطويل، وهو للشنفرى في «لباب الآداب» لأسامة بن منقذ ص (٥٦٠)، و«محاضرات الأدباء» ص (٣١٦٠).

(٣) البيت من البسيط، وهو لجرير في «التذكرة الحمدونية» ص (٣٢٩١)، و«الزهرة» ص (١٦١).

(٤) البيت لابن المعتز في «أشعار أولاد الخلفاء وأخبارهم» للصولي ص (٣٩٩).

وأمـــا إذا كـــان الجـــمال مـــوفرًا كحـسنك لم يحـتج إلى أن يـزوروا[1]

وقال المتنبِّي:

نَشَرتْ ثَـلاثَ ذَوائِـبٍ مِـن شَـعرِها في لَيلَـــةٍ فَـــأَرَت لَيـــالِيَ أَربَعًـــا

وَاسـتَقبَلَت قَمَـرَ الـسَّماءِ بِوَجهِهـا فَـأَرَتنِيَ القَمَـرَينِ في وَقـتٍ مَعـا[2]

وقال عليّ بن محمد التهامي:

لَو لَم يَكُن أُقحُوانًا ثَغرُ مَبسِمِها مـا كـانَ يَـزداد طيبًـا سـاعَةَ الـسَّحرِ

يَحكي جنا الأُقحوان الغـضّ مَبـسِمُها في اللَّون وَالـريح وَالتَّفليـج وَالأَشَرِ[3]

وقد أحسن أبو تمام في قوله:

هِـيَ الـشَّمس يُغنيهـا تَـوَدُّدُ وَجهِهـا إِلى كُـلِّ مَـن لاقَـت وَإِن لَم تَـوَدَّدِ[4]

***

(١) البيت لابن الجوزي في «نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب» للمقري التلمساني ص (٥٢٦٣).

(٢) البيت من الكامل، وهو للمتنبي في «الوساطة بين المتنبي وخصومه» لأبي الحسن الجرجاني ص (٢٣٣)، و«ديوان الحماسة» لابن أبي حجلة ص (٤٩٦).

(٣) البيت من البسيط، وهو للتهامي في «التذكرة الفخرية» ص (٦٣)، و«سر الفصاحة» ص (٤٦٩).

(٤) البيت من الطويل، وهو لأبي تمام في «أخبار أبي تمام» للصولي ص (٢).

الباب الثاني من الجملة الحادية عشرة
في الصِّفات المذمومة من النِّساء

[المفاسة][1] الَّتي زاد لحمها في حَدٍّ ما يكره، والعفضاج الَّتي أفرط سمنها في استرخاء البطن، العَرَكْرَكَة كثيرة اللحم المضطربة الخلق، الرَّسحاء، والزَّلاء الَّتي ليس لها عجيزة، وكذلك الرَّصعاء، والمرلاج المطرطبة الطويلة الثديين في استرخاء، الجداء القصيرة الثديين جدًّا، القبيضة، والحنكلة والبهصلة القصيرة الذميمة، العقلق والرطوم الرديئة الخلق، اللَّخناء المنتنة الريح، ويقال لحر السعاء إذا تغير ريحه.

الضَّهياء الَّتي لا تحيض، وقيل: الضَّهياء الَّتي لا ثدي لها، و[الصعدة] الَّتي تنبت، والدبيبة الَّتي يسيل أنفها، والحقور الَّتي تنعس، والقوم يتحدثون، واللَّفوت الَّتي لها أولاد من أزواج شتى، والصيود الَّتي إذا وضعت يدك عليها وجدتها عظامًا، والزلقاء الَّتي لا يستطاع بضاعها، والسليطة الحديدة اللسان؛ فإذا زادت سلاطتها صارت سلقانة.

والسلعفة البذيئة الفاحشة، والفارك والناشر المرأة تبغض زوجها، والفقرة القليلة اللحم، والعنعص البذيئة القليلة الحياء، والمجعة الَّتي تتكلم بالفحش، والرصوف الصَّغيرة القدح، والمبداص الخفيفة الطيَّاشة، والكرواء الدقيقة الساقين، والسَّكعة الحمراء اللون، والصهصلق الشديدة الصوت المهراق الكثيرة الضحك، الزعر قليلة الشعر، والزبب كثيرة الحاجبين والقرن اتصالهما وهو مكروه، المرط والمَعِط تساقط الشعر من بعض أجزائهما.

الخور غور العينين مع ضيقهما، الستر انقلاب الجفن، الحرر أن ينظر بمؤخر

---

(١) هكذا بالأصل.

عينيه، والعضران يكسر عينيه حتى بعض جفونه، القيل يكون كأنه ينظر إلى أنفه، وهو أهون من الحول، والحول أنْ تراه كأنَّه ينظر إليك، وهو ينظر إلى غيرك، والحفش صغر العينين وضعف البصر، والجهران لا يبصر بالنهار الروف طول الأسنان، الكشش صغرهما، الثعل تراكبهما وزيادة شرفيها، واللصص شدَّة تقاربها، والشفاء اختلاف منابتها.

واليَلَل[1] إقبالها على باطن الفم، الفقم تقدم السفلى على العليا، والفلج صفرتها، والطراسة خضرتها، القِعم اعوجاج الأنف، العوكل والحومل والدوسر، والحد على كل ذلك المرأة الحمقاء، والمرأة المراسل الَّتي قد مات عنها بعلها أو طلقها، واللَّفوت الَّتي لها زوج، ولها ولد من غيره؛ فهي تلتفت إلى ولدها، العانس تعجز ولا تتزوج، والطلقة الَّتي لا تحظى من الأزواج.

***

(١) أي: قصر الأسنان.

الباب الثالث من الجملة الحادية عشرة

فيما يوصَى الرجل المزمع على التزويج

اعلم أنَّه لم يفتتن النَّاس بشيء افتتانهن بالنساء فكم مِن ملك منيع السلطان جعله الهوى ذليلاً خاضعًا، وكم من أبِيٍّ كميٍّ أصاره العشق والطمع في الجماع إلى الهوان، وكم من زاهدٍ أفسدن عليه وقته، وعالمٍ مكين جللنه العار، وذي شرفٍ هدَمن شرفه، ولذلك خص باستحقاق اسم الزُّهد من زهد فيهن كأئمة النصارى والمترهبة وبراهمة الهند.

والتزويج مكروه إلا لمن له امرأة ناصحة من أهله لحفظ الزوجة وتراقبها؛ فأمَّا أم الزوجة، فليست بأمينة على حفظ بنتها، وطالما تطلع البنت على عَهَر من أمها، فتضطر أمها إلى مهادنة البنت بتمكينها مِمَّا تؤثر، ورُبَّما فتحت لها بابًا، وألزمتها بالفجور، وأكرهتها عليه فكيف لها بصيانتها إذا حملتها الحمام، وأوقفت لها طريقها من يعاشرها، وينفذ لها اللؤلؤ والذهب والطِّيب والأطعمة عند خروجها إلى الفُرج والزيارات.

وبالجملة فالنساء بين مفسدة بالقوة ومفسدة بالفعل؛ فالمفسدة بالفعل هي الَّتي تمرنت على القبيح، والتي بالقوة مستورة، ولكن هي مستعدة؛ لأنَّ تلوِي وجهها عن الصيانة، ولا تظن أن هذه صفة لأدوان النِّساء وبنات الفقراء بل ذوات النِّعَم الجمَّة البَطِرات، وأسر التَّنعم والخفض والدِّعة هنَّ المستعدَّات، ولو سَلِمت الواحدة من رَبَّات التَّنعم من آفات خاطرها وكفيت نفسها؛ لكانت دارها لا تخلو من أرمنية شبقة، وحبشية قوَّادة، ومولدة عربية تسلس لها قياد الصعب الجموح بكلامها الَّذِي تلقيه بين يديها حتى تتمشحر بحضرتها، وتمد صوتها بأصوات غناء من أشعار العشاق، وتتواجد عند ذكر الفراق، وتصرخ وتدَّعي العشق بين يدي مولاتها إذا أنِست منها دماثة خُلُق

هذا غير من يغشى الدَّار من الفقيرات الخادمات والعجائز الَّتي زيَّنَّها، وأقبلن أمها حين ولدتها، ومن يزورها من الفقيرات والعالمات الَّتي تقياد بهنَّ في القيادة، ويُطعن على النِّساء ليعلمهن السحق والنشوز، هذا غير من ترى من مماليكها وغلمان أبيها الَّذِين ربّوها، وطالما أمنوا عليها وخلوا بها.

وأمَّا مقرئ الدار؛ فلا سبيل إلى إنكار حضوره، هذا إذا سلمت من جار مراقب أو أمرد قد أعجبها من أقاربها؛ فإذا وصلت المرأة سليمة من هذه الآفات؛ فهي بمعرض أنْ تميل بها عنه امرأة تخلو بها أو نظرة تحير منها، وقد صارت إلى بعضه.

فلا ينبغي لعاقل التزويج إلا أنْ يعدَّ لنفسه مخرجًا من الأمر الَّذِي دخل فيه، وذلك ألا يكتب عليه صداقًا إلا وقد أعدَّه؛ فإن اتفقت الأخلاق ورضيها، وإلا يشتري نفسه من العذاب بالمهر، وقيل: الوصية وكل الوصية المهمة ألا يتزوج بمن لم يرها عدة مرات، ويسمع كلامها، ويراها من قريب، ويجرب سترها متوليًا ذلك بنفسه، ويكره الرسول في هذه الأحوال، ولا يؤمن إلى رجل في الابتعاث عن المرأة في خير ولا في شرٍّ، ولا يعتمد العاقل على رسول غير نفسه في هذه الأحوال، ولا بأس بالرجل الشيخ المختبر الطريقة.

أنفذ بعض أمراء العرب رجلاً من بني عمه ليخطب امرأة له، فرآها الرسول، فهواها فعاد إليه، وقال: لا تريدها أيها الأمير، قال: ولم؟ قال: لأني رأيت رجلاً يقبِّلها فأضرب عنها، فمضى ذلك الرسول؛ فتزوجها، فلما بلغ صاحبه استدعاه، وقال له: ويلك ألم تقل أنك رأيت رجلاً يقبِّلها؟ قال: بلى، أصلح الله الأمير، رأيت أباها يقبلها؛ فضحك، وعجب من حيلته.

وأمَّا من يعجز حاله عن الصداق؛ فسبيله أن يقتدي بالمغاربة؛ فإن أحدهم إذا

كتب على نفسه خمسون دينارًا صداقًا كتبها مؤجلة في كل سنة دينارًا، وما سبيل أحد من الفقراء يعدل عن مذهب المغاربة في هذا.

واعلم أن من يتزوج امرأة ذات أبوين باقيين وإخوة؛ فقد اتخذ لنفسه منهم أعداء وخصومًا بالقوة، وذلك أنهم بصدد الاستعداد لذلك متى أغضبها، ولا بدَّ من إيثارها أهلها عليه لقديم تمكن إلفها لهم وحقهم عليها، والمغرور المخدوع يصدقها إذا حلفت له أنَّه أحب إليها من أمها وأبيها وإخوتها، وإن تصورت هي أيضًا أن زوجها آثر عندها، فذلك لما قد غلب عليها في عاجل الحال من الانتفاع به، ومتى تشاققا واختلفا في أمر زالت الشبهة وظهر الميل إلى الأهل.

فأمَّا نقلها عن أهلها ففي النادر أن يتهيأ له بغير خصومات وعداوات وخسارات، وأكثر المقيمين في بيت حميِّهم لا ينفكون عن الغيظ والقوارض، وإن نقلها وقع في مشقة الاحتياط عليها وبعدها من السلامة، وكيف يمكن حفظها من الخدَّامة.

وأمَّا اليتيمة الخالية عن الأهل؛ فقلما توجد سليمة من الفساد إن كانت صغيرة، والمتزوج بها يحتاج أن يجعل نفسه معلمًا لها، وسبيل العاقل ألا ينكح الصَّغيرة، وهي الَّتي لها دون أربعة عشر سنة؛ لأنَّها بمعرض أن تعرض ألمًا لافتضاض في قبلها بغضة؛ لأنَّ الصَّغيرة لا يتكامل أخذ عذرتها في مرة واحدة إلا بإمساك شديد أو بأن توثق كتافًا، وذلك مِمَّا يبقى له في النفوس الأثر الخبيث، وإذا استراح الثاني بها من ألم افتضاضها، واندملت الجراحة؛ فجامعها ضارٌّ؛ لأنَّ المكان الَّذِي يلج فيه الإحليل منها يكون صغير، لا يستوعب الإحليل جميعه إلا بشدة الدفع، فيكون فم الإحليل عند تزريق المَنِيِّ مماسًّا لصدر الرَّحِم، فلا يكون للمني فضًّا يخرج إليه؛ فهو إذا يخرج قليلاً قليلاً، فينعكس بعضه راجعًا في مخارير؛ لأن الدفع القوِي يوجب نكص المدفوع إذا لم

يصادف مذهبًا يندفع إليه، فيضر ذلك بآلات المَنِيِّ، وإن كان المَنِيُّ حادًّا، فرُبَّما سحح المجرى وأعقب ضررًا؛ فذلك لا يصلح جماع من لا يكون رحمها إذا استوعبت الإحليل بأسره، لم يصل قعر يضغط المَنِيّ عن سرعة الخروج.

وكثير ما تعجز نفس القادر على الباءة عند افتضاض الصَّغيرة؛ إما لصلابة عذرتها، وقوة شفرتها، أو لأنه إنَّما يتمكن أنْ يجلس منها جلوس المفض بمزاولة عناء وغيظ لا يلبث أن يرخي الحاسَّة.

وأكثر النَّاس تسترخي آلتهم عند مباشرة عناء أو غيظ، وينقطعون بذلك عن الباءة، فلا يستطيعون وطء الثيب فضلاً عن البكر، فيظن بالرجل عند ذلك أنَّه عنين، ورُبَّما ساء ظنه بنفسه، فتراه في شغل من الفكر فيما دهاه من أمرها، فيضطر إلى إلزامها بطلي شفريها، مِمَّا يرخي العذرة ككدر الزيت العتيق، وهو في حاله مرحوم.

ومن النَّاس من يتزوج الصَّغيرة عازمًا على ألا يطأها إلى مدة، ورُبَّما التزم لأهلها ذلك واشترطوه، فيقع المسكين عند مداعبتها في الإنعاظ الَّذِي كلما جاء يقوى ويشتد ويلج المَنِيُّ في أنثييه، ويضرب عليه قويًّا شديدًا، فلا يقدر على راحة، إن لم يمكنه وطء غيرها إلا أن يقرع إلى جلد عميرة.

ومن النَّاس من يتهود في تزويجه؛ فيخطب المرأة المموَّلة ذات النعمة واليسار والثروة، ولا طاقة له بمهر مثلها فيبادر، ويحصل عليه بالعهد صِداقًا، لا ينهض به معتقدًا لفرط عجبه بشبابه أن المرأة لا محالة أنَّها تعشقه، وتنفق عليه شطر مالها، وتبرئه من صداقها لا سيما إن وعده أهلها أو وعدته بذلك، وأرسلت إليه توهمه أنَّها إنَّما تُريدُ إكثار كمية الصداق التجمل على أترابها وأقاربها؛ فهذا المنخدع المغرور هو الَّذِي لا يسقط عنه من الصداق درهم واحد.

ومن النَّاس من يبلغ الحمق إلى إقراض مبلغ من الدَّين يصدق المرأة بعضه وينفق بعضه على عرسها، وأعرف جماعة خسروا لطمعهم مالاً على عجائز ممولات، ولم يحصلوا من أموالهن على غير الطمع الفارغ، ولا أفاده ذلك سوى العناء.

ومن آداب المفتض للبكر: إعداد الماء والجُلاب أو شراب التفاح الحلو أو شراب الأترنج حتى إذا بنى بها قوِي قلبها عَقِيب ذلك بشربه، ولا ينبغي للرجل أن يثير عجبه ما تظهره المرأة؛ فإنهن أشدُّ خلق الله قدرة على إخفاء البغضة عن الرجال السنين الطويلة، وتعاشرهن معاشرة الكَلِفات المشغوفات بهم، وينطوين من بغضهم على ما لا يمكن شرحه.

ذكر أبو عمر الشيباني أن عروة بن الورد أصاب امرأة من كنانة بكرًا، يقال لها: سلمى، وتكنَّى: أم وهب فاعتقها، واتخذها لنفسه، فمكثت عنده سبع عشرة سنة، وولدت له أولادًا، وهو لا يشك أنَّها أرغب النَّاس فيه، وهي تقول له: لو تحججت لي، فأمُرُّ على أهلي، وأراهم، فحج بها، وأتى مكة ثم أتى المدينة.

وكان عروة يخالط من أهل يثرب بني النَّضير، فيُقرِضونه إذا احتاج، ويبايعهم إذا غنم، وكان قومها يخالطون بني النضير، فأتوهم وهو عندهم، فقالت لهم سلمى: إنَّه خارج قبل أنْ يخرج الشهر الحرام، فتعالوا إليه، فأخبروه أنكم تستحيون أنْ تكون امرأة منكم معروفة النَّسب صحيحته سبيةً، وافتدوني منه بدلاً؛ فإنه لا يرى أني أفارقه، ولا أرى أختار عليه أحدًا؛ فأتوه فسقوه الشُّراب.

فلما ثمل قالوا له: فادنا بصاحبتنا؛ فإنها وسيطة النسب فينا معروفة، وإن علينا سُبة بأن تكون سبيةً؛ فإذا صارت إلينا وأردت معاودتها، فاخطبها إلينا؛ فإننا ننكحك، فقال لهم: ذاك لكم، قال: دعوني ألهو بها الليلة وأفاديها غدًا.

فلما كان من الغد جاءوه، فامتنع عن فدائها؛ فقالوا له: قد فاديتها منذ البارحة، وشهد عليه جماعة مِمَّنْ حضر، فلم يقدر على الامتناع، وقادوها فلما فادوها خيروها فاختارت أهلها ثم أقبلت عليه، وقالت: يا عروة، إني أقول قبل فارقك الحق، والله ما أعلم امرأة من العرب ألقت سترها على بعل خير منك أغض طرفًا، وأقل فحشًا وأجود يدًا، وأحمى لحقيقة، وما مرَّ عليَّ يومٌ منذ كنت عندك، إلا والموت أحب إليَّ من الحياة بين قومك؛ لأني لم أكن أشاء أن أسمع امرأة من قومك، تقول: قالت أمة عروة كذا وكذا إلا سمعته، والله لا أنظر في وجه غطفانية أبدًا؛ فارجع راشدًا إلى ولدك، وأحسن إليهم.

فقال عروة في ذلك:

أَرِقْتُ وَصُحبَتي بِمَضيقِ عُمقٍ ... لِبَرقٍ في تِهامَةَ مُستَطيرِ

سَقى سَلمى وَأَينَ دِيارُ سَلمى ... إِذا حَلَّت مُجاوِرَةَ السَّريرِ

إِذا حَلَّت بِأَرضِ بَني عَلِيٍّ ... وَأَهلي بَينَ زامِرَةٍ وَكيرِ

ذَكَرتُ مَنازِلاً مِن أُمِّ وَهبٍ ... مَحَلَّ الحَيِّ أَسفَلَ ذي النَّقيرِ

وَأَحدَثُ مَعهَدٍ مِن أُمِّ وَهبٍ ... مَعَرَّسُنا بِدارِ بَني النَّضيرِ

وَقالوا ما تَشاءُ فَقُلتُ أَلهو ... إِلى الإِصباحِ آثَرَ ذي أَثيرِ

بِآنِسَةِ الحَديثِ رُضابُ فيها ... بُعَيدَ النَّومِ كَالعِنَبِ العَصيرِ

سَقَوني النَّسءَ ثُمَّ تَكَنَّفوني ... عُداةُ اللَهِ مِن كَذِبٍ وَزورِ

فَيـــا لله كَيـــفَ غَلَبـــتُ نَفـــسي عَـــلى شَيءٍ وَيَكرَهُـــهُ ضَـــميري[1]

قال: وكان أيمن بن فاتك الأَسَدِيُّ شيخًا أعورًا برص، وكان له امرأة من بني كلب ذات دين وحسب؛ فبينما هو نائم معها نصف النهار في يوم حار إذ استيقظ، والعرق يجري بينهما، فقال في نفسه: ما في الأرض أشدُّ حبًّا لزوج من هذه، فقال لها: أتحبينني؟ قالت: أنكرتَ شيئًا؟ قال: لا، ولكن أحببت أن أكون على يقين، قالت: نعم، إني لأحبك، قال: آلله؟ قالت: سألتني بعظيم، وأكره أن أصدقك فتغضب، قال: لا، إني لا أغضب، قالت: لو كنتُ برصاء شمطاء عوراء كنتَ تحبُّني؟ وكان أيمن كذلك؛ فقال لها: الحقي أهلك، فقالت: أنت الذي جنيت هذا.

وقيل: ثلاثة من الفواقر[2]: زوجة إن دخلتْ لم تسرك، وإن خرجتْ لم تحفظ عليك، وجار إن أحسنت ستر، وإن أسأت أذاع، ورئيس إن نصحت لم يشكر، وإن أسأت لم يصفح[3].

وقال المغيرة لأعرابي: أخبرني عن النساء، فقال: النساء أربع: ربع مُربَّع، وجمع تجمع، وشيطان سمعمع، وغُلٌّ لا تُخْلَعْ، فقال: فَسِّر.

فقال: أمَّا الربع المربع: فالتي إن نظرت إليها سرتك، وإن أقسمت عليها أبرتك، وأما التي هي جمع تجمع: فالمرأة التي تتزوجها ولها نسب؛ فتجمع نسبك إلى نسبها، وأما الشيطان السمعمع: فالكالحة في وجهك إذا دخلتْ ، والمخالفة إذا

---

(١) الأبيات من الوافر، وهي لعروة بن الورد في «الأغاني» (٣/ ١٦١٨)، و«منتهى الطلب من أشعار العرب» لابن المبارك ص (٥٩٣).

(٢) الفواقر: الدواهي.

(٣) انظر: «بهجة المجالس» لابن عبد البر ص (١٧٥٥).

خرجتْ، وأما الغل التي لا تخلع: بنت عمك السوداء القصيرة، قد نشرت لك بطنها، إن طلقتها ضاع ولدك، وإن أمسكتها؛ فعلى جذع أنفك.

وقال رجل لابنه - وقد أراد الزواج: إياك والرقوب، الغضوب، القطوب، العلياء، الرقباء، اللفوت، الشوساء، الأنانة، الحنانة.

واعلم أن من النساء: جماعًا تجمع، وربيع تربع، وخروج مطلع توهي الخرق ولا ترقع، الرقوب: هي التي تراقبه حتى يموت فترثه، والعلياء الرقباء: الغليظة الرقبة، اللفوت: التي لا تثبت عينها في موضع واحد، وإنما همها أن تغفل عنها، فتغمز غيرك، الشوساء: الهشاشة النظر من التيه، الأنانة: التي تأن على زوج كان لها قبلك؛ فهي تذكره بالتحزن، والحنانة: التي لها أولاد من غيرك؛ فهي تحنو عليهم، وتحن إليهم، والمنانة: التي جاءتك بمالها؛ فهي تمن به عليك.

ومما ينبغي للرجل تصوره واعتقاده أن المرأة لا تصفو له، ولا تحبه إذا تزوج بغيرها، ولا سيما إذا انحرف بوجهه عنها، وأيست من انصلاحه معها، ولا بحالها ترضى بذلك إذا أوهمته أنها ترضى بذلك، ولا تغار منه، وفيهن من تسعى لتزويج زوجها، وتشير عليه بشراء من يستعرض من الجوارِ، ثم تغلب عليها الغيرة الكامنة؛ فتظهر.

قال ابن المقفع: اكفف عليهن أبصارهن، فإن استطعت ألا يبصرن غيرك فافعل؛ فإن شدة الحجاب أيسر عليك من الأتياب.

ومن آداب التزويج: ألا يكثر من الجماع في أول الأمر ثم ينقطع بل يبتدئ بما يمكنه الدوام عليه، وإياك والتغاير في غير موضع الغيرة؛ فإن ذلك يدعو الصحيحة

مُنهُنَّ إلى السَّقَم، وإذا تبين الرجل من المرأة فساد طبع، وميلاً إلى تمنِّي غيره؛ فلا دواء لذلك غير البعد عنها.

قال الأضبط بن قريع في زوجته، وطلَّقها:

لَـو أَنَّ ضـيفًا جـاء يومًـا مـسلِّمًا عَلَيها لَرامَت وَصلَهُ وَهوَ واقِفُ[1]

وقال أبو العتاهية:

يـا عتـبُ لمْ أهجـركم لملالـةٍ عرضـتْ ولا لمقـال واشٍ حاسـد

لكننـي جـرَّبتكم فوجـدتُكم لا تـصبرون عـلى طعـام واحـد[2]

وقال آخر:

أراك طمـوح العَـينِ ميالَـة الهَـوى لِهـذا وَهـذا مِنـكَ ود ملاطِـف

فـإن تحمـلي ردفـين لا أكُ مِـنهُما فَحُبّـي فَـرد لَـست مِمَّـن يُـرادِف[3]

وقال إبراهيم بن المهدي في دقاق جارية يحيى بن الرَّبيع:

عـدمتك يـا صـديقة كـل خُلـقٍ أكُـلَّ النَّـاس ويحـكِ تعـشقينا

فكيـف إذ خلطـت الغَـثَّ مـنهم بلحـم سـمينهم لا تبـشُمينا[4]

وقال جميل بن معمر، وبلغه أن بثينة تميل إلى حجة الهلالي:

---

(١) البيت من الطويل، وهو للأضبط بن قريع الأسدي في «الأغاني» (١٨/ ١١٨٩٣).

(٢) البيتان للعباس بن الأحنف في «الزهرة» لابن داود الأصفهاني ص (٣٣٣)، و«الأغاني» (١٨/ ١١٨٩٣).

(٣) البيتان من الطويل، وهما لنصيب بن رباح «الزهرة» ص (٣٣٢)، و«الأغاني» (١/ ٥٨٣).

(٤) البيتان من الخفيف، وهما لإبراهيم بن المهدي في «نهاية الأرب في فنون الأدب» ص (٣٠٨٦)، و«الأغاني» (١٢/ ٨١٤٧).

وَلا تَجعَلينـي أَسـوَةَ العَبـدِ وَاجعَـلي مَـعَ العَبـدِ عَبـدًا مِثلَـهُ وَذَرينـي[1]

رأيـت بعـين اليقـين فـما الـذِي يُغمِـي عـلى عَينـيَّ بعـد يقينـي

وقال أيضًا:

لَحَـا اللهُ مَـن لا يَنفَـعُ الوَعـدُ عِنـدَهُ وَمَـن حَبلَـهُ إِن مُـدَّ غَـيرُ مَتـينِ

وَمَـن هُـوَ ذو وَجهَـينِ لَـيسَ بِـدائِمٍ عَـلى العَهـدِ خَـلافٌ بِكُـلِّ يَمـينِ[2]

وقال أيضًا:

بُثَينَـةُ قالَـت يـا جَميـلُ أَرَبتَنـي فَقُلـتُ كِلانـا يـا بُثَـينَ مُريـبُ

وَأَريَبُنـا مَـن لا يُـؤَدّي أَمانَـةً وَلا يَحفَـظُ الأَسرارَ حـينَ يَغيـبُ[3]

وقال أيضًا:

وَإِنّي لأستَحيِي مِـنَ النـاسِ أَن أُرى رَديفًـا لِوَصـلٍ أَو عَـلَيَّ رَديـفُ

وَأَشرَبَ رَنقًـا مِنـكِ بَعـدَ مَـوَدَّةٍ وَأَرضى بِوَصلٍ مِنكِ وَهُـوَ ضَـعيفُ

وَإِنّيَ لِلـماءِ المُخـالِطِ لِلقَـذى إِذا كَثُـرَت وُرّادُهُ لَعَيـوفُ[4]

وكتب بعضهم لما استُشار في التزويج: البكر لك، والثيب عليك، وذات الولد فلا تقربها.

---

(١) البيت من الطويل، وهو لجميل بن معمر في «خزانة الأدب» ص (٥٠٦٠).

(٢) البيتان من الطويل، وهما لجميل بن معمر في «ديوان المعاني» ص (٣٦٨)، و«بهجة المجالس» لابن عبد البر القرطبي ص (٨٠٣).

(٣) البيتان من الطويل، وهما لجميل بن معمر في «الحماسة المغربية» ص (٥٠٩).

(٤) الأبيات من الطويل، وهي لجميل بن معمر في «وفيات الأعيان» لابن خلكان ص (٦٧٠).

وقال آخر:

تقـــول لمـــا استـــصغفته البأســـا ليت على سرجي سواك فأرسا

وكتب بعض أصدقاء أبي العتاهية يشكو امرأته إليه؛ فكتب أبو العتاهية يقول:

رأيـــتَ أثاثَهـــا فرَغِبـــتَ فيـــهِ وكـــم نـــصبَت لغَـــيرِكَ مـــن أثـــاثِ

إلى دارِ المنـــــونِ فجهَّـــــزَتهُم تحُـــــثُّهُم بأربَعَـــــةٍ حثـــــاثِ

فـــصيِّر أمرَهـــا بيَـــدي أبيهـــا وسَرّج مـــن حبالِـــكَ بـــالثلاثِ

وإلا فالـــــسلامُ علَيـــــكَ منِّـــــي ســـأبدَأ مـــن غـــدٍ لـــكَ بـــالمَراثي[1]

وأشدُّ ما ينبغي للرجل حفظ النساء منه الحاشية، والخدم، والغلمان، وألا يكون احترازه من ذوي الوجوه الصبيحة، والقدود الرشيقة، وألا يعتمد بذميم يظهر من النساء استقذاره، ولا بأسود يشتد من استهاجه، ويَدَّعِينَّ الفزع من سواده، ولا بغلام يكثرن سبه، ويغلظن له، ويظاهرن بغضه، فكثير منهن يجعلن هذا طريقًا إلى نفي الظن عنها.

فالغلمان الصغار المراهقون طالما أدخلوهم النساء عليهن بمحضر من أزواجهن، يظهرن أنهم ليسوا ممن يُعْبَأ بهم لصغر سنهم، ولا سيما إذا كان الغلام قد تربى في دار المرأة مُذ كان طفلاً، فإنه لا ينكر دخوله عليها إذا كبر، وبلغ أشده، وكذلك الغلام الذي قد ربي مع الصبية مُذ كانت صغيرة؛ فإنهما ربما كانا إذا خليا كما قال الشاعر:

---

(١) الأبيات من الوافر، وهي لأبي عيينة المهلبي في «التذكرة الحمدونية» ص (٣١٧٥)، و«بهجة المجالس» ص (١١٦٥).

وخَلَـــتْ بـــالغلام تأكلُـــه لـــثمًا وضـــمًّا ففـــضَّ ريـــق بريـــق

مـــن بعيـــد الغـــروب أمـــست وأمـــ ـــسى في إعـــلام المـــضل الـــشروق

وذلك أن ألذَّ ما كان الفحل متعةً عند طراق ماشيته، وقرب عهده بالبلوغ، وحينئذٍ يكون أشد ملائمة للمرأة؛ لطيب نكهته، وطيب عناقه، وتقبيله، وشدة شبقه، وعظيم غُلْمَتِه، وكثير من الغلمان ترى أحدهم متغير المنظر، ويخال من أبناء إحدى عشرة أو اثنتي عشرة سنة، ويكثر ظني عليه ست عشرة سنة أو سبع عشرة.

ورُبَّما كان صغير القدِّ، ذميم الشكل، وله إحليل دائم الصَّلابة، وافر المعدات، فأمَّا إذا لبس الغلام الأمرد المراهق زى الجواري واختلط بجملتهن؛ فإن تمييزه مِمَّا يعسر، وكم قد قضين المنعمات أوطارهن بهذا الطريق.

قال أبو العلاء أحمد بن سليمان المعرِّي:

إذا بَلَـــغَ الوَليـــدُ لَـــدَيكَ عَـــشرًا فَـــلا يَـــدخُل عَـــلى الحُـــرَمِ الوَليـــدُ

فَـــإن خـــالَفتَني وَأَضَـــعتَ نُـــصحي فَأَنـــتَ وَإِن رُزِقـــتَ حِجًـــا بَليـــدُ

أَلا إِنَّ النِّـــساءَ حِبـــالُ غَـــيٍّ بِهِـــنَّ يُـــضَيَّعُ الـــشَّرَفُ التَّليـــدُ[1]

وأهم ما يوصَى به الرجل، حفظ سره وطيَّه عن المرأة؛ فكم قد هلك بهذا في قديم الزمان وحديثه.

استعمل عمر بن الخطاب ﷺ ابن مطيع على الكوفة، ودفع إليه عهده، وقال له: لا تخبرنَّ أحدًا، فذهب إلى امرأته، فقال لها: إن أمير المؤمنين قد استعملني على الكوفة، فاستعدِّي لي بأداة الراكب فبعثت إلى أختها، وهي تحت المغيرة بن شعبة،

(١) الأبيات من الوافر، وهي لأبي العلاء المعري في ديوانه من قصيدة البيت الأول مطلعها.

فقالت لها: إن زوجي قد استُعمِل على الكوفة؛ فابعثي لي أداة الراكب، فلما جاء المغيرة أخبرته الخبر، وأتى عمر نصف النهار، وقد تهيأ للمقيل؛ فقال للبوَّاب: استأذن لي على أمير المؤمنين، فأبى، فقال: استأذن لي، ولك أربعمائة درهم، فاستأذن له، وكانت أول رشوة في الإسلام؛ فأذن له ودخل عليه، فقال: وفقك الله يا أمير المؤمنين، لقد استعملت قويًّا أمينًا، قال: ومن هو؟ قال: ابن مطيع استعملته على الكوفة، قال: ويحك من أخبرك؟ قال: السَّقَّايات تحدَّثن في الطريق؛ فقال عمر للمغيرة: فهل عندك خير؟ قال: نعم، قال: فاذهب، وخذ العهد منه، ثم اذهب إلى الكوفة.

وسبيل العاقل ألا يغترَّ بمن تظهر له قلَّة الرَّغبة في الباءة، وتوهمه أن المرأة لا تجد شهوة لقرب الرجال؛ فكثير مِمَّنْ هذه صفتهن، لا تخلو بنفسها، إلا وتتمنى العهر وما دونه.

عن عبد الله بن أبي بكر قال: سمع عمر بن الخطاب ﷺ ليلاً امرأة تنشد هذه الأبيات:

تطـاول هـذا الليـل واسـودَّ جانبـه وأرَّقنـي أن لا خليـل ألاعبـه

فـوالله لـولا الله لا شيء غـيره لحـرَّك مـن هـذا السَّرير جوانبـه

مخافـة ربِّي والحيـاء يكفُّنـي وإكـرم بعـلي أن تُنـال مراكبُـه[1]

فسأل عمر: كم تصبر المرأة عن زوجها؟ فقيل له: تصبر ستَّة أشهر، فقال: «**إن ذاك من الحَصَان لصبرٌ جميل**».

---

(١) الأبيات من الطويل في «الأمالي» لليزيدي ص (١٤٥)، و«الأوائل» لأبي هلال العسكري ص (٦٤٥).

وسبيل العاقل إذا ظَفر بامرأة توافقه وترضيه، ألا يسمح لها طاعة لوالد أو غيره متوهمًا ألا يقدر على غيرها مثلها؛ فإن هذه الغلطة قد فسد بها عيش خلق كثير، ولا ينبغي أن تولِّي امرأة نفسها، ولا أن يوَلَّى غيرُك أمرها.

خطب السلطان طغرليك ابنة أمير المؤمنين القائم بالله، والرسول في ذلك وزيره الكندري، وحضر ديوان الخلافة لأخذ البنت كرهًا، وتراجعوا في الحديث، وكتب بذلك رقعة إلى القاهر بأمر الله؛ فوقَّع على ظهرها هذه الأبيات:

مـع الـدينِ أَنـتم يـا بنـي عـمِّ أَحمَـدٍ فلـيس لكـم حتـى يـزول زوالُ
فـإن تـك دارت للعـدو عليـكم رَحًـا أنـتم قُطْـبٌ لهـا وثِقَـالُ
فكـم مـن جبـالٍ قـد عـلا شَـعفاتَها رجـالٌ فزالـوا والجبـالُ جِبَـالُ[1]

فلما قرأ الكندري ما كتب به، بكى ووجم لذلك وانصرف، وكتب إلى السلطان طغرليك بما جرى، فلم يعاوِد في ذلك.

وخطب خالد بن صفوان امرأة من بني سعد؛ فقال: أنا خالد بن صفوان، والحسب كما علمتِ، والمال كما بلغكِ، وفيَّ خصالٌ أُخبرُكِ بها لتقدمي على معرفة، إنه لا سبيل إلى دينارِي ودرهمي، وأنا ملول، فرُبَّما أتت عليَّ ساعة لو أن رأسي في يدي لطرحته؛ فقالت: قد فهمتُ ما ذكرت، وهذه الخلال ما كانت لترضاها بعض بنات إبليس، فكيف بنات آدم؛ فارجع موفورًا.

وتزوج معاوية بن مروان بن الحكم امرأة من كلب، وهي بنت خال مصعب

---

(١) الأبيات من الطويل، وهي لابن نباتة السعدي في ديوانه من قصيدة مطلعها:

بـــأَيَّ مَهُـــوْلٍ في الزَّمـــانِ أُهَـــوِّلُ وفي مـــن أَمـــيرِ المـــؤمنينَ مَـــثَلُ

ابن الزبير، فبنا بأهله ثم جاء أبوها فيما بعد يسلِّم على ابنته؛ فقال له معاوية بن مروان وعنده جماعة من النَّاس: يا فلان ما لقينا من ابنتك؟ قال: وما ذاك؟ قال: ملأتنا دمًا، قال: يا أحمق! إنها من نسوة يدَّخرن ذلك لأزواجهن، ولكن على من غرَّني منك لعنة الله والملائكة والناس أجمعين؛ فقال عبد الملك: أنا والله غرَّرْتك منه، وبالله المستعان[1].

كان لرجل يقال له: همام بن مُرَّة ثلاث بنات فكبرن، وهو لا يزوجهن لفرط غيرته عليهن، ولأنه لم ير له كفؤًا، فدخلن عليه يومًا، وأنشدنه هذه الأبيات.

فقالت الكبرى:

أهمَّـــام بـــن مـــرة إن همِّـــي إلى حمـــراء مـــشرفة القَـــذَال

فقال لها: لعلك تريدين أيرًا أحمر.

فقالت الوسطى:

أهمَّـــام بـــن مـــرة إن همِّـــي إلى الـــلاتي يكـــن مـــع الرجـــال

فقال لها همام: ويلك أتريدين شبقًا؟

فقالت الصُّغرى:

أهمَّـــام بـــن مـــرة إنَّ همِّـــي إلى أيـــرٍ أســـدُّ بـــه مَبـــالي[2]

فقال: اغربن لعنكن الله، ثم لم يلبث أن زوجهن.

وخرج مالك بن الرِّيب، ومعه أم ولد له، يقال لها: طيبة، وعبد يقال له: درهم، في سفر فذهب لقضاء حاجة، فوجد درهمًا على بطن طيبة، فقتلهما جميعًا، وقال:

---

(١) انظر: الأغاني (٤/ ٢٦٣).

(٢) انظر: «أشعار النساء» للمرزباني ص (١٢٣)، و«المحاضرات في الأدب واللغة» لليوسي ص (٦٧٣).

فـــلا تـــأمننَّ حرمـــة بعـــد طيبـــة ولا تـــأمنن تـــابع بعـــد درهـــم

كانت عائشة بنت طلحة بن عبيد الله تحت مصعب بن كلثوم، وأمها أم كلثوم بنت أبي بكر الصديق -رضي الله تعالى عنه- وكانت من أجمل النِّساء، وكان مصعب معجبًا بها، شديد المحبة لها، فغضبت عليه يومًا، فشكي ذلك إلى أشعب؛ فقال له أشعب: ما لي إذا رضيت؟ قال: حكمك، قال: عشرة آلاف درهم، قال: هي لك، قال: فانطَلَق حتى أتى عائشة؛ فقال لها: جعلت فداكِ قد علمتِ حبي لك ودعائي قديمًا لك من غير منالة ولا فائدة، وهذه حاجة قد عرضت تقضين بها حقي، وترتهنين بها شكري، قالت: وما عندك؟ قال: قد جعل لي الأمير عشرة آلاف درهم إن رضيتِ عنه، قالت: ويحك، لا يكفي ذلك، قال: بأبي وأمي فارضي عنه حتى يعطيني ثم عودي إلى ما عودك الله من سوء الخلق، فضحكت ورضيت عن مصعب.

وروى المدائني أن هذه القصة كانت لها مع عبيد الله بن معمر، وأنَّه الرسول إليها، والمخاطب لها بهذه المخاطبة ابن أبي عتيق، وكانت عائشة صعبة الأخلاق على زوجها، وكان مصعب لا يقدر عليها إلا بتلاح يجري بينهما ويضربها، فشكى ذلك إلى ابن أبي فروة كاتبه؛ فقال له: فها أنا أكفيك هذا إن أذنت لي؟ قال: نعم، افعل ما شئت؛ فإنها أفضل شيء فعلته في الدنيا، فأتاها ليلاً ومعه أسودان فاستأذن عليها، فقالت له: تأتي مثل هذه الساعة؟ قال: نعم، فأدخلته؛ فقال للأسودين: احفرا هاهنا بئرًا، فقالت له جارية: ما تصنع بالبئر؟ فقال: مولاكِ أمرني أن أدفن مولاتكِ حيَّة لشؤم خلقها، وهو أسفك خلق الله لدم حرام، فقالت عائشة: انظر، أذهب إليه.

قال: هيهات لا سبيل إلى ذلك، وقال للأسودين: احفرا فلما رأت الجدِّيَّة منه بكت، وقالت: يا ابن أبي فروة! أتقتلني، ولا بدَّ؟ قال: نعم، وإني لأعلم أن الله سيجزيه بعدكِ خيرًا، ولكنه قد غضب وهو كافر الغضب، قالت: ومن أي شيء غضبه؟ قال:

من امتناعك عليه، وقد ظنَّ أنَّكِ تبغضيه وتتطلَّعين إلى غيره وقد جُنَّ.

قالت: أنشدكَ اللهَ إلا عاودته، قال: أخاف أن يقتلني فبكت وبكت جواريها؛ فقال لها: قد رققت لك، وحلف أنَّه يفد بنفسه، وقال لها: فما أقول له؟ قالت: تضمن عنِّي أنِّي لا أعود أبدًا، قال: فما لي عندك؟ قالت: قيام يخصُّك ما عشت، قال: فأعطيني المواثيق فأعطته؛ فقال للأسودين: دكَّا الحفرة فدكَّاها، وانصرف فأتى مصعبًا وأخبره الخبر، فقال له: استوثق منها بالأيمان، قال: قد فعلت، وصلحت بعد ذلك لمصعب.

وكان عبد الملك بن مروان أشدَّ النَّاس محبةً لعاتكة بنت يزيد بن معاوية، وهي امرأته أم يزيد، فغضبت على عبد الملك مرة، وكان بينهما باب فحجبته وأغلقت ذلك الباب، فشق ذلك على عبد الملك، وشكا ذلك إلى خاصَّته؛ فقال له: عمر بن بلال، فقال له: ما لي عندك إذا رضِيَتْ؟ قال: حُكمك فأتى عمر بابها، وجعل يتباكى، فأرسلت إليه السَّلَم، وخرج إليه خاصتها وجواريها، وقلن ما لك قد قرعت إلى عاتكة ورجوتها، قال: قد علمت مكاني من أمير المؤمنين معاوية، ومن أمها بعده قلن له، وما لك؟ قال: ابناي لم يكن لي غيرهما فقتل أحدهما الآخر.

فقال أمير المؤمنين عبد الملك: أنا قاتل الآخر به؛ فقلت: أنا وليُّ الدم وقد عفوت عنه، قال: لا أعوِّد النَّاس هذه العادة، فرجوت أنْ ينجي الله ابني هذا على يدها، فدخلن عليها، وذكرن لها ذلك، فقالت: كيف أصنع مع غضبي عليه؟ قلن لها: إذن والله يقتل، فلم يبرحن من عندها حتى دعت بثيابها ولبستها وخرجت، فأقبل الحاجب على عبد الملك؛ فقال: هذه عاتكة قد أقبلت، قال: يا ويلك ما تقول؟

قال: والله قد طلعت، فأقبلت وسلَّمتْ فلم ترد سلامها، فقالت: والله لولا عمر ما جئت، يغدو أحد لبنيه على الآخر فيقتله، فأردتَ قتل الآخر، وهو وليُّه وقد عفا عنه، قال: أكره أن أعوِّد النَّاس هذه العادة، قالت: أنشدك الله يا أمير المؤمنين! قد

عرفت مكانه من معاوية، ومن أبي وهو ببابي، ولم تزل حتى أخذت رجله فقبلتها؛ فقال: هو لك، ولم يبرحا حتى اصطلحا، وراح ابن بلال إلى عبد الملك فقال: كيف رأيتَ يا أمير المؤمنين؟ قال: رأينا أثرك فهات حاجتك، قال: مزرعة وما فيها، وألف دينار، وفرائض لولدي وأهل بيتي وعيالي، قال: ذلك لك.

ثم تمثَّل عبد الملك يقول:

وَإِني لأَرعــى قَومَهــا مِــن جَلالِهــا وَإِن أَظهَرُوا غِشًّا نَصَحتُ لَهُم جَهدي

وَلــو حــارَبوا قــومي لَكُنــتُ لِقومِهــا صَديقًا وَلَم أَحمِل عَلى قَومِها حِقدي[1]

ورُوِي أن القائم بأمر الله لما تزوَّج ابنة السلطان ملكشاة، أقامت معه سنتين، لم ينم معها؛ فشكت ذلك إلى خاصَّتها من النِّساء، ونما الحديث إلى السلطان أبيها، فكاتبه يعتب عليه، ويقول: كأنك تأنف أن يكون أخوال أولادك منَّا، ولا تأنف أنْ يكونوا من الرُّوم والأرمن؛ فكتب إلى القائم في ظهر الكتاب يقول:

ذهبــــت شرَّتي وولَّى الغــــرام وارتجــاع الــشَّباب مــا لا يــرام

أوهنــت منــي اللّيــالي جليــدًا واللَّيــالي يــضعفن والأيــام

فعــلى مــا عهدتــه مــن شــبابي وعــلى الغانيــات منــي الــسَّلام[2]

فلم يعاوده بعد ذلك.

ومما يحتاج إلى علمه حيل النِّساء إذا أوهمنه أنَّهن يبرينه من الصداق، ورُبَّما كُنَّ قبل ذلك بسنين قد أقررن بالصداق لبعض أقاربهن، فيصير ذلك دَينا على الرجل ثابتًا في الشرع، يلزمه متى طالبه المُقِرُّ له به، وهو غافل عن ذلك لا يعلم، وأكثر النِّساء قد

---

(١) البيت من الطويل، وهو لكثير عزة في «الأغاني» (٢/ ١٣٩٠)، و«التذكرة الحمدونية» ص (٥٣٦١).

(٢) الأبيات من الخفيف في «البصائر والذخائر» ص (٢٧٩٧)، و«الوافي بالوفيات» ص (١٠٦٢٠).

صرن في زماننا هذا يفعلن ذلك، مكرهات يجبرهن عليه أهلهن خوفًا من استمالة الرجل الزوجة، بحيث تهب له الصِّداق ثم يملُّها.

وقد أفرط بقوم الخبث والدَّهاء؛ فصاروا إذا زوَّجوا بناتهم كتبوا عليهن كتب دين، وثبَّتوه عند الحاكم خوفًا من أن يلزم الرجلُ المرأةَ السفر معه، ويلزمها الحاكم بذلك، إذا دفع الصداق إليها، فإن أكرهها الحاكم بالسفر؛ طالبوها بالدين الذي كُتِبَ عليها، وحبسوها في سجن القاضي، إعاقةً للرجل عن السفر، إما ليضجر أو ليتركها عندهم، أو ليفوته أوان سفره، ودُّوا هذا عدى إن كان ذا ثروة أن يزن عنها ما يثبتونه عليها مما أقرت به لهم قبل موافقتها له، إن أُمن الإقرار بشيءٍ آخر.

وألا يوكِّل عليها من يسافر بها متى أخرجوها من السجن بعد سفره، فبهذا ينتصف من بعد طلبهن، على أن حكم القضاة بهذه الأمور يختلف بحسب اختلاف مذاهب القضاة.

وقد اختص زيجان بحيلة أخرى، وهي: أن أحدهم أراد أن يزوج ابنته؛ فسأل القاضي أن يحجر عليها، وأخذ خطه بالحكم عليها كما يحجر على من لا يهتدي رشده، ثم زوجها، فلا ينتفع بإقرارها له بالمهر ولا بغيره.

وأما التزويج بامرأةٍ غير معروفة الحسب؛ لا يؤمن معه المكر، وأنواع الحيل، فكم زُوِّجَت البنت بالكبير، وزوجة رجل غائب لم يطلقها بوثيقة مزورة، وكم قد تزوجت امرأة بزوجين، وهما جميعًا في بلد واحد مقيمان، لا يشعر أحد منهما بصاحبه.

قال القاضي شريح:

رأيـت رجـالاً يـضربون نـساءهم ... فـشُلتْ يميني يـوم أضرب زينبـا

أأضربهـا في غـير جـرم أتـت بـه ... إلي فـما عـذري إذا كنـت مـذنبا

فتـاة تـزين الحـلي إن هـي حليـت ... كـأن بفيهـا المـسك خـالط محلبـا[1]

(١) الأبيات للقاضي شريح في «الأغاني» (١٧/ ١١٣٥٢).

الباب الرابع من الجملة الحادية عشرة
في آداب العُرس

اعلم أن أسباب حظوة المرأة عند الرجل، وقد يخرج عنها لمن يخطبها: ولدها، أو مالها، أو نسبها، وقد تستحق الحظوة بفضائل لها كالجمال، والعفة، والأدب، وحسن المصاحبة.

وإن أعجبت المرأة الرجل عند مغازلته إياها، وإلا فربما أحبها إذا نظرت إليه، فإن لم يحبها أحبَّها، إذا تكلمت وتبسمت، فإن لم تعجبه، فربما أحبها إذا أعجبته خلوتها، ووجدها مواتية طائعة له، أديبة الخُلق، مع خفر في سكينة، غير مبالغة في تمنيع، ولجاج في ارتداء إزار أو ثوب؛ فالحاجة في مثل هذا عند الخيانة؛ لأنها سوء أدب وشؤم.

وأما رعونتها وعلقها؛ فيظهر من صبرها وقت إلبابها؛ فإن الحمقاء الجاهلة تخرج عن الحدِّ في التعلق، والتخوق حتى المجانين، ولا تمكن دون أن توثق كِتافًا، وتكاد تزهد الرجل الشريف النفيس، ولا تباشر الأبكار، ويرتسم في نفسه منها ما يفزعها به كل وقت، واللبيبة الأديبة منهن تنحل وتطيع.

وفيهن من تعاون الرجل، وترشده الطريق إذا أخطأه، وذلك أدل دليل على محبتها للرجل، ومثل ذلك يحصل الخلوة عنده.

ولما زفت فاطمة بنت القراضة بن الأخوص الكلبي إلى عثمان بن عفان -رضي الله تعالى عنه - وأدخلت عليه، جلس على سريره، وجلست هي على سريرٍ؛ فرفع قلنسوته عن رأسه؛ فبدت صلعته، فقال: «**لا تنكرين ما ترين من صلعي، فإن وراءه ما تحبين**»، فقالت: إني لمن نساء أحب بعولتهن إليهن الشيخ السيد، فقال: «إما تقومين إليَّ، وإما أن أقوم إليك» فقامت، فجلست إلى جانبه، فمسح رأسها، ودعا لها، ثم قال:«اطرحي مخلفتك»، فطرحتها، فقال: «اطرحي خمارك» فطرحته، فقال: «اطرحي

إزارك»، والعرب تسمي السروال: إزار، قالت: أنت وذاك، فلم تزل عنده حتى كان من أمره ما كان، فبعث معاوية فخطبها، فقلعت ثنيتها، ونفذتها إليه، وقالت: قد ذكرت، ولا أصلح لزوج، فكَفَّ عنها.

ومن آداب المفتضة: أن تمكِّن الرجل من مسِّ الفرج، وتأمله إن شاء قبل الجماع، وإن شاء بعده، فبذلك يدفع عنها التُّهم والشُّبه التي تقع للرجل بينه وبين نفسه، وتسقط عنها تهم عساها رميت بها.

وإذا خرج الذكر داميًا، وأحس لدمها خرارة عليه؛ فهي بكر، وأما المنديل الذي تعده المرأة، فيجب تسليمها إلى الرجل، ليراها خالية من الدم قبل استعمالها، ثم يتول التمسح بها، ويدفعها إليها.

ومن آداب النساء: وخصوصًا نساء الملوك، والأكابر، والرؤساء، والعلماء، وأرباب الهمم العلية والنفوس الملوكية: أن يعتزلن الغيرة، ولا يحدثن أنفسهن بها، وألا يمنعهن إكرام الرجل إياهن عن أن يكن كبعض الإماء في النشاط، والخدمة، والخوف من مخالفته.

ولما زفت بوران بنت الحسن بن سهل إلى المأمون؛ كتبت إليه عُرِيب حظيته هذه الأبيات تقول:

أنعم تخطتك عيون الردى ... بزف بوران مع الدهر

بيضة خدر لم يزل نجمها ... بنجم مأمون الورى يجري

حتى استقر الملك في حجرها ... بورك في ذلك من حجر

يـــا ســـيدي لا تـــنس عهـــدي ومـــا أطلـــب شـــيئًا غـــير مـــا تـــدري[1]

فقالت بوران: يا سيدي! قد عرفت ما تريد، فأذن لها، فضحك المأمون، وسرَّ بلطافة خلقها وفكرها.

ولا تولي امرأة نفسها من لا ترضاه لها بعلاً إلا أن تستنينه في الولاية، فتقول: أوليك على أن تزوجني من تختاره لي غير نفسك.

رُوِيَ أن النوار بنت أعين بن صعصعة المجاشعي، وهي ابنة عم الفرزدق همام بن غالب خطبها رجل من بني عبد الله بن دارم فرضيته، وكان الفرزدق وليها، فأرسلت إليه أن تزوجني من هذا الرجل، فقال: لا، أو تشهدي لي أنك قد رضيت بمن زوجتك، ففعلت، فلما توثق منها.

قال: أرسلي إلى القوم فليأتونا، فجاء بنو عبدالله بن دارم، فشحنوا مسجد بني مجاشع، وجاء الفرزدق، فحمد الله وأثنى عليه ثم قال: أما علمتم أن النوار ولتني أمرها، أشهدكم أني قد زوجتها من نفسي على مائة ناقة، حمر الوثب، سود الحدق، فنفرت النوار من ذلك، وأرادت الشخوص إلى عبد الله بن الزبير حين أعياها أهل البصرة أن يطلقوها من الفرزدق، بحيث يشهدوا لها الشهود، وأعياها الشهود أن يشهدوا لها.

وكان ابن الزبير أمير العراق والحجاز، يدعى له بالخلافة فيها، فلم تجد من يحملها إليه، فأتت فتية من بني عدي بن عبد مناة، يقال لهم: بنو أم القشير، فسألتهم برحمٍ يجمعهم وإياها - وكانت بينها وبينهم قرابة - فحملوها، فبلغ ذلك الفرزدق،

(١) الأبيات في «المستجاد من فعلات الأجواد» للقاضي التنوخي ص (٢٦١).

فاستنهض عدة من أهل البصرة؛ فأنهضوه، وأوقروا له عدة من الإبل، وأعين بنفقة، فتبع النوار، وقال:

أطاعـت بنـي أم القـشير فأصـبحت عـلى شـارف ورقـاء صـعب ذلولهـا

وإن الـذي أمـسى يخبـب زوجتـي كـماش إلى أسـد الـشرى يـستبيلها

فأدركها وقد قدمت مكة، فاستجارت بخولة بنت منظور بن زيان امرأة عبد الله بن الزبير، فلما قدم الفرزدق مكة اشرأب إليه الناس، ونزل على بني عبدالله بن الزبير، فاستنشده أولاد عبد الله، واستحدثوه ثم شفعوا له إلى أبيهم، فجعل يشفعهم في الظاهر، حتى إذا صار إلى خولة قلبته عن رأيه، فمال إلى معاونة النوار.

فقال الفرزدق هذه الأبيات:

أمـا بنـوه فلـم تقبـل شـفاعتهم وشـفعت بنـت منظـور بـن زيانـا

ليس الـشفيع الـذي يأتيـك مـؤتزرا مثـل الـشفيع الـذي يأتيـك عريانـا

فبلغ ابن الزبير شعره، ولقيه على باب المسجد، وهو خارج منه، فضغط على حلقه، حتى كاد يخنقه، ثم قال:

لقد أصبحت عرس الفرزدق ناشـزًا ولو رضيت رمـح اسـته لاسـتقرت

ثم دخل على النوار، فقال لها: إن شئت أمضيت نكاحه، فهو ابن عمك، وأقرب الناس إليك، وإن شئت فرَّقت بينكما، ثم ضربت عنقه، فلا يتحمل أبدًا، وكانت النوار امرأة صالحة، فقالت: أو غيرهما؟ فقال: لا، قالت: فما أحب أن يقتل، لكني أمضي امرأته، فلعل الله أن يجعله في كرمي، فدفعها ابن الزبير إليه[1].

(١) انظر: «الأغاني» (٢١/ ١٤٣٥٦).

ومن أعظم حظوة المرأة عند الرجل أن أول كلام تسمعه منها ضامنًا معنى التودد والتحبب، وأن يكون ذلك في أول مجلس يجتمع بها.

خطب يحيى بن أكثم إلى عقيل بن عامة ابنته، فزوَّجه ثم خرج فحملها إليه، فلما قدمت عليه، بعث إليها يحيى مولاه فجاءها، فجعلت تغمز عضدها، فرفعت يدها، فدقت أنفها، فرجعت إلى يحيى، فقالت: بعتني إلى أعرابية مجنونة صنعت بي ما ترى، فنهض يحيى إليها، فقال: ما لك؟ فقال: ما أردت أن يصل إليك نظر إليَّ إلا أن يكون نظرك إليَّ قبل كل ناظر، فإن رأيت حسنًا؛ كنت أحق إلى بيحه، وإن رأيت قبيحًا؛ كنت أحق من ستره، فسرَّ يحيى بقولها، وحظيت عنده.

ومن آداب المرأة: ألا تنبه الرجل على شيء تستمجه من صورته، ولا تشعره بأنها شعرت به منه؛ فإنها بذلك تعيره، وعليها مقته.

نظرت امرأة عمران بن حطان يومًا في وجهه، وكانت من أجمل النساء فأعجبها، ونظرت إليه فوجدته قبيحًا، فقالت له: هلم، فانظر في المرآة، فجاء فنظر إلى نفسه، وهو إلى جانبها كأنه قنفذ، ورأى وجهه قبيحًا، فقال: هذا أردت، فقالت: إني لأرجو أن أكون أنا وأنت في الجنَّة، قال: ثم قالت: لأنَّك رُزِقتَ مثلي فشكرتَ، ورُزِقتُ مثلكَ فصبرتُ، والشَّاكرُ والصَّابرُ في الجنَّة[1].

* * *

(١) انظر: «الأذكياء» لابن الجوزي ص (٤٣١).

الجملة الثانية عشرة

في اتخاذ الربيطات والحينات الطريفات المساعدات

لسنا في ذكر ما قصدنا به إتمام وجوه الأحماض في مجلس النَّدام إلى ما فيه خلاف المسنون، ولا راضين به لكثرة ما سمعناه مِمَّنْ له في الصناعة الحثيثة مدخل، وما قرأنا في الكتب المصنَّفة من فنون ما يصلح للأحماض، قد تصوَّرنا في أحوال النَّاس في تصاريفهم، ما لا يقتصر في تحقيق علمه إلى مباشرته بحواسنا، ومشاركتهم في علمه، ولا عار علينا في إيصال اللذَّة إلى متصفِّح كتابنا بحكاية مده، فما اتصل بنا من أخبار من افتتن، وأجاب دواعي اللذَّة والصَّبوة، وانخرط في سِلْك التَّسمُّح، بارتكاب ما لا يلهه الناموس استيلاء ما إلى الهوى، وتمكينًا للنفس من شهواتها.

ولا محالة أن للصيد لذة، ولذلك شُغِف به الملوك، واحتملوا مؤنة الفهَّادين، وأرزاق [الباربارش][1]، وشدَّة التعب، وكدَّ الطلب، وصرفوا إلى ذلك همَّتهم، وشَغَلوا به أنفسهم، وأطالوا فيه كدَّهم، وجعلوا يتعشَّقون فيه جواز طهور القرى هبوطًا مرة، وصعودًا أخرى، تغَنُّمًا لِلَذَّات قلوبهم، واتباع سرورهم، على أن صيد الوحش قليل الفائدة لا يقوم خيره بشرِّه، ولا نفعُه بضُرِّه.

والذَّكِيُّ اللبيب يتصور أن اقتناص الوحش، وإن كان طيِّبًا؛ فإن اقتناص الأنس أطيب كما حُدِّث عن محمد بن عبد الله بن طاهر؛ فإنه خرج إلى الصيد، فغاب ثلاثًا ثم رجع بصيد كثير، ودعا أخاه عبد العزَّى إليه، وأُحضِرت المائدة، وعلى رأس محمد غلامٌ لم يُرَى في زمانه مثله في جماله وكماله، فلما قدِّمت إليه صحفة، قال لأخيه: هذا لحم طير، هذا لحم حمار وحش، هذا لحم أرنب، هذا لحم كذا، وجعل يعُدُّ عليه

(١) هكذا بالأصل.

أنواع الصيود؛ فنظر عبد العزيز إلى الغلام الَّذِي على رأس أخيه قال:

إن لحـــوم الظبـــاء تعجبنـــي والحـــي منهـــا إليَّ أعجبهـــا

فـــإن تطِـــب هـــذه لوحـــشتها فأنـــسات الظبـــاء أطيبهـــا

فوهب له محمد الغلام.

وحكي أن زُبيدة بعد قتل ولدها الأمين، وتألُّفها قلب المأمون، أرسلت إلى المأمون أن كنْ في دعوتي يا أمير المؤمنين! أطعمك طعامًا ما أكلت أطيب منه قط، وأسقيك شرابًا ما شربت أطيب منه قط، وأصيدك ما صدت مثله قط، فأجاب المأمون، ووعد بالحضور، ثم قال ليحيى بن أكثم، وهو يومئذ قاضي القضاة: تأهب للحضور معنا غدًا في دعوة أم جعفر؛ فقال: سمعًا وطاعة يا أمير المؤمنين! ثم حضر من آثر من ندمائه ويحيى بن أكثم، فقُدِّمَت إليهم الأطعمة الفائقة الصَّنعة مِمَّا أعجب المأمون واستطابه، ومن الشُّراب العتيق المُرَوَّق بالعود الهندي ما استلذَّه.

وقال: لعمري هذا الطَّعام والشراب ما رأينا أطيب منهما قط، فليت شعري ماذا يكون الصَّيد؟ فأمَرَت برفع ستر في المجلس، وفتح له باب إلى بستان؛ فقال له يحيى بن أكثم: يا أمير المؤمنين ألا أكون أنا كلب الصيد؟

فقال: بلى فدونك، وادخل إلى البستان بين يديَّ، فدخلا إلى أنـزه بستان وأنضره وأحسنه وأبهاه، فلما توسَّطاه لاح لهما أربعون جارية أبكارًا نُهدًا رائعات، حول بِركة عليهن أنواع الملابس المختلفة الألوان، فأول ما لاح لهنَّ المأمون ويحيى بين يديه، أجفلن من بين أيديهما كالظِّباء النَّافرات، وأمعنَّ في الهرب فاسترن؛ فقال يحيى: هذا الصيد قد أجفل يا أمير المؤمنين! أفلا أمضي فأَرُدَّهُ إليك؟

قال المأمون: بلى دونك وذلك، فأقبلا يطردان الصيد، وكلما وقع بيد المأمون

واحدة؛ افْتَضَّها حتى افتَضَّ سبعًا؛ فقال له يحيى: يا أمير المؤمنين! أما يصطاد الكلب لنفسه؟ فقال: بلى، فاصطاد المأمون تمام العشرة، واصطاد يحيى لنفسه أربعًا، وخرجا من البستان، وقد قضيا يومهما، ورد عليها المأمون جميع ضِياعِها، ووصلها بخمسين ألف دينار.

وسبيل المتصدِّي للقنص الترصُّد للصَّيد في مطانه، وهي سعداد سُوق الصِّفر والرَّجية في غداة كل يوم، وسُوق الثلثا وقت الظُّهر، ومواطن الزيارة أُعنِي الشونيزي في أوائل نهار الخميس، وقبر معروف، والسبتي وأبو حنيفة وقبر أحمد والرصافة، وباب أبرُز ليلة الجمعة، وقبر الشيخ صدقة، والمشهد ليلة نصف شعبان، والمقابر ليلة العيد، وباب الحلبة يوم قرح شاعة.

قال محمد بن الحسن القُمِّي الكاتب: فإذا وقع في حبائل القانص الجارية الهيفاء اللفاء، المعنوجة الظرف، المليحة الطرف، الفائقة الجمال، الحسنة الدَّلال، النَّجلاء العينين، الأسيلة الخدين، الرخاء الحواجب، الناعمة الرواحب، النقية البياض، البديعة الأعراض، السبطة الأطراف، الثقيلة الأرداف، الناهد العراء، ثيبًا كانت أم بكر الَّتي توردها شعرها.

فإذا حصلت كانت أطايبها أطيب من أطايب الظباء والجاذر، وكلامها أحلى من السُّكَّر، لُمَقَبِّلها حلاوة في فِيك، تسليك عن همومك، وتلهيك وتنسيك ذكر أمك وأبيك وصاحبتك وأخيك، تجيبك لحظاتها وبعلك برصاتها، وتنكِّهك من تفاح خدها ورمان صدرها، هذا إن ملت إلى نسق بغير سكين وزرع بغير سرحين.

فإن آثرت من الظباء أصحاب الخصي؛ لم تعدم أنْ يقع في يديك، أهيف القوام، رخيم الكلام، موافق فائق، جميل رائق، رقيق السمرة، بديع الحمرة، أدعج العينين،

ميَّاس الحاجبين، مورد الوجنتين، مختطف الخصر، نَقِيَّ الثغر، مرخَّل الشعر، إذا مشى خَطَر، وإذا أخطَرَ أسهر، تُجاذبه أردافه، وتهزه أعطافه؛ فيا حبذا من صيد هو مؤنس غير موحش، خدلجَّ الساقين، لذيذ العناق، يسقيك من فِيه خمرًا، ويشمك جيدًا، ونحرًا قائمًا، فأيهما أفضل الآن عندكم حلفًا أو حلفًا أو غزال أنسي بهذه الصِّفة ديَّته عشرة آلاف درهم، غزال برِّيٌّ ثمنه ثلاثة دراهم، ولو لم تحب اقتناص غزلان البرِّ، وإرسال الكلاب عليها، وإدخال الارتياع قلوبها إلا أنفًا وإشفاقًا على غزلاننا الأنسية الَّتي قدَّمنا ذكرها؛ لوَجَبَ تركُها وحَرُمَ أكلُها.

وجدتُ عند بعض الأعراب قال: بينما أنا قد قبضت خشفًا، فأوثقته كتافًا في حبال، إذ استقبلني غلام له ظَفير كان كأن وجهه وجه الشمس الطَّالعة، فلما نظر إلى الخشف تنفَّس الصَّعداء، وأنشأ يقول:

وَذَكَّـرَني مَـنْ لا أَبُـوحُ بِـذِكْرِهِ مَحَـاجِرُ خـشفٍ في حَبَائِـلِ قـانِصِ
فَقُلْـتُ وَدَمـعُ العَـينِ يَجـرِي بحُرْقَـةٍ وَلحظـي إلى عَيْنَيْـهِ لحْظَـةُ شَـاخِصِ
خَـفِ اللهَ لا تَحْبِـسهُ! إنَّ شَـبِيهَهُ حَيَاتي وَقـد أرْعَـدتَ فيـه فَرَائـصي[1]

قال: فأطلقته، فاتبعه الفتى بعينه، ثم قال لي: أين المنـزل؟ فقلت: بموضع كذا وكذا، فجاءني من الغد، يقود عشرًا من الإبل، فأبيت فحلف عليَّ بأخذها؛ فسألت عنه، فقيل لي: يعشق فتاة من الحيِّ.

واعلموا أنه ليس كل من تعرض لقنص هذه الظباء تصلح له؛ لأنَّ متصيدها يحتاج أن يجتمع فيه خلال، وآداب؛ أولها حسن الخلق، ولين الكلمة؛ لأنَّ من حَسُنَ

(١) الأبيات في «تزيين الأسواق في أخبار العشاق» لأبي داود الأنطاكي ص (٣٩٩)، و«مصارع العشاق» ص (٤٩٤).

خلقه كثر صديقه، ومن لانت كلمته وجبت محبته.

ومنها استعمال الصبر والرفق، وليس من تأخر عنه نيل من يهواه صَدَّ عن إلفه، وقلاه فاستشعروا الصبر؛ فإن لطف الحيلة أجدى من الوسيلة.

وفي ذلك يقول:

حيـائي مـن أمَّلتـه الـوُدَّ والـصَّفا وجـاد بـأمرٍ لم أكـن فيـه أطمـعُ

برفـق وصـبر نلـتُ خـالص ودِّه وقـد كـان صـعبًا جافيًـا يتمنَّـعُ

وقال آخر:

والرِّفـقُ يظفـرُ بالآمـال صـاحبه ويعقُب المرء في الحاجات إنجاحًا

ومنها: سماحة النفس، وسخاء الكف؛ فهو القطب الَّذِي تدرك به الأمور الصَّعبة، ويفتح به الأبواب المستغلقة، ويستعبد الأحرار، وما كذب من قال: الدَّراهم مراهم.

كان غلام يتعشَّقُه بعض الشعراء، فيمدحه بلا ورق؛ فكتب إليه يقول:

مثـل امتـداحك لي بـلا ورقٍ مثـل الجـدار بُنـي عـلى خـصٍّ

وألـذ عنـدي مـن مـديحك لي سـود النعـال ولـين القمـصِ

فـإذا عزمـت فهـي لي ورقًـا فـإذا فعلـت فلـست أستعـصِي[1]

حدَّثني صديق لي قال: اجتمع صديقان على شراب لهما؛ فقال أحدهما لصاحبه: ما أحوجنا إلى ثالث؛ فقال الآخر: فلان مضرب مطرب فادعه، فكتب إليه يقول:

دعنـي مـن المـدح والهجـاء ومـا أصـبحت تطويـه لي وتنـشره

(١) الأبيات لأبي نواس في «الأغاني» (١٨/ ١١٩٨٣).

لـــو وُضِـــع الـــدرهم الـــصحيح عـــلى بـــاب حديـــد لـــذاب أكثـــره

فأنفذ إليه جذره، فصار إليه من وقته.

وقيل: إنَّ نصر دخل إلى مدينة السلام مرة، فلم يزل يمضي في مجالها حتى انتهى إلى قطبعة الربيع؛ فإذا بجارية مشرقة، تنظر إلى الطريق، فهواها، فلم يزل يكتب إليها يشكو محبتها، وهي لا تجيبه، فكتب إليها يومًا رقعةً يشكو فيها بثَّه، وفي آخرها:

هـــل تَعْلَمِـــينَ وَراء الحُـــبِّ مَنـــزلةً تُـــدْني إليـــكِ فـــإنَّ الحـــبَّ أقـــصَانِي[1]

فوقَّعت إليه تقول:

نعـــم حبيبـــي وراء الحـــب منـــزلة بـــذل الـــدَّراهم تـــرضِي كـــل إنـــسان

مـــن زاد في الـــوزن زدنـــا في محبتـــه ما يطلب الدَّهر إلا فضل رجحـــان[2]

فلما قرأ الرُّقعةَ بعث إليها خريطة فيها ثلاثمائة درهم، فقبلتها منه، ووصلت إليه؛ فبلغ مراده.

وقيل: عشق شاعر مغنية، فأدمن في قول الشعر فيها؛ فقالت له: ويلك لا تلتقي شعرتان بشعر.

قال نصر القمِّي الكاتب: وإنما يدرك نهاية الأمنيَّة من هذه الأسباب مثل سعيد بن جميل؛ فإنه عشق بعض أولاد الأتراك، فحرص على تحصيله، فامتنع فلما كان بعد مدة شرط عليه الغلام أن يصير إليه، فيقعد عنده من أذان المغرب إلى أذان العتمة بخمسين دينارًا، فأجابه إلى ذلك، وأعطاه الدَّنانير، فلما حصل عنده كتب إلى مؤذن

---

(١) البيت لبشار بن برد في «الأغاني» (٩/ ٦١٧)، و«العقد الفريد» ص (١٠٨٣).

(٢) انظر: «محاضرات الأدباء» للراغب الأصفهاني ص (٣٢١٢).

مسجده يقول:

قـــل لـــداعي الـــصلاة أخِّـــر قلـــيلاً قـــد قـــضينا حـــقَّ الـــصلاة طـــويلاً

لـــيس في ســـاعةٍ تؤخّرهـــا إثـــ ـــمٌ تجـــازى بـــه، وتحيـــي قتـــيلاً

وتراعـــي حـــقَّ المـــودّة فينـــا وتعـــافى مـــن أن تكـــون ثقـــيلاً[1]

قال: فما أذَّن في تلك الليلة إلا في الثلث الأوَّل من الليل.

واعلموا أن أكثر النَّكد والعمر والمكاس والصَّد من الغلمان؛ **فأمَّا النِّساء فقد** رخصت عليه جذورهن وسهلت أمورهن، وتحتاج أن تكون جعبته مملوءة سهامًا أي: رقاعًا رشاقًا مصدَّرة ترقيق الكلام ولطيف الشكوى، ولكن رقاع من ابتدى المواصلة واستدعى المراسلة، وضمِّنوها موضع دوركم.

فإذا اجتازت بكم المليحة الظريفة الَّتي تقتل الصَّب وتجلب اللب، فتوصلوا إلى إعطائها رقعة من تلك الرِّقاع؛ فإن قبلتها فقد أصاب السَّهم، وإن لم تقبلها فلا تعاودها أبدًا؛ فإن العرب تقول: السِّهام منايا تخطئ وتصيب، وهذه الرِّقاع فلا تستعملوها مع الغلمان؛ فإن الرُّقعة إلى الأمرد تعلِّمُه الكبر والتِّيه على عاشقه، وليس لهم غير الدَّراهم والسُّكر واستعمال البنج.

واعلموا أنه لو كانت المرأة أقسى قلبًا من الحجر، وأصلب من الحديد، ثم وردت عليها رقعة، قد ضمنت ما تضمَّنه العشاق رقاعهم؛ للانت له ولراضها، وذلك أن رأي النِّساء يرجع إلى أمن، وكيدهن إلى وهن، والمرأة يكفيها أنْ تعلم منك ميلاً إليها، وحرصًا عليها حتى يصيد ذلك نفسها، لعطف إبليس عليها.

---

(١) انظر: «فوات الوفيات» لابن شاكر الكتبي ص (٣٢١٢).

كما قال الأوَّل:

عرِّضـــنَّ الَّـــذِي تحـــبُّ بحـــبٍّ ثـــم دعـــه يروضـــه إبلـــيس

وانـــح الطـــلاب، واصـــبر عليـــه إن خطـــب الهـــوى جليـــل نفـــيس[1]

ومن أصلح ما يستعان به على مكاتبتهن ما ألَّفه الوساقي في كتابه «كتاب فرح المُهَج».

وحدَّثني بعض الكُتَّاب قال: نـزلتُ ببغداد بمحلَّة الظَّفرية، فلقيتني يومًا امرأة قريبًا من داري، فحار عقلي لبهجتها، وأدهشني جمالها، فأَمَرْتُ غلامي بتعرُّف منـزلها ثم كتبت إليها أقول:

قـــل لمـــن صـــاد قلبنـــا إذ رمانـــا بـــسهام اللحـــاظ تحـــت النِّقـــاب

مـــا تـــرى في وصـــال صـــب شـــديد الحـــب نـــرضى بأيـــسر الأســـباب

ينبغـــي أنْ تـــزوره في عفـــاف وإذا شـــئت فهـــو ليـــث الـــضراب

فوقَّعت على الرُّقعة: قد شئنا يا ظريف، ثم قلت لغلامي: إذا جاءتكم جاريتي، فلتصير إليَّ، فما رأيتُ أصدق منها وعدًا، ولا أحسن منها وجهًا وخلقًا.

وما شيء أجلب لقلوبهن من لطيف المخادعات، وطريف المداعبات، وملح الملاطفات بالتفاح المنقوش بالذهب، والمناديل المليحة، والنِّعال المذهبة، والفصِّ الظريف، والقناع الظَّريف، والمخازن المملوءة مسكًا، والأطباق الصغار المغطاة بالمناديل الموشاة، وفيها مثل صدر دجاج وفخذ دجاجة مسمَّنة ونصف فرخ حمام، ومرشَّة ماء ورد، وقد أضيف إلى ذلك رطليَّة مخروطة مملوءة شرابًا مزوَّقًا قد طُيِّب

(١) البيتان في «الأغاني» (٢٢/ ١٤٦٤٣).

وتفاحة معضوضة وشمَّامة معمولة؛ فإن هذا أملح عندهن؛ فإن هذا أفخر الأشياء عندهن، واعلموا أن هذا التفاح يقال له: السياس، وبه تؤخذ المواعيد، وتستجلب القُبَل.

واعلموا أنَّه لا يتمكَّن الرجل من قلوبهن إلا بشدَّة رهزه، ومن عدم هذا الحال لم ينتفع بهنَّ؛ فإذا خلا أحدكم بحبيبه أو جلس مع عشيقته؛ فلا يكثر من الأكل والشرب، ولا يفتح باب شرهه، ولا يتمكن من شرابه، ولا يغفل من إغلاق بابه؛ فكثرة الشُّراب قاطع عن الباءة، وفي قِلَّة الباءة سقوط الجاه.

وحكى نصر القمِّي الكاتب عن أبي عبد الله المفجَّع قال: زارتني ربيطة لي ذات يوم، فأكثرتُ من النَّبيذ معها، حتى سكرتُ، فحين حاولتها انقطعت ولم ينتشر، وجاء الليل فانصرفت، وقلت في ذلك:

لي أيـــرٌ أراحنـــي الله منـــه صـــار همِّـــي بـــه عريـــضًا طـــويلا
نـــام إذ زارني الحبيـــب عنـــادًا ولعهـــدي بـــه ينـــ[1] الرســـولا
حـــسبت زورة عـــليَّ لحينـــي فانـــصرفنا ومـــا شـــفينا الغلـــيلا[2]

وقال بعضهم: كانت لي جارية لها من قلبي موضع، وكانت ظريفة، فانصرفتُ ليلة، وأنا سكران، فجاءت إليَّ على العادة، فلاعبتها وحادثتها؛ فلما أصبحتُ، قالت لي: يا مولاي! أبيات كنت أسمعها منك، تنشدها كثيرًا، أوَّلُها خليليَّ، فقلتُ: لعلَّها قول العباس بن الأحنف:

---

(١) كلمة تعني الجماع فضلنا عدم ذكرها.

(٢) البيت من الخفيف، وهو لمحمد بن المفجع النحوي في «الوافي بالوفيات» ص ٢٧٦، و«معجم الأدباء» ص (٤٢٣٥).

خَلـيلَيَّ مـا لِلعاشِـقينَ قُلـوبُ وَلا لِلعُيـونِ النـاظِراتِ ذُنـوبُ

وَيا مَعشَرَ العُشّاقِ ما أَوجَعَ الهَوى إِذا كـانَ لا يَلقـى المُحِبَّ حَبيبُ[1]

فقالت: كنت أسمعك تنشدها على غير هذا، قال: كيف كنتُ أنشدها؟ فقالت:

خلـيلَيَّ مـا للعاشـقينَ أيـورُ ولا لحبيـبٍ لا ينـالُ سرورُ

فيا معشرَ العُشّاقِ ما أوجعَ الهوى إذا كـان في أيـرِ المحـبِّ فتـورُ[2]

واعلم أنّه ما من شيء أوفق لمن فاكه حبيبه من أنْ يشرب رطلاً، ويتنفَّل بقبلة، ويحيي ببسمة وضمة، ويحيي روحه بفرد يروي به غليل قلبه، وعظيم كربه.

كما قال الشاعر:

يـا حبـذا مَـن جـاءَني زائِـرًا في شَـهرِ ذي الحِجَّـةَ مِـن نِـصفِهِ

بـاتَ يُعـاطيني عَـلى خَـدِّهِ خَمـرًا بِعَينَيـهِ وَمَـن كَفِّـهِ

وَكُنـتُ فـيما بَـينَ ذا رُبَّـما أَدنَيـتُ خِلخالَيـهِ مِـن شَـنفِهِ[3]

واعلموا أن القُبَل دواعي الشَّهوة، والنَّشاط، وسبب الانتشار، والإنعاظ، ومُنبِّهات الأيور، ومهيِّجات للإناث والذُّكور، ولا سيما إن خُلِط بين كُلِّ قُبلتين عضَّة خفيفة، وقرصة ضعيفة، واستعمل المصُّ والمسارفة والتحرُّد والمعانقة؛ فهناك تتأجج

(١) البيت من الطويل، وهو للعباس بن الأحنف في ديوانه من قصيدة البيت الأول مطلعها، وفي «الإيماء الشواعر» لأبي الفرج الأصفهاني ص ٢٧.

(٢) البيت من الخفيف، وهو لعنان الناطفية في ديوانها من قصيدة البيت الأول مطلعها، وفي «الإيماء الشواعر» لأبي الفرج الأصفهاني ص ٢٧.

(٣) الأبيات من السريع، وهي لأبي نواس في ديوانه من قصيدة البيت الأول مطلعها، وفي «قطب السرور في أوصاف الخمور» ص (٧٨٣).

الغلمتان، وتتَّفق الشهوتان، ويفرح بهما قلب الشيطان، ولو أن رجلاً فعل هذا بامرأة شابَّة دائمًا، ولم يجامعها؛ لخرجت في قلبها قُرحة السُّل، وماتت في أقرب مدة كمدًا، وليست تُريدُ المرأة الرجل إلا لحالة واحدة، ولو أجاعها وأعراها.

وأنشدتُ لبعض العرب:

قَالَـتْ سُـلَيْمَى لَيْـتَ لِي بَعْـلاً يَمُـن بِغَـسْلِ جِلْـدِي وَيُنَـسِّينِي الحَـزَنْ
وَحاجَـةً مَـا إِنْ لَهَـا عِنْـدِي ثَمَـنْ مَيْـسُورَةً قَـضاؤُها مِنْـهُ وَمِـنْ
قالَـتْ نـساءُ الحـيِّ يـا سْـلَمِي وَإِنْ كـانَ فَقِـيرًا مُعْـدِمًا قالَـتْ وَإِنْ[1]

ولبعضهم وقد تولَّع بالرَّسول ونافق، وهي هذه الأبيات:

زعـم الرَّسـول بـأَنَّني جمَّـشتهُ كـذِبَ الرسـولُ وفـالقِ الإصـباح
إن كنتُ جمَّشتُ الرَّسـول فـما قـضت روحـي أنامـلُ قـابض الأرواح
قلبـي الَّـذِي لم يُبـقِ فيـه هـواكُمُ فـضلاً لتجمـيشٍ ولا لمـزاح[2]

وقال المأمون لرسول بعث به:

بعَثْتُـكَ مُـشْتَاقًا فَفُـزْتَ بِنَظْـرَةٍ وأَغْفَلْتَنـي حتَّـى أَسَـأْتُ بِـكَ الظَّنَّـا
ونَاجَيْـتَ مَـنْ أَهْـوَى وكُنْـتَ مُقَرَّبًـا فَيَالَيْـتَ شِـعْرِي عَـنْ دُنُـوِّكَ مـا أَغْنَـا
ورَدَّدْتَ طَرْفًـا فِي مَحَاسِـنِ وجْهِهَـا ومَتَّعْـتَ باسْـتماعِ نَغْمتِهَـا أَذُنَـا

(١) الرجز لرؤبة بن العجاج في «العقد الفريد» ص (٢٣٩١)، و«خزانة الأدب» ص (٧٤٢٢).

(٢) الأبيات من الكامل، وهي لأبي نواس في «الآمالي» للزجاجي ص (١٤٤).

أَرَى أَثَـــرًا مِنْهـــا بِعَيْنَيْـــكَ لَمْ يَكُـــنْ لقد سَرقَتْ عَيْنَاكَ مِنْ وجْهِهَا حُسْنَا[1]

وقيل: إنَّ رجلاً عبث بجارية لابن أبي عتيق، فأعلمته الخبر؛ فقال: لها عِدِيه وأدخليه الحَجَلة، ففعلت، فأخذ ابن أبي عتيق بيد شيخ من جيرانه، واختفَى هو والشَّيخُ، وأدخَلَت الجارية صديقها؛ فلمَّا حصل معها، وافاه ابن أبي عتيق والشَّيخ وفتحا السِّجف عنهما؛ فقال: أشهدُ أنَّ ما اجتمعتما إلا لزنية، فقال: يا ابن أبي عتيق! فاستر علينا ستر الله عليك، وليس يتَّفِقُ للتهور كظرف ابن أبي عتيق.

وقيل: استعينوا على هَوكم بالكتمان، وكانت الحكماء تقول: سرُّك من دمِك؛ فانظر أين تريقَهُ؟!

ليكن صدرُك للأسرار حصنًا لا يرام إنَّـما تنطـق بالـسر وتبديـه اللئـام

وليس من المروءة والفتوة أن يُخرج أحدُكم من سرِّ حبيبه، ويقولُ لبعضِ إخوانه: قد فعلتُ بفلانٍ، وهَوْتُ بفلانة بنتِ فلان؛ فَيَفسُد على نفسه عشيرته، ويبعثُ النَّاس على ذمِّ خُلُقه.

واعلموا أن الصبر والتَّأنِّي مدركةٌ، والعجلةُ والخَرَقُ مهلكةٌ.

قال الشَّاعر:

قـد يُـدرِكُ المتـأني بَعـضَ حاجَتِـهِ وقد يكـونُ مـع المُـستَعجِلِ الزَّلَـلُ[2]

ولا تَحسُنُ العجلةُ والوثْبَةُ إلا عند انتهاز الفرصة، ومساعدة الوقت، والأمن

(١) الأبيات من الطويل، وهي للمأمون في «الزهرة» ص (٩٨٣)، و«الشعر والشعراء» ص (٣٨).

(٢) البيت من البسيط، وهو للقطامي التغلبي في «الأغاني» (٢٤/ ١٥٦٦٣)، و«الأمثال» ص (٣٣٩).

من المراقب؛ فحينئذٍ لا بأس بالأخذ بقول الشاعر:

وقد يفوت رجالاً بعـضُ مـا طلبـوا مِن التَّأَنِّي وكـانَ الحَـزْمُ لـو عَجِلُـوا[1]

ومما يحذَّر العشَّاق منه الافتتان بالأنفة، وعزة النفس، ومفارقة الحبيب لذلك، وأعرفُ جماعة فسد عيشهم بهذا فسادًا لم ينتفعوا معه بأنفسهم، وكثير ما يقع من يعتمد ذلك في السِّل والدِّق.

واعلموا أن أحسن ما استُعمِل صدق الوعد؛ فإذا وعدتَّ فأنجز، وليس تحتمِلُ مواعيد العشاق طول المَطل، وكثرة النِّفاق، ولا يستحسن من العاشق التَّواني، ولا من المعشوق التقاضي، والرَّدُّ الجميل أحسن من الموعد الطَّويل، وحسن الاعتذار من قبح الإصرار.

ولست أعرفُ في التقاضي أحسن من قول أبي الشيص، وقد وعده صديقٌ له بمخدَّة، فأبطأت عليه، فكتب إليه يقول:

يـا صـديقي وخلـيلي وأخـي في كـلِّ شـدَّة
ليـت شـعري أزرعـتم بـذر كتَّـان المخـدَّة

وقال رسول الله ﷺ: «**تهادوا وتحببوا**»[2].

ولا عذر لعاشق في تأخر هداياه قلَّت أو كثرت، والعاشق يستحسنون استهداء أحبابهم مساوئك، وأخذ المصطكا من أفواههم، وبقيَّة ماء، وشراب في كأس، وفضل نقل.

---

(١) البيت من البسيط، وهو للقطامي التغلبي في «الحماسة البصرية» ص (٧٠٤)، و«لباب الألباب» ص (٢٩٨).

(٢) رواه البيهقي في سننه (٦/ ١٦٩)، وابن عبد البر في «التمهيد» (٢١/ ١٧).

واستهدَى رجل من ربيطة له مصطكا، وقال لها: اجعليه إذا مضغتيه بين دينارين، لئلا يقدِّره الرسول، فوجهته بين قطعتين من العود، وقالت: خفت أن أبعث إليك به في الذهب، فيذهب فبعثت به في العود ليعود.

واعلموا أنَّه ليس يلتف الساق بالساق، والاعتناق بالاعتناق إلا بالذهب والأوراق، ومن اتَّكل على إهداء ليرة كان الحبُّ لغيره، ومن ظن أنَّه يجامع الفضة النَّضة بغير الذهب والفضة أخرج نفسه.

واعلموا أنَّهن ما لهن وفاء يُسكنُ إليه، ولا عهدٌ يُركَنُ إليه ويُعوَّلُ عليه.

قال الشاعر:

رأيتُ الغـواني لا يـصاحبن صـاحبًا وخـــلاً إذا لم ترضـــهن الـــدبالك

فمـن كـان ذا أيـر شـديد وصَـلْنَه وإن كـان رخـو أيـره فهـو هالـك

ذكروا أن الفراء الأعرابية كانت لا تزال تنتقل إلى بعل بعد بعل؛ فتزوجها رجل قصير العِرق، قليل الباءة، فلما واقعها استحيى منها من قصر أيره؛ فقال لها: أنت واسعة ثم أراد في آخر الليل النهوض إليها، فكان أشدَّ عجزًا، فقال لها: أنت واسعة؛ فقالت:

أني تزوجـت مـن بعـد الخليـل فتـى مـــرزءًا مـــا لـــه عـــرق ولا بـــاه

مـا غـرني فيـه إلا حـسن طرتـه ومنطـق حـسن مُـذ كـان هيَّـاه

فقـال لمـا خـلا بي أنـت واسـعة وذاك مـــن خجـــل منـــي تغـــشاه

فقلـــت لمـــا أعـــاد القـــول ثانيـــة أنـــت الفـداء لمـن قـد كـان يمـلاه[1]

وقيل في قضاء حق الرقيب:

نيـــ[2] الرَّقيـــب عـــلى الحبيـــب لعمـــرك مـــا يحـــبُّ يكـــون

إن الرقيـــب إذا قـــضيت حقوقـــه أضـــحى يقـــود عليـــك وهـــو أمـــين

ومن أحسن ما سمعت في الرقيب ما قيل في جارية، جُعلت رقيبة على مغنية:

فَـــدَيتُكِ لـــو أَنَّهُـــم أنـــصفوا لـــردَّوا النَّـــواظرَ عـــن ناظريـــكِ

وقـــد جعلـــوك رقيبًـــا علينـــا فمـــن ذا يكـــون رقيبًـــا عليـــك

تَـــرُدّينَ أعينننـــا عـــن سِـــواكِ وهـــل تنظـــرُ العـــينُ إلا إليـــكِ[3]

فأمَّا الدَّبيب في بيوت الأصدقاء، فمكروه قبيح؛ فليُحذر.

حُكي أن ابن سلام شرب عند صديق له، فوضع عينه على غلام في المجلس، فلما نام الغلام، قام ليدب عليه، فلسعته العقرب فصرخ، ومازال ملقى إلى أن قام جميع القوم إليه بأنواع المزاحات حتى أصبح، وهو القائل:

ولقـد نهـضتُ مـن الفـراش لموعـدٍ حـــصَّلتُهُ مـــن غـــادرٍ كـــذَّابِ

فـــإذا عـــلى ظهـــر الطريـــق مُعـــدَّةٌ ســـوداءُ قـــد عرفـــت أوان ذهـــابي

---

(١) الأبيات لثواب الهمذانية في «نزهة الجلساء في أشعار النساء» للسيوطي ص (١٣)، و«الكشكول» ص (٨٧١).

(٢) كلمة تعني الجماع فضلنا عدم ذكرها.

(٣) الأبيات من المتقارب، وهي للناشئ الأكبر في «الوافي بالوفيات» ص (١٤٢١٣)، و«ديوان المعاني» ص (١٥١٧).

لا بـــارك الـــرَّحمنُ فيهـــا عقربًـــا دبَّابـــةً دبَّـــتْ إلى دبَّـــابِ[1]

وقد أضاف الفرزدق رجل من العرب، فأحسن ضيافته؛ فلما كان الليل، قام ليدب عليها، فشدَّ عليه زوجها، فهربت منه؛ فقال فيه جرير:

وَكُنـــتَ إذا حَلَلـــتَ بِـــدارِ قَـــومٍ رَحَلـــتَ بِخِزيَـــةٍ وَتَرَكـــتَ عـــارا[2]

وإنما يصلح الدَّبيب للرجل في منـزله إلى خادم أو جارية في منـزله سرًّا من زوجته أو مع غلام شرير الأخلاق حين سكره؛ فكم جارية سكرت للرجل اللبيب في الدبيب.

واعلموا أن النفاق أعظم مكائد العشَّاق، وأنفع آلات الفسَّاق، وبه يتعامل أهل العراق؛ فاستعملوا النفاق مع هذه الطَّبقة، وشدَّة الخضوع، وحسن الخشوع، ولا يغضينَّ أحدكم من قبح يسمعه من حبيبته، فإن احتمال العاشق للمعشوق فضيلة وكرم.

وقد أحسن الَّذِي يقول:

ذُلُّ الفتَـــى في الحُـــبِّ مكرُمَـــةٌ وخـــضوعُه لحبيبـــه شرفُ[3]

ورُوي أن عزَّة قالت لبثينة: تصدَّي لكثير، وأطمعيه من نفسك حتَّى سمع ما تقول ثم أقبلت بثينة وعزة تمشي ورائها متخفية؛ فعرضت له فقال:

---

(١) الأبيات من الكامل، وهي لابن بسام البغدادي في «الوافي بالوفيات» ص (١٧٥٤١)، و«معجم الأدباء» ص (٣٢٢٤).

(٢) البيت من الوافر، وهو لجرير في «نهاية الأرب في فنون الأدب» ص (٢٠٩١)، و«الأغاني» (١٦/ ١٠٤٨٧).

(٣) البيت في «المدهش» لابن الجوزي ص (٨١٢)، و«طبقات الأولياء» لابن الملقن ص (٤٢٣).

رمتنـــي عـــلى عمـــد بثينـــة بعـــدما تـــولى شـــبابي وأرجحـــن شـــبابها

بعينـــين نجلاويـــن لـــو رقـــرقتهما لنـــؤ الثُّريـــا لاســـتهلَّ ســـحابها

فكشفت عزة عن وجهها؛ فبادر وقال:

ولكـــنَّما تـــرمين نفـــسًا مريـــضةً لعـــزة منهـــا صَـــفوها ولُبابهـــا[1]

فضحكت ثم قالت: أولى لك بها نجوت، ثم انصرفتا، وهما يتضاحكان.

ورُبَّما جرب المعشوق عاشقه بحبه إياه بالكلام الغليظ، ليعرف ما عنده من مودته، وهل يغير ذلك شيئًا من محبته أو تحمله الأنفة على مقابلته.

كما حدَّث بعضهم قال: أبصرت في بعض الطرقات بشر من وراء جارية مشرفة من قصر، وهي تقول:

مـــن بخـــل إذا مـــا الفحـــص يـــشفه أوفى عـــلى ظـــاهر منـــه بباطنـــه

هيهـــات أعـــوذني هـــذا فلـــست أرى للعهـــد غـــير قليـــل العهـــد خائنـــه

قال: فرفعت رأسي؛ فقلت: أراكِ غير عذور للحفظ، فأخبرتني تخمديني، فقالت لي ممتحنة لي، وأنا لا أعلم: اذهب يا ابن البطراء ما أنت، وما مقدارك؟

قال: فغضبت، وقلت لها: يا بصراء، أقل جارية لي في داري أجل منك، فضحكت، وقالت: حسبي بهذا الإخبار عن كثير ما في الإضمار.

ومن العشَّاق من يستنكف شيمة معشوقة له.

وقد قال أبو نواس:

إن كنـــت لا ترحمنـــي ســـيدي والقلـــب في منـــزلة صـــعبة

---

(١) انظر: «الأذكياء» لابن الجوزي ص (٢٥١)، و«الأغاني» (٩/ ٥٦٧٧)، و«الكشكول» ص (١٦١١).

فـــيراني كـــما أرى أمتـــي جريـــت بـــين الـــشَّفة العذبـــة

ولبعضهم:

تمارضت كي أشجى وما بك علة تُريدين قتلي قد ظفرتِ بذلكِ

لـئنْ ساءَني ذكـراكِ لي بمساءةٍ لقـد سرَّني أني خطـرتُ ببالـك[1]

وقال كثير:

هَنيئًـا مَرِيئًـا غَـيرَ داءٍ مُخـامِرٍ لِعَـزَّةَ مِـن أَعراضِـنا مـا استَحَلَّتِ[2]

وقال قوم: الحبُّ يطيب بالنَّظَر، ويفسد بالعهر.

واستشهدوا بقول الشاعر:

مـــا الحُـــبُّ إلا قُبَـــلٌ وغَمـــزُ كَـــفٍّ أو عـــضد

مـــا الحـــبُّ إلا هكـــذا إن نُكـــحَ الحـــبُّ فـــسد[3]

وقال آخر:

قـد فـسد الحـب وهـان الهـوى وصـار مـن يعـشق مُـستعجلا

يريـــد أن يـــنكِحَ أحبابـــه مـــن قبـــلِ أن يـــسهر أو يَـــنحُلا[4]

---

(١) البيتان من الطويل، وهما لعبد الصمد بن المعذل في «الأمالي» لأبي علي القالي ص (٧٣)، و«العقد الفريد» ص (١٣٣١).

(٢) البيت من الطويل، وهو لكثير عزة في «أخبار النساء» لابن الجوزي ص (٣٨٨)، و«الشعر والشعراء» ص (١٣٣١).

(٣) البيتان من مجزوء الرجز، وهما للأمين العباسي في ديوانه من قصيدة البيت الأول مطلعها، وفي «أخبار النساء» لابن الجوزي ص (٧٤).

(٤) البيتان لعبد الحميد المَلطي في «المستطرف في كل فن مستظرف» للأبشيهي ص (١٩٠٤)، و«الموشى» للوشاء ص (١٩٦).

وقال المتنبي:

وَما كُـلُّ مَـن يَهـوى يَعِـفُّ إِذا خَـلا عَفافي وَيُرضي الحِبَّ وَالخَيلُ تَلتَقـي[1]

ولآخر:

إلا كـــل شيءٍ مـــن حليلتـــك نلتـــه ولـــو كـــان أدنـــى مرقـــد العـــين نـــافع

وللعباس بن الأحنف:

أَتَـــأذَنونَ لِـــصَبٍّ في زِيـــارَتِكُم فَعِنـدَكُم شَـهَواتُ الـسَّمعِ وَالبَـصَرِ

لا يُضمِرُ السوءَ إِن طالَ الجُلوسُ بِـهِ عَفُّ الضَّميرِ وَلَكِـن فاسِـقُ النَّظَـرِ[2]

ولعمر بن أبي ربيعة:

لعمري إني مـا صـبوت ومـا صـبت وإنّي إليهـــا مـــن صـــبًّا لحلـــيم

ســـوى قبلـــةٍ أســـتغفر الله ذنبهـــا وأطعـــم مـــسكينًا بهـــا وأصـــوم[3]

وقال الآخر:

كم قد ظفرت بمن أهـوى فيمنعنـي منـــه الحيـــاء وخـــوف الله والحـــذر

كم قد خلوت بمن أهـوى فيقنعنـي منـه الفكاهـة والتحـديث والنظـر

أهوى المـلاح وأهـوى أن أجالـسهم ولـــيس لي في حـــرامٍ مـــنهم وطـــر

---

(١) البيت من الطويل، وهو للمتنبي في «البديع في البديع في نقد الشعر» ص (٤٩٧).

(٢) البيتان من البسيط، وهما للعباس بن الأحنف في «الأغاني» (٨/ ٥٥٠٧)، و«الزهرة» ص (١٣٦).

(٣) انظر: «عيون الأخبار» لابن قتيبة الدينوري ص (٢٥٦٤).

كـــذلك الحـــب لا إتيـــان معـــصية لا خـير في لـذة مـن بعـدها سـقر[1]

وصاحب هذا الداء إما أن يكون عنينًا أو رخوًا أو منتكفًا.

وأنشد بعضهم:

مـا يرعَـوَى عـن نيـل معـشوق لـه في النَّـــاس إلا عـــاجز عنـــين

وقال الآخر:

أخبرنـــا عـــن بعـــض أشـــياخه أبـــو بـــلال شـــيخنا عـــن شريـــك

لا يـــشتفي العاشـــق مـــن عـــشقه بالـــضم والتقبيـــل حتـــى ينـــ[2]

ولبعضهم:

شـــفاء الحـــبِّ تقبيـــلٌ وضـــمٌ وجـــرٌّ بـــالبطون عـــلى البطـــون

ورهـــزٌ تـــذرفُ العينـــان منـــه وأخـــذٌ بالـــذوائب والقـــرون[3]

وإن ذهب قومٌ إلى قول النبي ﷺ: **«مَن عشق فعف فمات؛ فهو شهيد»**[4]؛ فليس كلَّ أحدٍ يُحبُّ أن يستشهد، ولا كل من لم يكن شهيدًا دخل النار.

قال الكاتب: العمى والحبُّ بلا نبل كالسَّداء بلا لحمةٍ، وكالأرض بغير سماءٍ،

---

(١) الأبيات من البسيط، وهي لابن عرفة المهلبي في «الوافي بالوفيات» ص (٤٢٨٠)، و«معجم الأدباء» ص (٢٠١).

(٢) كلمة تعني الجماع فضلنا عدم ذكرها.

(٣) البيتان من الوافر، وهما لأم الضحاك المحاربية في «اللآلي في شرح أمالي القالي» للبكري ص ١٢٢٠.

(٤) ذكره المناوي في «فيض القدير» (٦/ ٣٥٨)، والعلجوني في «كشف الخفاء» (٢/ ٣٤٥)، وسنده ضعيف عند أهل الحديث.

والزرع بغير ماءٍ؛ لأن المرأة مثل الأرض، ومثل الرجل عليها كمثل السماء يقطرها، فتنبت أشجارها، ويفجر أنهارها، ويظهر أنوارها.

قال الله تعالى: ﴿فَإِذَا أَنزَلْنَا عَلَيْهَا الْمَاءَ اهْتَزَّتْ وَرَبَتْ وَأَنْبَتَتْ مِن كُلِّ زَوْجٍ بَهِيجٍ﴾ [الحج: ٥].

واعلموا -رحمكم الله- أن النكاح فيه محروم ومرزوق؛ فمن النَّاس من لا يأتيه من يريده إلا بالتعب والنَّصَب والخوف والجزع، ومنهم من يتَّفق له إيتاء شهواته على أفضل مراده، وهو نائم.

كما حُدِّثتُ أنَّه قيل لبعض المجانين: ما تقول فيمن نام في شهر رمضان، فانتشرت آلته، وأخذت زوجته لتجلس عليها، فقعدت عليه، ففزع؛ أفَسَدَ صومه أم لا؟ فقال: والله هذا مرزوق هو عندي.

ويحتاج العاشق إلى الذكاء والبراعة والبلاغة والفصاحة؛ فإنه يبلغ بها في بعض الأوقات ما لا يبلغه الأموال الخطيرة.

كانت عُريب المأمونية تحبُّ محمد بن حامد، وكان يبطئ عليها في الزيارة لحذره من الخليفة وخوفه؛ فكتبت إليه يومًا تستدعيه إلى موضع تواعدا فيه، فكتب إليها يعتذر؛ لخوفه من الخليفة أن ينتهي إليه فيهلكه؛ فكتبت تقول:

إذا كنتَ تحذرُ ما تحذرُ ... وتزعمُ أنك لا تقدرُ

فما لي أُقيمُ على صَبوتي ... ويوم لقائك لا يقدرُ[1]

فصار إليها من وقته.

---

(١) البيتان من المتقارب، وهما لعريب المأمونية في ديوانها من قصيدة البيت الأول مطلعها.

وغضب بعض جواري عليّ بن هشام على عليّ؛ فكتب إليها يقول:

مـــا أُراني إلا سَـــأَهجُرُ مَـــن لَيـــ ـــسَ يَـراني أَقـوى عَـلى الهِجـرانِ

مَلَّنـــي واثِقًـــا بِحُـــسنِ وَفـــائي مـــا أَضَرَّ الوَفـــاءَ بِالإِنـــسانِ[1]

فخرجت إليه من ساعته.

واجتمعت عريب بمحمد بن حامد في خيمة استعارتها من صاحبها، واشتغل بمعاتبتها فالتفتت إليه، وقالت: يا عاجز! خذْ بنا فيما جئنا له، واجعل سراويلي مخنقتي، وألصق خلخالي بقرطي.

ومن أحسن ما سمعنا من لطافة الحسِّ والذكاء في مجالس السماع، ما روي عن المأمون، وقد حضر عنده خواص ندمائه في مجلس الندام منهم محمد بن حامد؛ فغنَّت عريب بعد أصوات كثيرة تقول:

كُليـبُ لَعَمـرِي كـانَ أَكثَـرَ نـاصِرًا وَأَيـسَرَ ذنبًـا مِنـكَ ضُرِّجَ بِالـدَمِ

رَمـى ضَرعَ نـابٍ فَاِسـتَمرَّ بِطَعنَـةٍ كَحاشِـيَةِ الـبُردِ الـيَماني المُـسَهَّمِ[2]

فأشار عليها أن امسكي ثم أقبل على جلسائه؛ فقال: بحياتي أيكم أشار إلى عريب بقبلة، وهو آمن، وإلا ضربت أعناقكم جميعًا، وتُربَةِ الرَّشيد، فقال أحمد أبو عيسى بن الرَّشيد: يا أمير المؤمنين! لا تظلم القوم فمَن هاهُنا يجسُرُ على هذا إلا محمد بن حامد، فقال له المأمون: بحياتي أشَرْتَ إليها بقبلة؟ وأنت آمن، فقال: نعم يا أمير المؤمنين! فقال إبراهيم بن المهدي: بماذا عرفت هذا يا أمير المؤمنين؟

قال: إني أعرف هذه الفاجرة ما تغنِّي صوتًا لا يُقَرَّحُ عليها إلا معنى أو سبب،

---

(١) البيتان من الخفيف، وهما للعباس بن الأحنف في «الأغاني» (٧/ ٤٨١٧)، و«البصائر والذخائر» ص (٢٢٥٨).

(٢) البيتان من الطويل، وهما للنابغة الجعدي في «الأغاني» (٤/ ٣٠١٥)، و«العقد الفريد» ص (٣٨٥٤).

ولم أجد في غنائها بهذا البيت بمعنى إلا طعنة، وهو جواب بمثلها إذا أشار أحد إليها بقبلة فعلمت أن بعض الحاضرين قد أشار إليها، ثم قال المأمون: أيُّكم يرضى أنْ يكون كَشَحانًا حتى أزوجه بعريب؟ فسبق محمد بن حامد، فقال: أنا، فقال: اشهدوا أنَّ قد زوجت هذا الكشحان بهذه الفاجرة.

ويحتاج المتصدِّي لهذا الأمر أنْ يكون كثير الحفظ للأبيات المقطعات المختارة؛ فإن البيت الواحد منها رُبَّما قضى وطره من معاتبة ونحوها.

كما يقول الأعشى:

وَمَـن يُطِـعِ الواشـينَ لا يَترُكـوا لَـهُ صَـديقًا ولـو كـانَ الحَبيـبَ المُقَرَّبـا[1]

وكقول ابن الرُّومي:

أراكـــم تنظـــرون إليَّ شـــزرًا كـــما نَظَـرت إلى الـشَّيب المـلاح

تُحـــدُّون الحـــداقَ إليَّ مقتًـــا كـــأني في عيـــونكم الـــسَّماح[2]

وكقول ابن المعتَزِّ:

وَاِخرُقي كَيفَ شِئتِ خُـرقَ جَهـولٍ إنَّ عِنـدي لَـكِ اِصـطِبارَ لَبيـبِ[3]

وكقول الآخر:

لَيسَ الحِجابُ بِمُقصٍ عَنـكَ لي أَمَـلاً إنَّ الـسَّماءَ تُرَجـى حـينَ تَحتَجِـبُ[4]

---

(١) البيت من الطويل، وهو للأعشى في «عيون الأخبار» لابن قتيبة الدينوري ص (٩٨٠).

(٢) البيتان من الوافر، وهما لمخلد الموصلي في «التذكرة الحمدونية» (٣٠٥٣)، و«التشبيهات» ص (٥٧٢)، ولبكر بن النطاح في «المثل السائر في أدب الكاتب والشاعر» لابن الأثير ص (٤٧٧).

(٣) البيت من الخفيف، وهو لعبد الله بن المعتز في «المنتحل» لأبي منصور الثعالبي ص (٢٩٨).

(٤) البيت من البسيط، وهو لأبي تمام في «أخبار أبي تمام» للصولي ص (١٦١)، و«الأغاني» (١٠٩٠٨/١٦).

وكقول الآخر:

إذا اشـتدَّ عـسرٌ فـارج يُـسرًا فإنـه قـضى الله أن العـسرَ يتبعـه يـسرًا[1]

وكقول البحتري:

أَحنـو عَلَيـكِ وَفي فُـؤادي لَوعَـةٌ وَأَصُـدُّ عَنـكِ وَوَجـهُ وُدِّي مُقبِـلُ
وَإِذا هَمَمـتُ بِوَصـلِ غَـيرِكَ رَدَّني وَلَـهُ إِلَيـكَ وَشـافِعٌ لَـكَ أَوَّلُ
وَأَعِـزُّ ثُـمَّ أَذِلُّ ذِلَّـةَ عاشِـقٍ وَالحُـبُّ فيـهِ تَعَـزُّزٌ وَتَـذَلُّلُ[2]

وكقول الآخر:

وأنـا وإيـاكم عـلى كـل حالـة لمثلان بل أنـتم إلى الـصُّلح أحـوج[3]

وكقول حاتم الطَّائي:

ونفـسك أكرمهـا فإنـك إن تهـن عليك فلن تلقى لها الـدَّهر مُكرِمـا[4]

وكقول الآخر:

سـأكرمُ نفـسي إننـي إن أهنتهـا لعمـرك لم أتـرك لهـا الـدَّهر مُكرِمًـا

وكقول الآخر:

فإنـك لـن تـرى طـردًا لحُـرٍّ كإلـصاقٍ بـه طـرف الهـوان[5]

---

(١) البيت في «الفرج بعد الشدة» للقاضي التنوخي ص (٢٩٥).

(٢) الأبيات من الكامل، وهي للبحتري في «التذكرة الحمدونية» ص (٣٨٥٣).

(٣) البيت لزهير بن أبي سلمى في «خزانة الأدب» لعبد القادر البغدادي ص (١٤٩٣).

(٤) البيت من الطويل، وهو لحاتم الطائي في «محاضرات الأدباء ومحاورات الشعراء والبلغاء» ص (٩٦٩)، و«الحماسة البصرية» ص (٦٥٩)، و«خزانة الأدب» ص (١٩٧٣).

(٥) البيت من الوافر في «الأمالي» لأبي علي القالي (٢/ ١١٥٤)، و«العمدة» ص (٥٩٩).

وكقول البحتري:

إن جــرَى بينَنــا وبينَــكِ عتَــبٌ أوْ تنــاءتْ منَّــا ومنــكِ الــديارُ

فــالوداُ الــذي عهِــدتِ مُقــيمٌ والــدموعُ التــي شــهِدتِ غِــزارُ[1]

وكقول الآخر:

إن كاتمونــا القِــلَى نمَّــت عيــونهم والعين تظهر ما في القلب أو تصف[2]

وكقول دُريد بن الصَّمَّة:

وَلا تَخفــى المــودَّة حَيــثُ كانَــت وَلا النَّظَــرُ الصَّحيحُ مِــنَ السَّقيمِ[3]

وكقول الآخر:

ألم بــهِ لقــد صرتُ عنــده رخيــصًا وقبــل اليــوم قــد صرتُ غاليًــا

ويحتاج إلى حفظ الأصوات المختارة كهذه الأصوات صوت:

ويهتــزُّ للمعــروفِ في طلــبِ العــلا لتُحمــدَ يومًــا عنــد لــيلَى شــمائلهُ[4]

صوت آخر:

يــا عَبــد بِــاللهَ اِرحَمــي عَبــدَكِ وَعَلِّليــــهِ بِمُنــــى وَعــــدِكِ

يُــصبِحُ مَكروبًــا وَيُمــسي بِــهِ وَلَــيسَ يَــدري مــا لَــهُ عِنــدَكِ[5]

---

(١) البيتان للبحتري في «المدهش» لابن الجوزي ص (١٤٧)، و«مصارع العشاق» ص (٥٦).

(٢) البيت في «عيون الأخبار» ص (١٣٤١).

(٣) البيت من الوافر، وهو لدريد بن الصمة في «العقد الفريد» ص (٣٣٩)، و«عيون الأخبار» ص (٢٠٠٥).

(٤) البيت من الطويل، وهو لكثير عزة في «الأمالي» (٢/ ٧١٩)، و«الزهرة» ص (٦٣٦).

(٥) البيت من السريع، وهو لبشار بن برد في ديوانه من قصيدة البيت الأول مطلعها.

صوت:

أفـــسد الحـــج علينـــا نـــسوة رحـــن إلينـــا

نـــسوةٌ مـــن عبـــد شـــمس كـــنَّ الموســـم زينـــا

يتقاضـــون ديونًـــا ثـــم لا يقـــضون دَينـــا

صوت:

أيـا بَـصَري عطفًـا عـليَّ ويـا سـمعي ويـا مـسرفًا عنـد القطيعـة في منعـي

سَلِ المَطَرَ العـامَ الَّـذي عَـمَّ أَرضَـكُم أَجاءَ بِمِقدارِ الَّذي فاضَ مِن دَمعـي[1]

صوت:

وَمُـستَوجِبٍ لِلحُـبِّ شَـتّى غَرائِبُـهُ يُـدِلُّ بِحُـسنٍ مـا تَقَـضّى عَجائِبُـه

ذَخَـرتُ لَـهُ في الـصَّدرِ مِنـي مَـوَدَّةً وَخَلَّيـتُ عَنـهُ مُهمَـلاً لا أُعاتِبُـه[2]

وقال آخر:

لَـوْ كُنْـتُ أَعْلَـمُ أَنَّ آخِـرَ عَهْـدكُمْ يَـوْمُ النَّـوى فَعَلْـتُ مـا لم أَفْعَـل[3]

آخر:

تـــصدُّون عمَّـــن لـــو تـــيقَّن أنَّـــه صـــدود انقطـــاعٍ عـــنكم لتقطَّعـــا[4]

آخر:

---

(١) البيت الثاني من الطويل، وهو لخالد الكاتب البغدادي في «الوافي بالوفيات» ص (٨٢١٤).

(٢) البيتان من الطويل، وهما للعباس بن الأحنف في «العقد الفريد» ص (٤٥٦٧).

(٣) البيت من الكامل، وهو لجرير في «الزهرة» ص (٤١٧)، و«الشعر والشعراء» ص (١١).

(٤) البيت في «التذكرة السعدية في الأشعار العربية» للعبيدي ص (٣٣١).

سـل غـزالا كنـت أهـديت لـه فـردَّه وهلال حلَّ عندي وقدرُه مذهب عنده

آخر:

وقفَ الهَوى بي حيثُ أَنـت فليسَ لي مُتـأخّرٌ عنـهُ ولا مُتَقـدَّمُ

أجـدُ الملامـةَ في هَـواكِ لذيـذةً حُبًّـا لـذِكْرك فَلْيلمنـي اللُّـوم

أشـبهتِ أعـدائي فـصرتُ أحـبّهم إذ كـان حَظِّـي منـك حظِّـي مـنهمُ

وأهنتِنـي فأهنـت نفـسي صـاغرًا مـا مَـن يهـون عليـك ممَـن أُكْـرِم[1]

آخر:

أَدَّت إِلَيَّ رِسـالَةً كـادَت لَهـا نَفـسي تَـسيلُ

إِنَّ الَّتـي أَبـصَرتَها سَـحَرًا تُكَلِّمُنـي رَسـولُ

لَرَأَيـتَ مـا اِسـتَقبَحتَهُ مِـن أَمرِنـا وَهُـوَ الجَميـلُ

فَلَـوَ أَنَّ أُذنَـكَ بَينَنـا حَتَّـى تَـسَمَّعُ مـا نَقـولُ[2]

آخر:

لا خيفـة بـل عينـة وصـيانة بجمالـه

أشـتاقه فـإذا بـدا أطرقـت مـن إجلالـه

فـالموت في إعراضـه والعـيش في إقبالـه

---

(١) الأبيات من الكامل، وهي لأبي الشِّيص الخزاعي في «الصناعتين» ص (٢٤٦)، و«العقد الفريد» ص (٤١٥٧).

(٢) الأبيات من مجزوء الكامل، وهي لأبي نواس في ديوانه من قصيدة البيت الأول مطلعها، و«الزهرة» ص (٢٤٢).

آخر:

هَجَرتِ الحَبيبَ اليَومَ مِن غَيرِ ما اِجتَرَم وَقَطَّعتِ مِـن ذي وُدِّكَ الحَبـلَ فَانـصَرَم

أَطَعتِ الوُشاةَ الكاشِـحينَ وَمَـن يُطِـع مَقالَـةَ واشٍ يَقـرَعِ الـسِّنَّ مِـن نَـدَم[1]

وللنفس صاحب يلوم:

ألم ترهـــا لا يبعـــد الله دارهـــا إذا رجعت في صوتها كيف تصنعُ

تـــردُّ نظـــام القـــول حتَّـــى تـــردَّه إلى صُلـصُلٍ مـن صـوتها يترجَّـعُ[2]

وللأخوص في ملام النفس:

إِنّي لأَنـــصَحُكُم وأَعلَـــمُ أَنَّـــهُ سـيّانِ عِنـدَكِ مَـن يَغُـشُّ وَيَنـصَحُ

وإِذا شَـــكَوتُ إِلى سَـــلامَةَ حُبَّهـــا قالَـــت أَجِـــدٌّ مِنـــكَ ذا أَم تَمـــزَحُ[3]

آخر:

رب ليـــلٍ نـــاعم أحييتـــه في عفـــاف عنـــد قبـــاء الحـــشى

ونهـــار قـــد لهونـــا بـــالتي لا نـرى شـبهًا لهـا فـيمن مـشى[4]

آخر:

---

(١) البيتان من الطويل، وهما لعمر بن أبي ربيعة في «الأغاني» (١/ ٢٢٦)، و«الصداقة والصديق» لأبي حيان التوحيدي ص (٩٥).

(٢) البيتان من لعبد الرحمن بن أبي عمارة في «الأغاني» (٨/ ٥٤٦٧)، و«المستطرف في كل فن مستطرف» للأبشيهي ص (١٨٢٦).

(٣) البيتان من الكامل، وهما للأحوص الأنصاري في «الأغاني» (٣/ ٢٠١١)، و«نهاية الأرب في فنون الأدب» ص (٢٧٥٣).

(٤) البيتان للمهاجر بن خالد بن الوليد في «الأغاني» (١٦/ ١٠٥٣).

لا تَخلُـــدَنَّ إلى أَرضٍ تَهـــونُ بِهـــا بِالـــدارِ دارٌ وَبِـــالجيرانِ جـــيرانُ[1]

آخر:

إذا نَحـــنُ أَدلَجنـــا وَأَنـــتِ أَمامَنـــا كَفـــى لِمَطايانـــا بِرَيّـــاكِ هادِيـــا[2]

كانت عامل جارية زينب بنت إبراهيم الإمام حسنة الوجه والغناء، وكانت كاتبة شاعرة، وكان إبراهيم بن العباس يهواها، وكانت مولاتها تقين عليها، وتخرجها إلى وجوه بسر من رأى، وكانت في نهاية الحسن والإحسان فمالت إليه، وصفت له مودتها، وامتنعت من جماعة كانوا يحبونها، ثم علق جارية كانت للواثق؛ فلما واصل هذه جفا تلك؛ فكتبت إليه لما تبينت جفاه وعرفت خبره:

بـــالله يـــا نـــاقض العهـــود بمـــن بعـــدك مـــن أهـــل ودنـــا أثـــق؟

لا غـــرني كاتـــبٌ لـــه أدبٌ ولا ظريـــفٌ مهـــذبٌ لبـــق

كنـــت بـــذاك اللـــسان تختلنـــي دهـــرًا ولم أدر أنـــه ملـــق[3]

قال: فقال إبراهيم بن العباس: فلما قرأت رقعتها، أخذني نسبة الجنون شوقًا إليها، وخجلاً منها، وغمًّا بما جرى منِّي، فقطعت الواثقية وعدتُّ إليها، ولم أقطعها حتى فرَّق الموت بيننا.

وحدَّث جعفر [أنه] كان للفضل بن الربيع هيفاء حظيَّته، وكانت أحب الناس

---

(١) البيت من البسيط، وهو للشريف الرضي في ديوانه من قصيدة مطلعها:

أَسِل بِدَمعِكَ وادي الحَيِّ إن بانوا إنَّ الدُموعَ عَلى الأَحزانِ أَعوانُ

(٢) البيت من الطويل، وهو لعمرو بن شأس الأسدي في «الأغاني» (١١/ ٧٣١٦)، و«الحماسة البصرية» ص (٩٠٧).

(٣) الأبيات في «الوافي بالوفيات» (١١/ ٧٣١٦)، و«معجم الأدباء» ص (١١٢).

إليه، فكلمها يومًا كلامًا أغضبها، فهجرته فضاق صدره لذلك؛ فكتب إلى أُبي يشكو إليه، فكتب أُبي إليه: لك العز والشرف، ولأعدائك الذل والتلف، استعمل في أمرها قول العباس بن الأحنف:

تَحَمَّـلْ عَظـيمَ الـذَّنبِ مِمَّـن تَحِبُّـهُ وَإِن كُنـتَ مَظلومًـا فَقُـل أَنـا ظـالِمُ

فَإِنَّـكَ إِلا تَغفِـرِ الـذَّنبَ في الهَـوى يُفارِقكَ مَـن تَهـوى وَأَنفُـكَ راغِـمُ[1]

فإنك تعود بها إلى ما تحبُّ طائعة طيِّبة النفْس، قال الفضل لما قرَأ الرقعة: لقد صدق أبو محمد، ودخل إليها فترضَّاها.

صوت:

لا تقعـدن تلـوم نفـسك دائبًـا فيهـا وأنـت بحبِّهـا مـشغوفُ

إن الـصَّريمة لا يقـوم يثقلهـا إلا القـوي بهـا وأنـت ضـعيف[2]

وكتب عليُّ بن هشام إلى جارية متيَّم، وقد غضبت عليه: الإدلال داعية الملال، والتعصُّب زائد في التحبب، فربَّ هجرٍ دعا إلى صدٍّ؛ وإنما سُمِّيَ القلب لتقلُّبه.

وقد أحسن العباس بن الأحنف حيث يقول:

مـا أُراني إلا سَـأَهجُرُ مَـن لَيـ ـسَ يَـراني أَقـوى عَـلى الهِجـرانِ

---

(١) البيتان من الطويل، وهما للعباس بن الأحنف في «الأغاني» (٨/ ٥٥٣٠)، و«محاضرات الأدباء» ص (٢٥٣٢).

(٢) البيتان من الكامل، وهما للكميت الأزدي في «الأغاني» (٧/ ٤٣٥٣)، و«معاهد التنصيص» لعبد الرحيم العباسي ص (١٥١٣).

مَلَّنـــي واثِقَـــا بِحُـــسنِ وَفـــائي مـــا أَضَرَّ الوَفـــاءَ بِالإِنـــسانِ[1]

فخرجت إليه من وقتها.

وغضبت فريدة الواثقية على الواثق؛ فكتب إليها يقول:

لا تَمَنّي الـصَّرمَ مِنّـي أَن تَـرى كَلَفـي وَإِن مَـضى لِـصَفاءِ الـوُدِّ أَعـصارُ

مـا سُـمِّيَ القَلـبُ إِلا مِـن تَقَلُّبِـهِ وَالرَّأيُ يُـصرَفُ والأَهـواءُ أَطـوارُ[2]

فلما قرأت الرُّقعة أمرت، فضربت السِّتارة، وجاءت فغنَّت تقول:

علام صرمت الحبل أو رمت قطعه ولـيس سـواء ذا وصـال وقـاطع

وإني ليثنيني اشـتياق ضـمنته إليـك وقلـب يحـول الـدَّهر فيـه ينـازع

فطرب الواثق وصالحها.

وكانت محبوبة المتوكلة من أحسن أهل زمانها وجهًا وغناءً وشعرًا؛ فقال المتوكل يومًا لعليّ بن الجهم: إني دخلت على محبوبة اليوم، فوجدتها قد كتبت رسالة إليه على وجهها، فلم تر عيني أحسن من ذلك السواد على ذلك البياض، فقُل في ذلك شعرًا، فاستدعى عليّ بن الجهم بالدواة والقرطاس، وذهب لينظم أبيات في ذلك، فارتج خاطره، وسمعت محبوبة من وراء الستارة، فاستدعت بالدواة.

وكتبت تقول:

وَكاتبـةٍ بِالمـسكِ في الخـدِّ جَعفـرًا بِنفسي مخطّ المسكِ مِـن حيـثُ أثّـرا

---

(١) البيتان من الخفيف، وهما للعباس بن الأحنف في «الأغاني» (٧/ ٤٨٤٨)، و«البصائر والذخائر» ص (١٢٥٨).

(٢) البيتان من الخفيف، وهما للأحوص الأنصاري في «الأغاني» (١/ ٤٠١).

لَـئِن كتبـت في الخـدِّ سَـطرًا بكفّهـا لَقد أودعت قَلبي مِن الحـبِّ أسـطرا
فَيـا مَـن لِمملـوك لملـكِ يمينـهِ مُطيـع لـه فـيما أسرَّ وأظهـرا
وَيـا مَـن هَواهـا في الـسريرةِ جعفـر سَقى اللهَ مِـن سـقيا ثنايـاك أظهـرا[1]

قال عليّ بن الجهم: فلما قرأت هذه، صغرت عندي نفسي؛ لجودة بديهة محبوبة، وأمر المتوكل بإنفاذ الشعر إلى عريب لتصوغ له لحنًا، وأمر ألا يغنَّى في ذلك اليوم إلا به، وطرب طربًا شديدًا، وأحسن جوائز حاشيته ووصلهم.

وغضب مرةً المتوكل على محبوبة لشيء بلغه عنها، ونهى جميع من في قصره عن الدخول إليها والكلام معها، قال عليّ بن الجهم: فدخلت عليه يومًا، وهو جالس في حجرة له، وكان يخلو فيها مع ندمائه؛ فقال لي: ألا ترى ما نحن فيه مع محبوبة التي قد استمرت على الغضب، وهي لا تترضاني، والليلة رأيتها في النوم، وكأنَّا قد اصطلحنا، فقلت: أرجو أنْ يجعل الله الصلح في اليقظة فبينا، أنا أخاطبه في ذلك، إذ جاءت جارية، فأسرَّت إلى المتوكل شيئًا، ثم انصرفت، فقال المتوكل: ألا ترى، ما أعجب ما تقول هذه؟ قلت: وما ذلك يا أمير المؤمنين؟ قال: هذه تقول: إن محبوبة جالسة تغنِّي في مقصورتها وتنشد، وهذا من قِلَّة إحفالها بغضبي عليها، فقم بنا يا عليّ حتى نسمع ما تقول؛ فقمنا حتى أتينا إلى شرفتها، فوجدناها تغنِّي هذه الأبيات:

أَدورُ في القـصرِ لا أَرى أَحـدًا أَشـكو إِليـه وَلا يكلّمنـي
حتَّـى كـأنّي ركبـتُ مَعـصيةً لَيـسَت لَهـا توبـةٌ تخلّـصني

(١) الأبيات من الطويل، وهي لمحبوبة جارية المتوكل في «الأغاني» (١٩/ ١٣٠٢٧)، و«أخبار النساء» لابن الجوزي ص (٩٧).

فَهـــل لَنـــا شـــافعٌ إلى ملـــكٍ قَـــد زَارني في الكَـــرى وَصـــافَحني

حتَّـــى إِذا مـــا الـــصَّباحُ لاحَ لَنـــا عـــادَ إِلى هجـــرهِ فَـــصارمني[1]

فقال المتوكل: يا عليّ! أما ترى ما أعجب هذا، فأحسَّ الجواري والخدم، فأعلموا محبوبة، فخرجت إليه، وقبَّلت يديه وصالحته، وأخبرته أنَّها رأته في المنام، وترضَّى عنها، وأخبرها بمنامه واصطلحا.

وما أحسن تعرُّض من قال:

وَإِنّي لأَســـتَبقي وِدادَكَ لِلَّتـــي تُلِـمُّ وَأَرضى مِنكَ دونَ الَّـذي يَكفـي

وَأَســأَلُكَ النِّـصفُ اِحتِجـازًا وَرُبَّـما أَبَيـتُ فَلَـم أَسمَح لِغَـيرِكَ بِالنِّـصفِ

وَإِنّي لَمحـــسودٌ عَلَيـــكَ مُنـــافَسٌ وَإِن كُنتُ أَستَبطي كَثيرًا وَأَستَجفي[2]

ومن أحسن ما استعطف به الأحباب قول الشاعر:

لعلَّـك لـو أبـصرتني بعـد هجعـة وقد نام مـن لم يـدر مـا لوعـة البعـد

رثيـت لمـا ألفـاه مـن فـرط لوعـة وبـدَّلني قربًـا مـن الهجـر والـصَّدِّ

وقال أبو نواس في التدريج من التلويح إلى التصريع:

إِنَّ لي حاجَـــةٌ إِلَيـــكَ إِذا نِمـــ ـــتَ فَـإِن شِـئتَ فَاقِـضِها يَقظانـا[3]

وحُكي أن عيسى بن الفاشي كان يهوى جارية من جواري عائشة بنت

---

(١) الأبيات من المنسرح، وهي لمحبوبة جارية المتوكل في «الأغاني» (٢٢/ ١٤٩١١)، و«أخبار النساء» لابن الجوزي ص (٩٩).

(٢) الأبيات من الطويل، وهي للبحتري في «الزهرة» لابن داود الأصفهاني ص (٣٣٨).

(٣) البيت من الخفيف، وهو لأبي نواس في «قطب السرور في أوصاف الخمور» ص (٨٥٣).

المعتصم، فاشتهر بحبها، فبلغ ذلك عائشة؛ فقالت: لو استهداها مني لأهديتها إليه، وكانت بنت المعتصم شاعرةً ظريفةً أديبةً؛ فكتب إليها عيسى يقول:

يـا بنـت عـمِّ الهاشـمي المُرسَـل ... أخـت الخليفـة جعفـر المتوكـل
بـالله إلا جـدت لي بحبيبتـي ... وبعثتهـا قبـل الـصَّباح المقبـل
ومـري ربيبتهـا تغمـض عينهـا ... عنِّـي وعنهـا سـاعة وتفـضَّل
فلـذلك أجـرٌ لـو علمـت ثوابـه ... لحللـت كمهـا وقلـت لي افعـل

فبعثت إليه الجارية، ومعها الجواب:

يـا ظالمًـا بـالقول مـا تحمـل مـا ... خـاف في شـكواه لـوم العـذل
لا تبدأ من تهوى وكنْ متبصِّرًا ... إن المحـبَّ إذا هـوى لم يعجـل
خمِّـس وعـانق إن ظفـرت بخلـوة ... منهـا وإن غفـل الرقيـب فقبِّـل
قـد باكرتـك بتكَّـة محلولـة ... ورقيبـة عميـاء ذات تململ

ولبعض العرب:

جزى الله خيرًا ذات بعـلٍ تـصدَّقَتْ ... عـلى عـزب كـيما يكـونَ لـه أهـلُ
فإنـا سـنجزيها بـما صَـنَعَتْ بنـا ... إذا مـا تزوَّجنـا ولـيس لهـا بعـلُ
أفيـضوا عـلى عـزّابكم مـن نـسائِكم ... فـما في كتـابِ الله أن يُحْـرَمَ الفـضلُ[1]

ولبعض العرب:

حـدَّثنا الخفـاف عـن وائـل ... وخالـد الحـذاء عـن جـابر
وابـن جـريج عـن سـعيد وعـن ... قتـادة المـاضي وعـن غـابر

(١) الأبيات في «التذكرة الحمدونية» ص (٣٩٢)، و«الصناعتين» ص (٦٥٩).

قـالوا جميعًـا أيـما طفلـة علقهـا ذو خُلـق طـاهر
فواصـلته ثـم دامـت لـه عـلى وصـال الحـافظ الـذاكر
كانـت لهـا الجنَّـة مبذولـة تمـرح في مرتعهـا الزاهـر
وأي معـشوق جفـا عاشـقًا بعـد وصـال نـاعم نـاضر
وأي خشـف خـان ذا خُلَّـة عُـذِّب قبـل الحـشر في فـاتر
ففـي عـذاب اللهّ مثـوى لـه بعـدًا لـه مـن ظـالم غـادر
ثلاثـة لـيس لهـم حرمـة عنـد ذي حـر ولا فـاجر
مخمـس لـيس لـه منـزل وأشـمط دبَّ عـلى زائـر
وشـاطرٌ ليـست لـه حرمـة يكـون فيهـا مـاتى طـائر[1]

وقال أيضًا:

مـا اسـتكمَلَ اللَـذّاتِ إلا فَتـىً يَـشرَبُ وَالمُـردُ نَـداماهُ
هَـذا يُفَدّيـهِ وَهَـذا إذا ناوَلَـهُ القَهـوَةَ حَيّـاهُ
وَكُلَّـما اشـتاقَ إلى قُبلَـةٍ مِـن واحِـدٍ أَلثَمَـهُ فـاهُ
سـقيًا لِـدَهرٍ كُنـتُ فيـهِ لَهُـم مُعـاشِرًا مـا كـانَ أَحـلاهُ
نَـشرَبُها صِرفًـا وَلَم نَقـتَرِع وَشَرطُنـا مَـن نـامَ نِلناهُ[2]

وقال أيضًا:

وزعمـت أنـك لا تلـوط فقـل لنـا هـذا المقرطـق قـائمًا مـا يـصنع

(١) الأبيات لأبي نواس في «تزيين الأسواق في أخبار العشاق» لداود الأنطاكي ص (١٩،٢٠).

(٢) الأبيات من السريع، وهي لأبي نواس في ديوانه من قصيدة البيت الأول مطلعها.

شـــهدت ملاحتـــه عليـــك بريبـــة وعـــلى المريـــب شـــواهد لا تـــدفع[1]

ولبعض الكتَّاب في أيره:

إلى الله أشـــكو صـــاحبًا لي فراقـــه وإن بلـــغ المكـــروه غـــير ممكـــن

تـــراه عـــلى علامـــة الـــدَّهر قـــائمًا كسلخ شجاع رُكبت فوق أرزن

أمـــا في بـــلاد الله فقحـــة كـــافر يُـسكِّن هـذا الـنَّعظ مـن أيـر مـؤمن

حُكي أن أعرابيًّا قدم على المازني؛ فقال: أريد تعرِّفني معنى هذين البيتين، وأنشد يصف الأير:

ولقـد غـدوت بمـشرف يافوخـه عـــسر المكـــرة مـــاؤه يتـــدفق

أرن يـــسيل مـــن النـــشاط لعابـــه ويكـــاد جلـــد إهابـــه يتمـــزق[2]

فقال المازني: هذا فرسٌ؛ فقال الأعرابي: حملك الله عليه.

ولأم الورد العجلانية تصف الأير:

ربَّ غـــــلامٍ قـــــد صرى في فقْرتـــــه

مـــــاء الـــــشباب عنفـــــوانَ شـــــدَّته

يمـــشي بعـــرْدٍ قـــد دنـــا مـــن ركْبتـــه

أقْعـــــسَ لا مـــــنْ أوَدٍ في خلقتـــــه

---

(١) البيتان من الكامل، وهما لأبي نواس في «الأغاني» (١٨/ ١١٩٤٤)، و«محاورات الأدباء» ص (٣١٩٩).

(٢) البيتان بلا نسبة في «التذكرة الحمدونية» ص (٣٥٣٢)، و«شرح ديوان الحماسة» ص (٣٠٦١).

أنْعـــظَ حتـــى اســـتدَّ ســـمُّ فقحتـــه

وارْتفعـــــتْ خـــــصيتُه في عانقـــــه

فهـــــو إذا نضْنـــــضه لدفعتـــــه

ينـــشب في المـــسلك عنـــد رهزتـــه[1]

وقال ابن الرومي:

تتجمَّـــل الحـــسناءُ كـــلَّ تجمـــلٍ حتـــى إذا مـــا أُبـــرز المفتـــاحُ

نَـسيتْ هنـاك حياءهـا وَخَلاقَهـا شَـبَقًا وعنـد المـاح يُنـسى الـداحُ[2]

ولأبي نواس: [...][3].

ولبعضهم في صفة الحِرِّ شعرًا:

جاريـــــة إحـــــدى بنـــــات ضـــــبَّة

خرعبـــــة حـــــسناء مثـــــل اللعبـــــة

شـــاورتها يومًـــا وقـــد تمكَّنـــتُ مـــن الوثبـــة

فانكـشَفَت عـن مـشرق كـالترس مكبوبًـا بـه ضربـة

وقال آخر:

ولهـــا إذا سُـــلَّ الإزار مقعبـــث كالقعـــب كـــبَّ لوجههـــا لم يُرفـــع

ولـــه بريـــق في الظـــلام إذا بـــدا عند ارتفاع الشَّمس رأس الأصـلع

(١) الأبيات لأم الورد العجلانية في «أشعار النساء» للمرزباني ص (٦٤).

(٢) البيتان من الكامل، وهما لابن الرومي في ديوانه من قصيدة البيت الأول مطلعها.

(٣) أبيات فضلنا عدم ذكرها حياءً وتأدبًا.

obeikandl.com

وإذا وضـعتَ عليـه كفَّـك خلتـه ثـديا تكامـل ناهـدا لم يخـشع
وإذا وردت تعـض لا متمنعـا وإذا صـدرت تمـص مـص المرضـع
وإذا عللـت وقـد نهلـت وجدتـه كالنـار في وقـت اللهيـب الأسـقع

وحدث مولى أبي عتيق قال: لما قال عمر بن أبي ربيعة:

مَـن رَسـولي إلى الثُّرَيّـا بِـأَنّي ضِـقتُ ذَرعًـا بِهَجرِهـا وَالكِتـابِ
أَبرَزوهـا مِثـلَ المَهـاةِ تَهـادى بَـينَ خَمـسٍ كَواعِـبٍ أَتـرابِ[1]

بلغ ذلك إلى ابن أبي عتيق؛ فقال: والله، ما أراد سواي، فركب بغلته حتى أتى مكة، فدقَّ باب عمر، وقال: اخرج أنا رسولك الذي أردت، فركب معه حتى أتى به إلى الثريا؛ فأصلح بينهما ثم انصرف إلى المدينة.

عن الزبير قال: أنشد ابن أبي عتيق قول:

لا خـير في عـيش إذا لم يكـن في بيـت هـارون بـن عيـاش
بـين غـلام وغلاميـة كـأنهما غـصن مـن الآس
لا يكـره الغمـزة في بيتـه ولـيس بالقبلـة في بـاش
وربـما صرت إلى خلـوة تجمـع بـين الـراس والـراش

ولأحمد بن أبي طاهر في قوَّادة:

فأرسـلتها أمـضى مـن السَّيف مقـدمًا وأسرع مـن سـيلٍ بليـلٍ إذا احتفـل
تـدبّ دبيـب النَّمـل في كـلّ مفـصل لطافتهـا في الـرَّأي والقـول والحيـل

(١) البيتان من الخفيف، وهما لعمر بن أبي ربيعة في «الكامل في اللغة والأدب» ص (١٠٤٢)، و«بهجة المجالس» ص (٣٦٦).

يـذلّ لهـا الـصّعب الجمـوح قيـاده وتهدي إلى طـرق الـضَّلال فـلا تـضل
يـرى الفطـن الـدَّاهي عليهـا عبـادة إذا مـا رآهـا وهـي أختـل مـن ختـل
وتـستخرج الخـود الكعـاب ودونهـا حجـاب إذا مـا ألقيـت دونهـا الكلـل
يؤلّـف بـين الأسـد والـشّاء لطفهـا ويستنـزل العصماء مـن شـغف القلـل
ولـو أنّهـا شـاءت بـأهون سـعيها لألّفـت الـذّئب الأزل مـع الحمـل
ولـو حمـلاً صـعبًا ازدادت تجـئ عـلى روعـان منـه لاسـتنوق الجمـل
يغـرّ العيـون زهـدها وخـشوعها وتسبيحها عند الشّروق وفي الأصـل[1]

وقال اليمامي:

وقائـل عمـرو قـوادة فقلـت لا تفـرطن فـما عمـرو بقـواد
لكنـه رجـل يخليـك منـزله بـدرهمين ومـا يبقـى مـن الـزاد[2]

وقال الأخفش:

وَلَيلَـةٍ قَـصَّرَ في طولِهـا بِـالكَرخِ أَن مُتِّعـتُ مِـن رُؤيَتِـه
وَكُلَّـما عَـضَّضَ تُفّاحَـةً قَبَّلـتُ مـا يَفـضُلُ مِـن عَـضَّتِه
حتَّـى إذا ألقـى قِنـاعَ الحَيـا وضـارَ كَـسرُ النَّـومِ في مُقلتِـه
ملكنـي حبـل سراويلـه وأشـغلته الـرَّاح عـن تكتـه
فَـصارَ لا يَـدفَعُ عَـن نَفـسِهِ وَكـانَ لا يَـأذَنُ في قُبلَتِـه
عَجِبـتُ مِـن إبلـيسَ في تيهِـهِ وَخُبـثِ مـا أَظهَـرَ مِـن نِيَّتِـه

(١) الأبيات لأحمد بن أبي طاهر في «أخبار النساء» ص (٤٠٦).

(٢) البيتان لعبد بن وهب في «أخبار النساء» ص (٤٠٩).

تـــاهَ عَـــلى آدَمَ في سَـــجدَةٍ وَصـــارَ قَـــوَّادًا لِذُرِّيَّتِـــه[1]

وقال زيد بن عمير الخَزاعي:

تقود إذا حاضت وإن طهُرَت زنت فهـي أبـدًا يُزنَـى بهـا وتقـود[2]

غيره:

أنـت يـا شـيخُ نـائمٌ فتنبَّـهْ وانتـصِحْنِي فلـسْتُ مـن غُـشَّاشِك

لـك أُنْثـى تَزِيـفُ في كُـلِّ عُـشٍّ وتُـربِّي الفـراخَ في أعـشاشِك[3]

وقال عنترة بن شدَّاد:

فَبَعَثْتُ جـارِيَتي فَقُلـتُ لَهـا اِذهَبـي فَتَجَسَّـسي أَخبارَهـا لِيَ وَاِعلَمـي

قالَـت رَأَيـتُ مِـنَ الأَعـادي غِـرَّةً وَالـشاةُ مُمكِنَـةٌ لِمَـن هُـوَ مُـرتَمِ[4]

وقال الأخفش لأبي نواس:

هـل مـن رسـول لطيـف إلى غـزالٍ عنيـف

لـسانه مـذيٌّ وقلبـه قلـب كـوفي

في حـدِّ رفـق عجـوز وفي خـسارة صـوفي

---

(١) الأبيات من السريع، وهي لأبي نواس في «الشعر والشعراء» ص (٩٤٠)، و«الكشكول» ص (٨٦٨).

(٢) البيت من الطويل، وهو لزيد بن عمير الخزاعي في «عيون الأخبار» ص (٢٥٨٦)، و«العقد الفريد» ص (٤٧٣٤).

(٣) البيت من الخفيف، وهو لابن الرومي في «نثر النظم وحل العقد» لأبي منصور الثعالبي ص (٣٧٠).

(٤) البيت من الكامل، وهو لعنترة بن شداد في «منتهى الطلب من أشعار العرب» ص (٢٥٦).

لـــــه سريـــــرة ذئـــــبٍ وســـــمت قـــــسّ عفيـــــف
تكامـــــل الظُّـــــرف فيـــــه ففـــــاق كـــــلَّ ظريـــــفٍ[1]

وأنشد الأخفش للعقيلي إلى قوّاده:

ألا أسـعدا عينـي مـن نـاح أو نَـدَب وجودا بدمع كلَّما استمطر انجذب
على عصمة العـشاق ماتـت فودَّعـت فكـلّ بهـا والحمـد لله قـد كـرب
وكانت إذا العشاق ضـاقت أمـورهم تراها لهـم تـسعى هنـاك وتـضطرب
فيـا عـزَّ مـن للهجـر يـصلح أمـره وقد ركبوا يومًا على وجهـك التُّرب
كـأن لم تروحـي قـطُّ بـين حبيبـة وبـين حبيـب بالرسـائل والكتـب
ولم ترجعي سخط الحبيب إلى الرضـا فيصبح منهم راضيًّا كل مـن غـضب

وقال ابن الحاجب:

زنـــت الـــدهر ثـــم قـــادت فلـــما قـــادوا الـــركبتين منهـــا فتـــور
تمحقـــت للمختشـــين رمـــادًا فعـــلى طمِّهـــا تَـــشِبُّ الأيـــور

وللبحتري في أعمى:

إِنَّ إِخوانَـــكَ المُقيمـــينَ بِالأَمـــ ـــسِ أَتَـــوا لِلزِنـــاءِ لا لِلغِنـــاءِ
قَطَعـــوا أَمـــرَهُم وَأَنـــتَ حِمـــارٌ مـــوقَرٌ مِـــن بَـــلادَةٍ وَغَبـــاءِ
هَبـكَ تَستَـسمِعُ الحَـديثَ فَـما عِلـ ـــمُكَ فيـــهِ بِـــالغَمزِ وَالإيـــماءِ
والإشـــارات بِـــالعُيونِ وَبِالأَيـــ ـــدي وَأَخـــذِ الميعـــادِ لِلإِلتِقـــاءِ

(١) الأبيات بلا نسبة في «أخبار النساء» لابن الجوزي ص (٤١٠).

أَنـــتَ أَعمـــى وَلِلزُنـــاةِ هَنـــاتٌ مُنكَـــراتٌ تَخفـــى عَـــلى البُـــصَراءِ[1]

ولدعبل في قوَّادة:

دســـست إليهـــا ســـحة عدفليـــة تعصب بهـا الأجفـان والعظـم بـارز

مـضى خيرهـا إلا الترفـق في الهـوى تكيـــد بلطـــف مـــرة وتزامـــز

وقـــوع مـــا تهـــوى إذا مـــا تمكنـــت وتـــسمع مـــا تـــشتهي فتحـــاجز

وتهـــزل أحيانـــا إذ مـــا تحـــدَّثت فيبلـــغ أقـــصى خـــدها وتجـــاوز

تـــدبُّ إليـــه بالخديعـــة والرُّقـــا وتعـــرض أحيانًـــا وحـــين تنـــاجز

وقال رجل من أهل المدينة لزيد: بلغني أنك جمعت البارحة بين فلان وفلانة في منـزلك، قال: كان ذلك، لكن سمعت الخبر أنَّهما لما أكلا وتحدَّثا ساعة من الليل، قالا لي: جئنا بنبيذ؛ فقلت لهما: الوقت قد ضاق من التماس ذلك، وما عندي منه شيء، فقالا: والله لأن لم تفعل ذلك، يلحقك منا ما لا قبل لك به؛ فذكرت قطعة حضض أهديت إليَّ، فقلت لهما: قد عرفت لكما نبيذًا في موضع، وقمت فجعلت الحضض في إجَّانة، وصببت عليه الماء، ومرسته حتى انماع، وجئتهما به في قينة؛ فقالا: هذا غاية غير أنَّه شديد المرارة، فلما شربا منه قدحين احتاجا إلى القيام، وكان المستراح في أعالي الدار يُرتَقى إليه بسُلَّم، فوَحقِّ القبر ومن فيه منذ شربها إلا على السُّلم.

كان بمدينة السلام شخص يعرف بالغيور، وكان عنده من الجواري عدد كثير ذوات حسن وجمال، وكان خبره فاشيًا يقصده المتصون وغيره؛ فبلغ رجل من الكتَّاب

(١) الأبيات من الخفيف، وهي للبحتري في «الأمالي» للزجاجي ص (١٣٩)، و«طوق الحمامة» لابن حزم ص (٣٢١).

المشهورين خبره، فتشوَّقت نفسه إليه وإلى قصده، ثم تجنبه لما شهر به، فحمل نفسه على أن جعل بينه وبين الرجل حالاً بأن دعاه وبرَّه ووصله، وكان قصد النَّاس منـزله آثر عندهم من دعا من يدعونه من جواريه لما يجتمع لهم فيه.

قال الكاتب: كان يسألني المصير إليه، وأقشعر لشناعة لقبه إلى أن لقيني يومًا بالقرب من منـزله، فحلف على ألا أفارقه، فكان ذلك صادف منِّي موافقة، فمضيت معه فرأيت أحسن منـزل وآله، فلما استقر بنا الجلوس، قال لغلماني: إذا كان في غد فبكِّروا، وتعالوا بالدواب فاستوحشت، وقلت: بل يقيم عندي بعضهم، ويعود الباقون لأنصرف إلى منـزلي، فأبى وحلف وجرَّد، فاتَّبعت ما أراد، وأحضر أحسن طعام وألطفه فأكلنا، وأتى بأنواع الأشربة والفواكه والرياحين فأخذنا في أمرنا، وخرجَت وجوه كالشموس من كل ضِرب.

وكنت عند دخولي إلى الدار قد رأيت على بعض الأبواب طبلاً معلَّقًا؛ فظننته لبعض الجواري، فلم أسأل عنه، فلمَّا قعدنا على حالنا، وأخذ النبيذ فينا، أحضر عمودًا فجعله بين يديه فأوحشني جدًّا، وقلت: رجل غيور كما لُقِّبَ، وجواري حسان، ونبيذ شديد، ولست آمن أن أعبث بهن؛ فيعارضني فيضربني بالعمود مع النبيذ.

فقال: أخبرك يا أخي، أنا رجل غيور كما قد بلغك، ويحضر منـزلي قوم معهم سوء أدب، فما هو إلا أنْ تغنِّي الجارية حتى أرى الواحد منهم قد لاحظها، وضحك في وجهها وضحكت في وجهه، فأقول أقوم بهذا العمود؛ فإنما هي ضربة له وضربة لها فأفلهما، وأستريح إلا أنني على ما ترى رجل معي تأن شديد، فأقول شرب الرجل وضحك، ولعله يعرفها وتعرفه، فضحكَت إليه وضحك إليها، فلما ذكر هذا الحديث طابت نفسي، وأصغيت إلى حديثه؛ فقلت له: ثم ماذا؟ فقال: الأمر يزيد إلى أن أراه قد

دنا إليه؛ فسارَّها وسارَّته فتقوم عليَّ القيامة، وأقول ضحك إليها وضحكت إليه للمعرفة، فما هو موضع السِّرِّ ثم ما هو موضع السِّرِّ ثم أهمُّ بالعمود.

والتأنِّي الَّذِي فيَّ لعله طالبها بصوت تغنِّيه؛ فأمسك فلا يطول الأمر بينهما حتى أراه قد أدخل يده في ثوبها فقرصها، وعبث عليها فتداخلني الغيرة، فأقول: ليس بعد هذا شيء، وأهم بضربهما بالعمود إلا أني على ما ترى من التأني، فأقول بعد: لم يبلغ الأمر بينهما إلى القتل، وهذه أوائل وسوف لها أواخر؛ فإذا رأيتُ ما يوجب القتل قتلتهما، فاسترحت فلا يطول بينهما الأمر حتى أرى الواحدة قد قامت وقام الرجل في أثرها، فيدخلون في ذلك البيت وبابه وثيقًا جدًّا، فأسعى خلفهما بهذا العمود لقتلهما ألبتة، فيسبقاني فيغلقان الباب، وأبقى أنا خارجه، وأنا غيور كما قد علمت، فأقول: متى سمعت حركتهما هلكت، أو قتلت نفسي، فلا يكون لي، والله يا أخي! اعتصام إلا بذلك الطبل المعلَّق، فأتناوله وأضعه في عنقي، فلا أزال أضرب به حتى يخرجا، قال: فما قمت والله غير طمأنينةٍ، ولم أر أوفى منه قولاً وفعلاً.

وبلغني عن بعض الملوك أنَّه عشق خالته، فشكى ذلك إلى بعض خاصَّته، فقال له: إذا دخلَت عليك أيها الملك في لون من الملابس، فقل لها: يا خالة إذا دخلت عليك مرة أخرى في مثله بعد ذلك؛ فهي ممكنة مِمَّا يؤثِّر، وإن هجرت ذلك الزِّي فيما بعد، فلا سبيل إليها، فلما فعل الملك ذلك لم تعد تظهر له إلا بذلك الزيِّ، فأعلم مشيره بذلك؛ فقال له: الآن تعدّ لك أيها الملك! ما تريده، فاطلب منها أن تعمل لك دعوة عندها في الدار، فما بقي لك إليَّ من حاجة؛ لأنَّها تستخلو بك عن قصد منها وإرادة، وإن عملت الدعوى في غير دارها؛ دبرت لك أمرًا غير ذلك.

فعملت الدعوى في دارها، فأشار عليه صاحبه بأن يظهر الانتشار والسُّكر

الكثير إذا شرب معها، فأدارت الخمرة، وليس عندها غير جواريها؛ اظهر النوم، وانهض متَّكِئًا على يدها إلى المضجع الَّذِي قد هيأته لك، وليس معكما ثالث؛ فإذا دخلت في فراشك وولَّت لتخرج، فقل: إني لأشتهي أن تغمزيني بيديك اللطيفتين، فإذا جلست، وأخذت في تغميزك؛ فاستطب ذلك منها، والتذ به، وقدْ إلى فوق حتى يتوسط بيدها فخذيك، فمد يديك، واقبض على يدها، واجذبها إليك، فإذا صارت معك في الفراش؛ فجرِّدها عن ثيابها، ففعل الملك ذلك، وتعدَّ له ما أراد منها.

وجرى مثل ذلك لبعض الملوك الَّذِين لا يزوجون بناتهم تكبُّرًا وتجبُّرًا؛ لأنهم لا يرون أحدًا كفؤًا لهم، وذلك أنَّه عشق عمَّته؛ فقال لبعض خاصَّته: إن في دار الملك من يحبه، ويستحيي من مراودته؛ فكيف السبيل إلى استدراجه؟ فقال: تجلس أيها الأمير في معطرة مشرفة على الإصطبل، وتأمر بإحضارها عندك، وتجلسان على شراب حلو ثم تأمر بإحضار الحِصِن لتقفيزها على الحجورة، وتكونان جميعًا تنظران إليهم من شباك، فإذا رأيتها، وهي تجمع فخذيها، فدونك تناول ساقيها؛ فإنها لا تمتنع عليك لاهتياج غلمتها، فلما فعل ذلك الملك لم يجد منها ممانعة؛ فوطئها فلم يجدها بكرًا؛ فقال لها: يا عمَّة! ما أراك بكرًا؟! فقالت: ما ترك أبوك في دارنا ذكرًا ولا أنثى.

وهذا انتهاء الجزء الأوَّل يتلوه أول الثاني الجملة الأولى في ذكر المفردات، والله وليُّ النعمة والتوفيق.

* * *

بسم الله الرحمن الرحيم

الجملة الأولى من الجزء الثاني

في ذكر المفردات المعينة على الباءة

أما من الحبوب مثل الحمص واللوبيا الباقلاء.

وأمَّا من البزور مثل بزر الأنجرة، والجرجير، والنعناع، وبزر الشلجم، والكرنب، والترمس، وبزر الهليون، والفجل، والرطب، وبذر البطيخ، وبزر الكرفس، والقردمانا[1] ، والفلافل، ودار فلفل، وبزر الكتَّان، والسِّمسم، وحب الرشاد، وحب الزلم، والحلبة خصوصًا المطبوخة بالعسل.

وأمَّا القشور، والحشيش، والدار صيني، والصاصفراس[2]، والبسباسة[3] ، والحسك.

وأمَّا الصموغ فكالكثيراء[4]، والحلتيت؛ فإنه نافع جدًّا، وإذا شرب المبرد الحلتيت بالشراب نفعه نفعًا عظيمًا.

---

(١) قال إسحاق بن عمران: هي حشيشة تشبه حشيشة البابونج في خلقتها ولها ورق أخضر وقشر وقضبان مدورة معوجة صفراء إلى البياض.

(٢) قال في غاية البيان: هو بلغة التركمان ما معناه: شجر شريف، لم يذكر في كتب الأوائل لأنهم لم يجدوه ورائحته كرائحة السيباس، وأصله من الهند الجديد ينبت فيها، ويعتقد البعض أنه ينفع في علاج الأمراض المختلفة.

(٣) قال الإسكندراني: البسباسة مركبة من جواهر مختلفة لما فيها من الأرضية الكثيرة الباردة واللطافة والحرارة اليسيرة متيبس لذلك يبساً قوياً وتخلط في الأدوية التي تنفع من استطلاق البطن وهي في اليبوسة في الدرجة الثانية، وأما في الحرارة والبرودة فمتوسطة لا يغلب أحدهما الآخر.

(٤) قال إسحاق بن عمران: الكثيراء هو ثلاثة ضروب بيضاء وحمراء وصفراء.

وقال حبيش: فيه شيء يسير من حرارة ورطوبة تسهل الطبيعة وتنفع من قروح الرئة وتقوي الأمعاء إلا أنه يزيد في الخلفة وينفع من قروح العين والبثر والرمد إذا أنقع واكتحل به وبمائه أو جعل مع بعض الذرورات وتصلح للأدوية المسهلة الحادة إذا خلطت بها وتدفع مضارها وتمنعها من أن تحمل على الطبيعة حملاً شديداً.

وأمَّا من الأصول [.....]؛ فمثل أصول اللوف، والبهمان، والروبيان[١]، والقسط الحلو، وخصى الثَّعلب؛ فإنه قويٌّ في الإنعاظ، والهيلون، وأصل الحرشف، والشَّقاقل، والزَّنجبيل، وخصوصًا المربين، والعاقر قرحا، وأصل الحسك، والمرّ[٢]، والأسارون، والبصل، وخصوصًا المشوي، والإسفيل، والسُّورنجان[٣]، والمغات،

---

(١) هو سمك بحري تسميه أهل مصر الفرندس وأهل الأندلس يعرفونه بالقمزون.
وقال الرازي: يزيد في الباه ويسخن الكلي والأرحام فيعين على سرعة الحبل لكنه في هذه الحال لا ينبغي أن يتخذ بالخل بل يسلق سلقاً بليغاً، ثم يتخذ منه عجة بدهن الجوز وصفرة البيض ويجعل معه شيء من البصل والكراث.

(٢) قال ديسقوريدوس في الأولى: هو صمغ شجرة تكون ببلاد الغرب شبيهة بالشجرة التي تسمى باليونانية بالشوكة المصرية تشرط فتخرج منها هذه الصمغة وتسيل وتصير على حصر وبواري قد بسطت لها ومنها ما يجمد على ساقها، ومنها ما يسمى ودنانستاس وهو دسم ومنه تخرج الميعة السائلة إذا عصر ومنه ما يسمى عابيدا وهو دسم جداً وشجرته تكون في أرض طيبة سمينة، وإذا عصر ماؤه أخرج ميعة سائلة كثيرة وأجوده المر الذي يقال له طرعلود وطيقي، ويسمى بهذا الاسم في البلاد التي يكون منها ولونه إلى الخضرة ما هو لذاع صاف ومنه ما يقال له ليطي وهو بعد الأول وفيه لين تحت المجسة مثل ما لمقل اليهود في رائحته شيء من زهومة وشجرته تكون في مواضع شمسية ومنه ما اسمه قوقاليس وهو حسن جداً أملس أسود كان فيه أثر تلويح النار، وأردأ ما يكون من المر هو الذي يقال له أرغاسيتي وهو هش ليس بدسم حريف يشبه الصمغ في المنظر والقوة والمر الذي يقال له أمني هو أيضاً مرذول وقد يعمل أقراص من ثفل المر، فإن كان المر دسماً فإن الأقراص طيبة الرائحة، وإن كان يابساً لا تكون طيبة الرائحة ولا دسمة ولا ضعيفة القوة لما خلط فيها من الدهن لما قرصت وقد يغش المر بصمغ قد أنقع في ماء المر فاختر من المر ما كان حديثاً هشاً خفيفاً لونه واحد، وإذا كسر كان في كسره أشياء بيض شكلها شكل الأظفار أملس صغير المحاجم مر طيب الرائحة حار مسخن وأما ما كان منه ثقيلاً لونه مثل لون الزفت فلا خير فيه.

(٣) أي: العكبة بالديار المصرية، واللعبة البربرية عند أطباء العراق.
ديسقوريدوس في الرابعة: فلحيقن ومن الناس من سماه بلبوسا ومنهم من سماه أقيهارون وهو نبات يظهر له زهر في آخر الخريف لونه أبيض شبيه في شكله بزهر الزعفران ومن بعد ذلك يخرج ورقاً شبيهاً بورق البلبوس وفيه شيء من رطوبة يدبق باليد وله ساق طوله نحو من شبر وعليه ثمر لونه أحمر قاني إلى السواد وأصل عليه قشر في لونه حمرة وإذا قشر الأصل ظهر باطنه أبيض وهو لبن حلو ملآن من رطوبة وهو مستدير شبيه ببصلة البلبوس ويخرج من وسطه الساق وعليه زهر وكثيراً ما ينبت هذا النبات في المكان الذي يقال له قلخى، وفي البلاد التي يقال لها =

واللعبة البربرية خاصَّة؛ فإنها تهيِّج كحرارة الشُّراب في جميع البدن، والسُّعد أيضًا شرابًا ومسحًا.

وأمَّا الربوب؛ فمثل حبِّ الصَّنوبر، ولسان عصفور[1]، وحبة الخضراء، وحب فلفل، والبندق.

وأمَّا الفواكه؛ فمثل العنب الحلو، وخاصَّة الحديث؛ فإنه جيد للباءة لأنه غذاء الدم رطوبةً وريحًا مع حرارة، وماؤه غذاء.

وأمَّا من البقول؛ فالجرجير، وخصوصًا إذا شرب كل غداة من عصارته مع رطل نبيذ العسل ثم يعتنى ببعض الأغذية البائية؛ فإنه سريع النفع، والحسك، وخصوصًا ماؤه بالعسل المطبوخ حتى يصير لعوقًا؛ فإنه نافع.

وأمَّا من الأشربة؛ فالشراب الحديث، والأشربة الحلوة المتَّخذة من الزبيب الصادق الحلاوة الَّتي لها غلظ مأكلها توافقهم.

وأمَّا من الَّذِي قد طغى فيه الحديد، والماء الجاري على تربة جديدة.

ماشنينا وإذا أكل قتل بالخنق كمثل ما يقتل الفطر وإنما ذكرناه في كتابنا هذا لئلا يغلط أحد فيأكله بحساب البلبوس فإنه مشتهي لذيذ يدعو إلى أكله من لم يجربه في علاجه وعلاجه كعلاج أكل الفطر وينتفع به أيضاً بلبن البقر إذا شربه وإذا استعمل لبن البقر في هذه العلة لمن يحتج معه إلى غيره من العلاج في باب أقيمارون. جالينوس في السادسة: الدواء الذي يقال قلحيقون دواء قتال. نقل ابن البطريق في ترجمته الأدوية عن جالينوس له قوة مسهلة وكذلك الماء الذي يعمل به ويعطى خاصة لمن به وجع المفاصل في أوقات النزلات بعينها وهو رديء للمعدة جداً. الغافقي: السورنجان أصل كالقسطلة في الشكل عليها قشر كقشرها ويجرد عن مثلها هكذا يكون في زمن الخريف ثم يطلع من عرض القسطلة حذاء أطرافها المحملة نورة لاصقة بالأرض على هيئة السوسنة البيضاء وردية اللون وربما كانت بيضاء وصفراء، فإذا جفت أبدت ورقاً كورق العنصل أو أغلظ منه لاطئاً بالأرض وذلك زمن الربيع وتعود حينئذ تلك القسطلة التي كانت أصل هذا النبات بصلة كبصلة العنصل ثم لا تزال تتلاشى هذا البصلة حتى تجدها زمن الخريف قسطلة والمستعمل من هذا النبات أصله إذا كان في شكل القسطل وأكثر ما ينبت في سطوح الجبال.

(١) هو ثمر الدردار أي بزر الداردار، يزيد في الباءة وينفع من الخفقان ووجع الخاصرة ويدر البول ويفتت الحصا.

وأمَّا من الحيوان فالسقنقور، والورل[١]، والضَّب، والمختار من السقنقور أصل ذنَبه وسرَّته وكُلاه وملحه، والسمك البحرِي، والمرداسنج، والكُوسج، والسمك الحارّ الطري، وألبان الإبل تُشرب عشرون يومًا كل يومٍ مقدار ما يهضم ولا يُثقل، والسمك الصغار الهاربي مجففًا[٢]، والشَّربة سبعة دراهم بيض السمك وبيض الحجل، وبيض الحمام، وبيض العصافير، وبيض الدجاج، وجميع الأدمغة، وخصوصًا من العصافير، والفراخ والبطِّ والحملان مع ملح الورل وملح السقنقور، وأيضًا تخفف نفحة الفصيل، ويُؤخذ منها قبل الحاجة باثني عشر ساعة قدر حمَّصة تداف بأربع أواقٍ ويُشرب؛ فإن أذى اغتسل بالماء البارد، وقضيب الفرس مشويًّا بملح السقنقور أو الورل يُقوِّي الباءة، وكذلك أمراق البقر سكباجة، ولحم الجُزُور والجزر ناضجًا، وأيضًا العسل يُتَّخذ منه ماء يُغير أفاوية، ويُشرب بالأدهان، وإن كان فيه قليل زعفران أصلح، ومن الأدهان دُهْن البان، ودُهْن حبة الخضراء[٣]، ودُهْن الفستق، ودُهْن اللوز، ودُهن الصنوبر، ودُهْن الجوز الهندي، ودُهْن البندق، ودُهْن لوز تمر البلاذر.

فأمَّا دُهن بزر البطيخ الهندي؛ فنافع للحروريين.

ومن البلاد مكة والمدينة ومدينة السلام؛ فإن المقام بها يُقوِّي على الباءة.

ومن الكتب كتاب «أخبار النِّساء» لابن الجوزي، وكتاب «جوامع اللذَّة» لابن نصر الكاتب؛ فإن في هذين الكتابين أخبارًا تهيِّج سامعها ما لا يُهيِّجه غيرها من الأدوية.

وأمَّا المسهِّلات؛ فمن احتاج إلى تناول مسهِّل مِمَّنْ رغب في تقويته على الباءة؛ فليُسهل على الخاصة.

---

(١) قال المجد في القاموس: مُحَرَّكةً دابَّةٌ كالضَّبِّ، أو العظيمُ من أشكالِ الوَزَغِ، طويلُ الذَّنَبِ صغيرُ الرأسِ، لَحْمُهُ حارٌّ جِدّا، يُسَمِّنُ بقُوَّة، وزِبْلُهُ يَجلو الوضَحَ، وشَحْمُهُ يُعَظِّمُ الذَّكَرَ.

(٢) انظر: القاموس المحيط (٢/ ٤٤٠).

(٣) هي تسخن وتلين وتنضج وتنقي، وفيها قبض وجلاء قوي وتفتيح جيد وتجذب من عمق البدن وتهيج الباه.

ومن المفردات المعينة على الباءة ما كان شديدًا من الظباء الإنسية؛ فأعظم المفردات والمركبات إعانة على الباءة، وتوليد الإنعاظ، والجوز الناهد الزانية يعني جوذر[١] المتبسمة عن الإقحوان[٢] المغنية بطيب نغمتها عن القمري والهزاز والبلبل.

ففي مثل هذه الصِّفة أنشدني أبو عبد الله بن شبب صاحب «المخزن» سداد لنفسه يقول:

لحم السقنقور ساق مـدملج مقفـول ما كان كفُّك فيه من قبل ذاك يجول

***

(١) قال سليمان بن حسان: هي شجرة صغيرة مشوّكة لا ارتفاع لها أغصانها حمر وهي غليظة الأصل وورقها شبيه بورق الكمثري البري وله ثمر أغبر اللون مدور يؤكل قابض عاقل للبطن ويعمل منه سويق كما يعمل السويق من النبق لسيلان البطن وهذا النبات كثير بالزاب وناحية القيرون. أبو العباس الحافظ: ثمر الجوذر على ضربين والشجرة واحدة منه ما يكون ثمره على شكل ثمر السدر ونواه لاطيء ولونه أخضر ثم يحمر إذا انتهى حمرة مسكية مليحة وطعمه مر ومنه ما ثمره لاطيء مستدير عدسي الشكل أخضر ثم يحمر إذا انتهى اسود ويحلو وقبل ذلك هو مر قابض جداً، وهذا ينتهي في فصل الربيع، والعدسي ينتهي في فصل الشتاء ويسمى الثمر المستدير منه بالبرية تارخت، والعدسي منه يسمى الصمخ ويؤكل ببرقة والقيروان وببلاد البربر كثيراً وشجره في العظم والقدر على قدر شجر زعرور الأودية إلا أن الجوذر أعظم وأكبر وورقها كورق تلك أو نحو ذلك وعودها أحمر.

(٢) هو عند العرب البابونج المعروف بمصر وهو الكركاش، وهو أنواع فبعض شجاري الأندلس جعل الأقحوان نوعاً صغيراً من أنواع الكركاش، وزعم قوم أن المراد به ما تحت هذه الترجمة وليس الأمر كما زعم لأن الدواء المذكور تحت هذه الترجمة وهو المسمى باليونانية قربانيون ليس من أنواع الكركاش، وإنما هو على الحقيقة النبتة المعروفة بالأندلس اليوم وما قبله لشجرة مريم وتعرف بأفريقية وأعمالها بالكافورية.

الجملة الثانية من الجزء الثاني

في صفة أدوية وأغذية وطبائخ وحلاوات وأشربة مقوِّية على الباءة

دواء السقنقور نافع جدًّا، وكذلك المثرود، وكذلك ثلاث مثاقيل من جوارش البزوز بأوقية ماء الجرجير الرَّطب، ودواء المسك نافع لمن كان عن ضعف قلب، صفة معجون اللبوب، وهو من أجود الأدوية لوز بندق مقشر، وفستق، ونارجيل[1] مقشر محكوك، لوز صنوبر، وحب فلفل، وحب الزَّلَم، والحبة الخضراء أجزاء سواء، ومسك، ودار فلفل من كل واحد جزء، يُدَقُّ الجميع ويُعجن بفانيد، والشَّربة خمسة دراهم إلى السَّبعة كل يوم، وإن أُضيف إليه عُشر جزء بزر الفجل كان أقوى عملاً.

صفة دواء آخر يُقوِّي على الباءة: يُؤخذ رطل تمر برني منـزوع النَّوى ويُدَق، ويُضاف إليه مثل نصفه لبُّ حبَّة الخضراء ويُنقعان في رطلان لبن الضَّأن حليب ستَّة ساعات ثم يُؤكل المنقوع في يومين، ويُشرب ما عليه من اللبن عَقِيب أكله.

صفة دواء غير شديد الحرارة: تُطبخ الحلبة والتمر البرني حتى ينضحا ثم يُؤخذ التمر، ويُخرج عنه النَّوى ثم يُجفَّف، ويُدَق - أعني: الحُلبة- ويُعجن بعسل، والشربة منه خمسة دراهم، ويُشرب عليه النبيذ.

صفة دواء آخر لمن أفرط به البرد: [ثلاث دراهم أترج] يُذاب في أوقية ماء طبيخ المرزنجوش، ويُضاف إليه درهم بزر البصل مدقوقًا منخولاً، ويُشرب ذلك ثلاثة أيام.

صفة دواء آخر قوِيٍّ جدًّا: قاقلي، وبزر الجرجير، وبزر البصل، وبزر الخرز، ولسان العصافير، وكردمانه[2]، وحلتيت من كلِّ واحدٍ جزء، وفلفل، وبوزيدان[3] من كل واحد ثلاثة أجزاء، مسك سدس جزء، ويُلتّ ويُدهن حب الصنوبر الصغار، ويُعجن بعسل.

---

(١) يسمى الرانج وهو جوز الهند.

(٢) وقيل: كرمدانة: ابن سمحون: قال علي بن محمد: الكرمدانه بالفارسية حبة معروفة ومعناه عود الكرم لأن الكرم بالفارسية هو الدود، ودانه هو الحب. وزعم الغافقي وغيره أنها ثمرة شجرة الميتان.

(٣) قال سليم بن حسان: هو أصول صلبة بيض مصمتة تشبه البهمن الأبيض وتنفع من النقرس وأوجاع المفاصل وهو دواء هندي قليل التصرف. انظر: الجامع (١ / ١٢٢).

صفة دواء آخر منعظ للمبرودين: زنجبيل[١] ثلاثة دراهم دار فلفل جزء، وبزر البصل جزء يُعجن بعسل يُعطَى منه مثقال بماء حار.

صفة دواء آخر مقوي: بزر الهليون، وشقاقل، وزنجبيل خمسة خمسة بهمان أبيض، وبهمان أحمر ثلاثة ثلاثة بزر الرطبة، وبزر الجرجير، وبزر الأنجرة، وبزر الجزر، وبزر البصل درهمين درهمين أسقل مشوي، وسرة السقنقور ثلاثة ثلاثة لوز حب البلاذُر، وألسنة العصافير درهمين درهمين سُكر أربعون درهمًا، والشربة أربعة دراهم بشراب حديث إلى ثلاثة دراهم، ويكون طعامه بائيًا.

صفة دواء آخر يُقوِّي على الباءة: بزر الجرجير البري ثلاثة دراهم، بزر البصل نصف درهم دار صيني درهمان قردمانا نصف درهم تُجمع مسحوقة، وتعجن بعدَّة دراهم سمن البقر، وخمسون درهم حليب البقر ويُشرب.

صفة دواء آخر: بزر الجرجير، وبزر الفجل، وبزر البطيخ من كل واحد جزء، ويُشرب من مجموعها خمسة دراهم بمائة درهم لبن حليب.

صفة دواء آخر: ملح السقنقور خمسة دراهم خصى الدّيوك مجففة، سبع دراهم بزر الجرجير درهمان، والشربة كل يوم درهمان ونصف ويُتبع بحليب.

صفة دواء آخر: بزر الجرجير، وملح السقنقور بالسواء يُشرب من مسحوقهما أربع دراهم بصُفرة عشرة بيضات.

صفة دواء آخر: حب الصنوبر وبزر الكرفس الجبلي وعلك الأنباط[٢] بالسوية، وبزر البصل نصف جزء يُخلط بعسل، ويُؤخذ منها مثقال، ويُتناول قبله غذاء بائيًا.

---

(١) قال إسحاق بن عمران: إذا أخذ منه مع السكر وزن درهمين بالماء الحار أسهل خلطاً لزجاً لعابياً. ابن سينا: يزيد في الحفظ ويجلو الرطوبة عن نواحي الرأس والحلق.

(٢) إسحاق بن عمران: علك الأنباط وهو علك شجرة الفستق ولونه أبيض كمد، وطعمه فيه شيء من مرارة ويلقيه الشجر في شدة الحرّ وهو حار يابس في الدرجة الثالثة يحلل وينقي الأوساخ وينفع الحكة العتيقة ويجذب البلة من داخل الجسد، وينزل البول وينفع من السعال ووجع الصدر العارض من الرطوبة وخاصة الرطوبة المنحدرة إلى صدور الصبيان، وبدل صمغ الأنباط صمغ البطم أو صمغ الضرو.

ذكر الأغذية المقوية على الباءة

لحم الضَّأن، ولحم الجَدى السمين الذَّكر، وما يُتَّخذ بالبصل من غير قلي اللحم؛ فإن قلي اللحم يُنقص اللحم تغذيته ويُقويه، وما يُتخذ بالحمص أو بالجزر والبيض خصوصًا المبزر بالدار صيني، والخولنجان(١)، وملح السقنقور، وجوزبوا(٢)، وبيض السمك، ولحم السمك الحارّ، والفراخ المسمَّنة، والدجاج المسمنة الَّتي خُلِط بدقيقها الَّذِي تُسمَّن به صفرة البيض، وبزر الهليون، وبزر الجرجير، والدار صيني، ولبُّ حبَّة الخضراء أو اللوز أو الجوز، ويُكسر لهنَّ البيض في كل يوم، ويُخلط الصفار بالبياض، ويُقدم إليهن عند جوعهن، واللفتية والجزرية، وخصوصًا الجزرية أعني بلحم الجزور بعد شدة طبخ لحمها، وما يقع فيه أدمغة العصافير والحمام، واللبن والسَّمن والأرز باللبن، واللحم بلبن الضَّأن، والهرايس، والكبولات، والجواذبات، وخصوصًا ما كان بزعفران السميد، واللبن، وماء النارجيل، ويقع في بقولة الهليون،

---

(١) هو عروق متشعبة ذات عقد لونها بين السواد والحمرة شبيهة بأصول النوع الكبير من السعد المسمى بعجمية الأندلس بحة، وهذه العروق حريفة الطعم تجلب إلينا من الهند وفيها عطرية. ابن ماسويه: حار يابس في الثالثة جيد للمعدة يطيب النكهة هاضم للطعام.

وقال الرازي في دفع مضار الأغذية: كاسر للرياح موافق لمن يكثر به القولنج الريحي والجشاء الحامض. وقال في كتاب الحاوي: إنه يزيد في الباه جداً وينفع الكلي والخاصرة الباردتين. ابن عمران: نافع لأصحاب البلغم والرطوبات المتولدة في المعدة ويحرك المني ويهيجه، وإذا أخذ منه عود وأمسك في الفم فإنه ينعط إنعاطاً شديداً.

لي: من أحسن الطرق في استعماله في أمر الباه أن يؤخذ منه نصف مثقال أو درهم ويسحق وينخل ويذر على مقدار نصف رطل لبن حليب بقري ويشرب على الريق، فإنه غاية في أمر الباه وهذا مجرب صحيح.

(٢) هو جوزة الطيب، يطيب النكهة، ويذهب البخر، ويهضم الطعام ويقوى الكبد والمعدة ويزيل ورم الكبد والطحال الجاسي. بدله قرنفل.

والجرجير، والكراث[١]، والحرشف، والنعناع خاصَّة؛ فإنه يُقوي أوعية المَنِيِّ جدًّا، فيشتمل على المَنِيِّ اشتمالاً شديدًا، فيشد الشهوة، والحندقوق، والحلبة.

وقالوا: من أدمن على أكل العصافير، وشرب عليها اللبن مكان الماء تارة خاثرًا وتارة حليبًا لم يزل منتشرًا كثير الماء، ويُقلَى البصل بالسمن حتى يتهرَّأ ويُفَقَّص عليه البيض، وللحروريين اللبن، والسمك المشوي الحار، والبطيخ، والقرع[٢]، والفواكه

---

(١) قال الغافقي: أظنه نباتاً رأيت بعض الناس تسميه في بعض بوادي بلاد الأندلس عشبة السباع وفيها مشابهة من نبات الميتان إلا أنها أنعم منه بكثير وأطول ورقاً ولها قشر صلب متين قوي كقشر الميتان يصلح أن يتخذ منه حبال وهو شديد المرارة وله لبن كثير إلا أنه ليس بأبيض ولا غليظ كلبن اليتوع، ورأيت أهل تلك الناحية التي ينبت فيها يزعمون أنه إن أخذ من عصارته أو لبنه شيء يسير فيخلط بزيت كثير أو مرقة دسمة كثيرة وشرب قيأ بقوة وأسهل أيضاً ونفع بذلك من الجذام والماليخوليا وعضة الكلب، مب.

(٢) قال جالينوس في الأغذية: القرع ما دام نيئاً فطعمه كريه ومضرته للمعدة عظيمة وقد رأيت إنساناً أقدم على أكله نيئاً فأحس في معدته بثقل وبرد وأصابه عليه غثيان وقيء ولا دواء لهذه الأعراض التي تعرض منه إلا القيء، فإذا هو سلق فيغذو غذاء رطباً وكذا غذاؤه يسير مثل غذاء جميع الأطعمة التي تولد خليطاً نيئاً رقيقاً وانحداره عن المعدة سريع لما ذكرنا من رطوبته، ولما فيه من الملاسة والزلق، وإذا انهضم فليس خلطه برديء متى لم يسبق إليه الفساد قبل انهضامه والفساد يعرض له أما من الصنعة وإما من خلط رديء في المعدة وأما من قبل إبطائه في المعدة كما يعرض لجميع الفواكه الرطبة الفساد إذا أبطأت في المعدة ولم يسرع الإنحدار لها، وإن أكل وحده تولد منه خلط تفه فإن أكل مع غيره تولد منه خلط طعمه طعم ذلك الشيء الذي معه لأنه ينقلب ويتشبه به فإن كان مع خردل تولد منه خلط حريف مع حرارة قليلة وإن أكل مع مالح تولد منه خلط مالح وإن أكل مع الأشياء القابضة قبض وقال في ذكر التوت إن القرع مع ما هو عليه من أنه أقل الثمار الصيفية كلها مضرة متى لم ينحدر عن المعدة سريعاً فسد فساد سوء غريب لم ينطق به أبداً.

وقال ديسقوريدوس في الثانية: إذا تضمد به نيئاً سكن وجع الأورام البلغمية ووجع الأورام الحارة، فإذا ضمدت به يافوخات الصبيان نفعهم من الأورام الحارة والعارضة في أدمغتهم وكذا أيضاً ينفع إذا تضمد به الأورام الحارة العارضة في العين وفي النقرس وعصارته إذا خلطت بدهن ورد نفعت من وجع الأذن وماء قشر الأصل إذا استعط به وحده أو مع دهن ورد نفع من وجع الأسنان، وإذا طبخ كما هو وعصر وشرب ماؤه بعسل وشيء يسير من نطرون أسهل البطن

الرطبة، والبقول الرطبة، وبياض البيض نافع لهم، وأدمغة الحيوانات، ومخارجها، والسرطانات النَّهريَّة.

الأغذية المشابهة للدواء؛ فمن ذلك دواء مغزر للمنيِّ، يُؤخذ ثلاثة أرطال لبن حليب، ويُلقى عليه نصف رطل ترنجبين ونصف رطل حبة الخضراء، ويُغلى ثم يُمرس ناعمًا، ويُصفَّى ويُؤخذ منه نصف رطل، ويُلقى عليه نصف درهم خولنجان، ويُشرب منه مقدار الاستمراء أيامًا.

صفة أخرى: ماء البصل، ومثله عسل، ويطبخ حتى يُنقى العسل، والشربة منه ملعقة أو ملعقتان عند النوم بماء حار بعد العشاء.

صفة أخرى: صفرة البيض يُتخذ منه نيمبرشت، ويُنثر عليه درهم شبت، ودرهم ملح السقنقور؛ فإنه قوي النفع، وخصوصًا عَقِيب الاستحمام، ويُدلك بدُهن السوسن والياسمين.

صفة أخرى: يُؤخذ صفرة البيض، ويُضرب بعضها ببعض ثم يجعل عليها مثل

إسهالاً خفيفاً، وإن جوفت قرعة نيئة وصب في تجويفها شراب ونجمت وشرب ذلك الشراب أسهل البطن إسهالاً خفيفاً.

وقال الرازي في كتاب دفع مضار الأغذية: القرع بارد مولد للبلغم وهو من طعام المحرورين يطفئ ويبرد ويسكن اللهيب والعطش وينفع من الحميات، وإذا طبخ بالخل نقص من غلظه وبطء هضمه وكان أشد تطفئة للصفراء والدم إلا أنه في هذا الحال لا يصلح لأصحاب خشونة الصدر وللسعال وهو لأصحاب الأكباد الحارة أصلح، وأما من به سعال وحمى فليطبخه مع كشك الشعير ومع الماش المقشر ودهن اللوز الحلو وليجتنبه المبرودون والمبلغمون لأنه يولد فيهم القولنج الغليظ، وإن أكلوه فليأكلوه مطجناً بالزيت ومطيباً بفلفل وليشربوا عليه الشراب الصرف وليأخذوا عليه الجوارشنات. وقد يصلح منه أيضاً الخردل والمري فإذا هو وضع مع اللبن والماست أصلح منه الخردل وإذا طجن أصلح منه المري والخل أيضاً فإنه يصلح غلظه، لكن لمن لا يصلح برودته فليستعمل بحسب الحاجة ويصلحه الأكل له بما هو موافق له فيمن احتاج إلى تبريده وكثرة تبريده بالخل أوفق وما يصلحه وكثرة غلظه ولم يحتج إلى تبريده فالمري يصلحه منه، ومن خشي برده وغلظه جميعاً فليطبخه بعدما يسلقه بالزيت ويأكله بالتوابل والأبازير.

ربعها عصارة البصل المدقوق، ويُسوى نيمبرشت، ويُلقى عليه درهم ملح السقنقور، ودرهم جوزبوا، وزنجبيل مخلوطان.

تركيب آخر: سمن بقر، ودُهن الفستق يُطبخان حتى يبقى ثُلثه، والشربة منه بالغداة ملعقتان بشراب حديث.

صفة أخرى: يُؤخذ حليب البقر ثلاثة أرطال، ويُطفى فيه الحديد حتى يبقى منه رطل ونصف، ويُجعل فيه من الترنجبين ثلاثين درهمًا ويُشرب، وهو غاية للمحرورين والمعتدلين.

وأمَّا المبرودين؛ فيجب أن يُضاف لهم خمسة دراهم دار صيني مسحوقًا منخولاً، ويُخضخض في الحليب المذكور، ويشربونه بترنجبين وبغير ترنجبين؛ فإن أضيف الدار صيني المذكور إلى الحليب المذكور، وهو على حاله من غير أن يُطفى فيه الحديد يصلح أن يُشرب مكان الماء بعد طعام ولا يُشرب معه غيره، وينفع من كان به برد أو يبس جميعًا.

صفة أخرى: حليب البقر، فانيد رطل، عصير البصل رطلان، يُطبخ حتى يغلظ، ويُؤخذ منه بكرة كل يوم قدر أوقية.

تركيب آخر: يُؤخذ الحمص الأسود الكبار، ويُنقع في ماء الجرجير حتى يربو قليلاً ثم يجفف في الظل ثم يسحق مع فانيد، والشربة منه قدر جوزة بالغداة، وقدر بندقة بالعشي عند النوم، ويُشرب عليه قدح نبيذ، وإن نُقع في ماء الحسك، وربي في الشمس لا يزال يستقاه كلمَّا جفَّ ثم يطحن ويُتحفظ به، ويُتخذ منه حساء باللبن الحليب والفانيد طبيخ يقوي على الباءة، ويُدق الجرجير والبصل، ويُطبخ معه الحمص، والباقلاء، والعسل بلحم رخيص جيد، ويُبزر بالأبازير الحارة.

طبيخ آخر: باقلي، وحمص، ولوبياء ينقع في ماء ثم يقطع لحم الضَّأن كما يتخذ

الطياهج، ويُجعل منه ساف[1]، ومن البصل، والحبوب ساف، ويُذر على كل ساف ملح السقنقور، وقليل حلتيت ودار صيني، وقرنفل كثير ثم ينثر عليها أدمغة العصافير والحمام ساف، ويُفعل كذلك، ويكون الأغلظ ساف اللحم المجرع ثم يصب عليه إما ماء الجزر أو شيء من الماء يتخذ منه مع مائة.

صفة مدققة مقوية على الباءة: يؤخذ لحم ضأن ذكر حول، وخصوصًا من لحم المتن والرقبة والكتف خمسة أرطال ويُقطَّع صغار ثم يدقُّ، ويُرشُّ عليه في -حال الدَّق من الماء المعتصَر من البصل ربع رطل مخلوط بربع درهم زعفران وعشرين درهمًا عسل درهم زنجبيل ثلاثة دراهم دار صيني مسحوق؛ فإذا صار كالعجين جعل كبار كل واحد كالبيضة، ويُقسم نصفين في وسط كل واحدة من النصفين صفرة بيضة مصلوقة، وفي وسط النصف الآخر مثل البندقة من لُب البطم والصنوبر والفستق والجوز الهندي، ولب بزر البطيخ بالسواء مدقوق مع فلفل وقرنفل ودار صيني، وقاقلة من كل واحد سدس جزء ثم يطبخ مع سبع بصلات مقشرة بنار لينة حتى ينضج ثم يحل في مرقة اللوز المدقشر المقوق مع مثل ثلثه بزر بطيخ مقشور مدقوق، وبعد حله يصفى، ويُصب عليه، ويُلقى فيه من الدار صيني المرضوض خمسة دراهم، ومن الشَّبت باقة ويُحكم نضجه، صفة عجيبة تقوي على الباءة يؤخذ من أدمغة العصافير والحمامات خمسون عددًا ومن صفرة بيض العصافير عشرون، ومن صفرة بيض الدجاج عشرة، ومن ماء لحم الضَّأن المدقوق والمطبوخ المعصور شديدًا قصعة، ومن ماء البصل المعصور ثلاثة أواقي، ومن ماء الجرجير خمسة أواقي، ومن الملح والتوابل الحارة قدر الحاجة، ومن السمن وزن خمسين درهمًا يتخذ منه عجينة يؤكل ويُشرب عليها شراب قوي ريحاني إلى الحلاوة.

صفة بنادق مقوية على الباءة: تؤخذ أدمغة ثلاثون عصفورًا، وتترك في سُكرجة زجاج لسطل مائها، ويصير بحيث يعجن، ويُلقى عليها مثلها شحم كُلى ماعز ساعة

(١) الساف من قولهم سف الشيء: أقل القليل منه، ومنه سفت الريح التراب أي: ذرته.

يذبح، ويُبزر بالقرنفل والفلفل والزنجبيل ويُدق، ويُؤكل منه واحدة بعد أخرى في حال ما يريد أن يجامع.

صنعة ملح الورل يقوم مقام ملح السقنقور: يؤخذ الورل في أيام الربيع، ويُذبح وتنقى أحشاؤه ويُحشى ملح، ويُعلق في الظل حتى يجف، ويُؤخذ ملحه، ويرمى بجسده، ويكفى من ملحه بشيء يسير أقل من ملح السقنقور.

صفة حلوى تقوي على الباءة: يؤخذ من حب الصنوبر جزءان، ومن بزر البطيخ وبزر الجرجير من كل واحد جزء، ويُقلى بالسمن، ويُلقى عليه يسير فلفل ودار صيني، ثم يطرح عليه من العسل مقدار الكفاية، ويُتخذ حلوى.

صفة أخرى: يتخذ الحمص، ويُنقع في الماء، وفي ماء الجرجير أو في ماء الحسك حتى ينفخ، ويُقلى بسمن البقر قليًا يسيرًا، ومن الحب الصنوبر مثله، ويُلقى عليه عسل قدر ما يعجن به، ويُخلط بقليل مصطكا ودار صيني، ويُرفع، ويُقطع تقطيع الحلوى.

صفة أخرى: يغلظ العسل بالطبخ، ويُنثر عليه حب الصنوبر الكبار، وبزر الجزر ودار فلفل شَقَاقُل ودار صيني وبزر الجرجير، ويُتخذ منه كالجوارش، وإن كره بزر الجرجير جعل بدله حبة الخضراء أو قليل مسك.

صفة دواء: يشرب مع النبيذ نافع للمبرودين عسل البلاذر وعسل النحل وسمن البقر أجزاء سواء، يغلى ثم يشرب منه ثلاثة دراهم إلى الخمسة، يحبب ما يحتمله الشارب مع نبيذ؛ فإنه عجيب.

صفة شراب مقوي على الباءة: يؤخذ الحسك والجرجير واللحم، ويُطبخ في الماء طبخًا شديدًا، ويُصفى الماء، ويُجعل في كل جزء، من الماء ربع جزء، ومن الفانيد أو السكر الأحمر جزء، وربع سُدسُ جزء من التين اليابس، ونصف سدس جزء من الزبيب الطائفي الحلو يدق، وسدس سبع جزء نارجيل مدقوق.

الجملة الثالثة من الجزء الثاني

في ذكر الحقن والمسوحات والأطلية المعينة على الباءة

أفتيمون نصف درهم، عاقر قرحا ثلاث دراهم يجمعان مسحوقين، ويخلطان بدهن زنبق، ويُدهن به القضيب وما يليه، وكذلك عاقر قرحا مع نصفه مسك يداف بينهما [شقاقل] مع أوقية دُهن زنبق(١)، وكذلك الحلتيت بدُهن زنبق، وكذلك البورق بالعسل المصفى، ومرارة الثور بالعسل المصفى، وكذلك بزر المازريون بدُهن الياسمين أو خيري(٢) أو القسط.

آخر: قليل بصل الغار مع دُهْن زنبق، ويدهن به.

---

(١) هو دهن الخل المربب بالياسمين.

(٢) هو نبات معروف وله زهر مختلف بعضه أبيض وبعضه فرفيري وبعضه أصفر والأصفر نافع في أعمال الطب.

وقال جالينوس في السادسة: جملة هذا النبات قوته قوّة تجلو وهي لطيفة مائية وأكثر ما توجد هذه القوة في زهرته وفي اليابس من الزهرة أكثر منها في الرطب الطري، فهو لذلك يلطف ويرقق الأثر الغليظ الكائن في العين، وماؤه إذا طبخ يدر الطمث ويحدر المشيمة والأجنة الموتى إذا جلس فيه، وإن شرب أيضاً فهو دواء يفسد الأجنة لأنه شديد الحرارة وإن كسر الشارب له من شدّة قوته بأن يخلط معه شيئاً آخر مما أشبه ذلك صار دواء من الأدوية للأورام فائقاً، ولذلك صار الماء الذي يطبخ فيه الخيري إذا لم يكن شديد القوّة يشفي الأورام الحادثة في الأرحام إذا نطل عليها وخاصة لما قد طال مكثه منها وصلب، وعلى هذا النحو إذا خلط هذا الماء مع الشمع والدهن أدمل القروح العسرة الاندمال، وقد يستعمل بعض الناس هذا الماء مع العسل في مداواة القلاع، وأما بزر الخيري فقوته قوّة الخيري بعينها إلا أنه من أنفع الأشياء كلها في إحدار الطمث إذا شرب منه مقدار مثقالين، وإذا احتمل من أسفل مع العسل وهو يفسد الأجنة الأحياء ويخرج الموتى منها، وأما أصول الخيري فقوتها هذه القوّة إلا أنها أغلظ وأقرب من طبيعة الأرض، وإذا خلط الأصل بالخل شفى الطحال الصلب وبعض الناس يداوي به الأورام الحادثة في المفاصل إذا صلبت وتحجرت.

آخر: حب النيل[1] وعاقر قرحا أجزاء سواء مع دُهْن.

آخر: الحلتيت بعسل.

آخر: قَنطاريون وزفت وقيروطي من دُهن السوسن، ودُهْن خيري وشمع ومصطكا وسُعد، يطلى به الذَّكَر وحواليه، ولدُهن السُّعد ودُهن حبِّ القطن وشحم الأسد منافع عظيمة مفردة ومجموعة وزرق الحلتيت في القضيب منعظ مهيِّج؛ فإن خيف منه ومن حرارته أديف في دُهن بنفسج.

الحمولات شحم البط، وحب القطن[2] وعاقر قرحا بدُهن نارجيل، وقيل: إنَّه إن احتملت أشباطه من شحم حمار نفعت.

الحقن يُتَّخذ من مرق الرءوس والفراخ مع صفرة بيض وخصى كباش الضَّأن جيدة إذا وقعت في الحقن، ولها منافع في تقوية الدِّماغ والبدن وأدهانها الإلية ودُهن الجوز والشبرح وسمن البقر ودُهن الفستق والبندق ودُهن النارجيل ودُهن المحلب ودُهن حبِّ القطن عجيب جدًّا.

وللمحرورين دُهن الحسك ودُهن الخشخاش ودُهن حب القرع وحب البطيخ، ونحو ذلك.

حقنة: تؤخذ من مرق الرءوس والفراخ المطبوخة بالمغات والبوزيدان والشقاقل في السور ليلاً طبخًا جيدًا جزء، ويلقى عليه من اللبن نصف جزء، ومن

---

(١) قال إسحاق بن عمران: إن نباته يشبه اللبلاب يتعلق بالنبات وبالشجر قامتين أو ثلاثة وهو ذو قضبان وورق خضر في كل ورقة نوارة إسماجوني في شبه الأقماع وإذا أسقط النور خرج مزود فيه ثلاث حبات أصغر من حب الرأس مثلث وهذا الحب هو المستعمل.

ابن ماسويه: خاصيته إسهال البلغم والتنقية وإصلاحه تجويد سحقه ولته بدهن اللوز الحلو والمختار منه ما كان حديثاً رزيناً ليس بمنقبض والشربة منه ما بين أربع قراريط إلى ثمانية.

(٢) هو الخيشفوج، قال الرازي: الرازي: حب القطن يلين ويسخن ويزيد في الباه، وعصارة ورقه تنفع إسهال الصبيان.

السمن نصف جزء، ومن دُهْن المحلب، ودُهن النارجيل من كل واحد ثلث سُبع جزء، ومن شحم كُلا السقنقور والضَّب ما يحضر، ويكون كالأبازير فيه ويُحتقن به.

حقنة جيدة: حسك طري خُمس جزء، وحلبة كفّ بزر اللفت، كفّ بزر الجرجير، وبزر الجزر، وبزر الهليون كفّ من الجميع، نخاع التَّيس وخصيته وكليته مرضوضة ودماغُه يُصبُّ عليه رطلان ماء ورطلان لبن حليب، ويُطبخ حتى يغلظ، ويُحتقن بأربع أواقي منه بأوقية دُهن حبة الخضراء، ويُكرر عليه ثلاثة أيام بعد التبزير.

حقنة أخرى قوية النفع: رأس ضان، وثلاثة أواقي من خصي الضَّأن، وقطعة إلية، وحمص يطبخ في تنُّور، ويؤخذ دُهنه وماؤه بغير طبيخ شديد، ويجعل عليه من دُهن جوز، ودُهن حبة الخضراء، وشيء من لحم السقنقور، ويُحتقن به.

حقنة أخرى: تؤخذ إلية، وتشرح وتُجعل في تشاريحها نصف درهم جُندبيدستر مدقوق، ويُقَسَّم فيها بالقِسط، وتُجعل الإلية تحت شيء ثقيل أيامًا ثلاثة ثم تُقطَّع، وتذَوَّب مع ما فيها من الجندباستر[1]، ويؤخذ ودكُها، وتُحفظ ويؤخذ من ذلك الودك سُكرجة، ومن سمن البقر نصف سكرجة، ومن ماء الكران نصف سُكرجة، ومن الحلبة نصف سكرجة، ويُحتقن به وقت العصر، ويمسك إلى ثلاثة ساعات من الليل، ثم يُحَدَّد عند النوم، وينام عليه يفعل ذلك ثلاثة أيام.

حقنة أخرى: يؤخذ من الودك الَّذِي قدَّمنا ذكره أربعون درهمًا، ويُذاب على النَّار، ويُضافُ إليه ودك شحم كُلاء الماعز عشرون درهمًا، ويُضاف إليه من العسل عشرون درهمًا، ومن ماء البصل عشرة دراهم، ومن ماء طبيخ الحلبة والحمص ثلاثون درهمًا، ويُغلى الجميع على النَّار، ويُحقَن به قبل النوم.

---

(١) هو حيوان يصلح أن يحيا في الماء وخارجه وأكثره يكون في الماء ويغتذي فيه بالسمك والسراطين وخصاه هو الجندبادستر، ويصلح هذا الحيوان أن يكون في البر والبحر، وأكثر ما يكون هذا في النهر مع الحيتان والتماسيح وخصاه تنفع من نهش الهوام وتهيج العطاس وتصلح لأشياء كثيرة.

الجملة الرابعة من الجزء الثاني

في تدارك ضرر الباءة

أكبر علاجه النوم والدَّعة، والتَّفريج في المتنـزهات والبساتين، والنَّظر إلى الخُضرة، والمياه الجارية، وشمُّ الأزهار، وإحضار الملاهي والنُّدماء والمُفاكهين، وحمله راكبًا إلى المواضع النـزهة، جنب المياه الصَّافية، والاستحمام المعتدل الحرارة الفسيح العرصة الوافر الضياء، وترطيب البدن بالأغذية الَّتي يغذى قليلها كصفرة البيض، وأمراق الدِّيك والفراريج، وإذا شُرب صبوحًا من لبن الضَّأن والبقر كان شديد المعونة على تقويته وإنعاشه سيَّما إن دام عليه.

وإن ظهر ضَعف في البصر فسببه من الدِّماغ، وليُدِم دَهن رأسه بمثل دُهن بنفسج والتعطر به أو تقطيره في الأُذُن مفترًا.

ويُستعمل الدُّخول في الماء العذب، وفتح بصره فيه، ومن أشدِّ التدبير نفعًا له أن يَستعمل بعض الحُقن المسمِّنة للكُلى كالمتَّحد من طبيخ أكارع الغَنَم ورأس الضأن وساق البقر مرضوضًا وشحم كُلى ماعز، ويُجعل معه كفّ نيلوفر(١)، وقليل بنفسج،

---

(١) قال جالينوس في الثامنة: أصل هذا النبات وبزره فيهما قوة تجفف بلا لذع فهو لذلك يحبس البطن ويقطع سيلان المني ودروره الكائن بلا احتلام بإفراط وينفع من قروح الأمعاء، وما كان منه أبيض الأصل فهو أقوى من الأسود حتى أنه يقطع النزف العارض للنساء وقد يشرب منه ما هو أبيض وما هو أسود الأصل لهذه العلة بالشراب القابض، وفيهما أيضاً جميعاً قوة تجلو لذلك يشفيان البهق وداء الثعلب شفاء عجيباً ولعلاج البهق يعجنا بالماء ولداء الثعلب بالزفت الرطب والأنفع في هاتين العلتين النوع الذي أصله أسود كما أن الأبيض نافع لتلك العلل الأخر. وقال ابن سينا: زهره ينوم ويسكن الصداع إلا أنه يضعف وبزره نافع لوجع المثانة وكذا أصله وشرابه شديد التطفئة نافع من الحميات الحادة.

وقال في كتاب الأدوية القلبية: يقرب في أحكامه من الكافور إلا أنه يرطب لقوته وكثرة برودته فيحدث في جوهر روح الدماغ كلالاً وفتوراً إلا أن يكون محتاجاً إلى ترطيب وتبريد لتعديل، وأما الروح التي في القلب فيشبه أن لا تنفعل عن المعنى الضار الذي فيه انفعال الروح الذي في

وكف حنطة. وإن كان هناك حرارة أضيف إليه قشر الطلع، وقشر خشخاش، ويطيخ في التنور ليلة، ثم يؤخذ من رأسه رطل، ويضاف إليه أربعون درهمًا دهن مخلوط من دهن قرع، ودهن لوز، ودهن بنفسج، ودهن نيلوفر، ودهن ورد، ويخضخض في قارورة، ويحتقن به فاترًا بعد تنظيف الأمعاء، وينام عليه، ويترك الجماع، ويهجر الباءة إلى أن يعود فيما اعتاده في حالة الصحة.

وأما إن حدثت الرعشة منه؛ فإن كانت مع مادة كثيرة رطبة أسهل بشحم الحنظل أو قثاء الحمار، والقنطوريون، والسكبينج، وبعد ذلك يعالج العصب بمسوحات قوية فيها المسك والعنبر والبان، ويدهن القُسط والناردين، والسوسن، ودهن السعد، والمحلب، ودهن الأهبل، وكل دُهن جاز فيه قبض.

وإن لم يكن مادة عولج بمسوحات الرعشة، ومن عرض له بعده رعشة؛ سقي من الجاوشير درهم بماء المرزنجوش [طلاءً] ونصف مثقال حلتيت في ربع رطل خمرًا.

***

الدماغ حتى تقويه منفعته بل خاصيته التي في عطريته تقوي الروح التي في القلب ويكون دفع ضرر برده ورطوبته به إلى حد ما يعدل بالزعفران والدارصيني.

عيسى بن ماسه: هو بارد في الدرجة الثالثة رطب في الثانية لطيف الأجزاء غواص ويذهب بالسهر الكائن من الحرارة ويكون ببلاد مرو ضرب من النيلوفر فيه حدة وحرارة ولطافة، وأما إذا أردنا إسخاناً في أوجاع باردة فاستعملناه فوجدناه صالحاً وشربه صالح للسعال وأوجاع الجنب والرئة والصدر ويلين الطبيعة ويبرد.

الباب الأول

من الجملة الخامسة من الجزء الثاني

في علاج من ضعف عن الباءة لسوء مزاج قلبه

أما إن كان ذلك من قلة حرارة القلب، وهذا أكثر ما يتفق للمشايخ وأصحاب الأمزجة الباردة؛ فعلاج ذلك تناول الخمر الريحاني العطر والأحمر الحُلو بعد الطعام ثلاث ساعات في كل يوم، وشربه ممزوجًا بحسب اعتدال الخمرة، ويقتصر منه على مائة درهم إلى الثلاثمائة بحسب مزاج مستعمله، وكثرة ما يتناوله من الغذاء وقلته.

ويستعمل هذا المعجون؛ وصفته: بهمان أحمر درهمان، بهمان أبيض درهمان، ساذج هندي درهمان، قاقلة كبار ثلاثة دراهم، بذر الجزر تسعة دراهم، قاقلة صغار أربعة دراهم، زنجبيل أربعة دراهم، قرنفل درهمين، لبان درهمان، ورق القرنفل درهم، زعفران درهم، مسك دانق، تجمع هذه الأدوية مسحوقة منخولة، ويضاف إليها من سرة السقنقور أربعة دراهم أو واحد من السمك المعروف صيدًا، ويُخلط الجميع، ويُرفع في إناء، والشربة منه وزن درهمين قبل النوم، وفي الشتاء ثلاثة دراهم.

وإن كانت الحرارة مستولية على القلب، وقد تقدم شرح علامات ذلك؛ فعلاج ذلك شرب ماء بزر الخيار، وبزر البقلة الحمقاء بالغداوات مع شراب الصندل مع نصف درهم طِين أرمني وربع درهم طباشير.

وإن كان مِمَّنْ يغلب عليه الصَّفراء؛ فشراب الأُترجِّ مع شراب الصندل، ويُشرب قبل الجماع جُلابًا باردًا، ويُبادر عَقِيب إنزاله بِشُرب جُلابًا باردًا؛ فإن لم يُحضره؛ فليبادر إلى شرب الماء البارد وحده؛ فإنه ينفعه جِدًّا بإذن الله، ويحترز من المآكل الحارَّة، والله تعالى الشَّافي.

* * *

الباب الثاني
من الجملة الخامسة من الجزء الثاني
في علاج من ضعف عن الباءة لسوء مزاج الكُلى

أما أن يحدُث بالكُلى سوء مزاج حارٌّ يابس، وقد تقدَّم ذكر علاماته؛ فعلاج ذلك أن يشرب في كلِّ غداة يوم ماء بزر البطيخ وبزر الخيار وبزر بقله بشراب الهليون مبرَّد بالثلج، ويُصرِّفه بماء حبِّ الرُّمَّان، ويلازم ذلك مدَّة عشرة أيام، ويحتقن بهذه الحُقنة، وهي حقنة مسمِّنة للكُلى، وصفتها ساق بقرة مرضوضة، ورأس ماعز، وشحم كُلى ماعز تُجعل ذلك في قدر، وتطرح عليه كف من الحنطة المدقوقة المقشورة، ويصبُّ عليه من الماء ما يزيد على غمره نحو أربع أصابع، ويُلقى عليه ربع رطل خُشخاش[1]،

(١) قال ديسقوريدوس في الرابعة: منه بستاني ويتخذ من بزره خبز يؤكل في وقت الصحة، وقد يستعمل أيضاً مع العسل بدل السمسم، وهذا الصنف من الخشخاش يقال له بولاقيطس ورؤوسه مستطيلة وبزره أبيض ومنه بري له رؤوس إلى العرض ما هي وبزر أسود ويقال لهذا الصنف سفرطس، ومن الناس من يسميه رواس ومعناه السائل لأنه يسيل منه رطوبة، ومنه صنف ثالث بري أصغر من هذين الصنفين وأشد كراهة وله رؤوس مستطيلة. جالينوس في السابعة: قوة جميع الخشخاش قوة تبرد إلا أن الخشخاش الذي يزرع في المناهل والبساتين بزره ينوم تنويماً معتدلاً قصداً، ولذلك صار الناس ينثرون منه على الخبز ويأكلونه ويخلطونه بعسل، والثاني من جنس الأدوية والدوائية عليه أغلب ويبرد تبريداً بليغاً، والثالث هو أكثر دخولاً في جنس الأدوية ويبلغ من شدة تبريده أن يحدث خدراً وتماوتاً ولذلك صار استعماله إنما هو إلى الطبيب المجيد أن يخلطه مع الأدوية التي تكسر شدة قوته في التبريد وتبطلها لأنه في الدرجة الأخيرة وهي الدرجة الرابعة من درجات الأشياء المبردة. ديسقوريدوس: وقوة الثلاثة أصناف مبردة وكذلك إذا طبخ ورقها مع الرؤوس بالماء وصب طبيخها على الرأس وقد يشرب أيضاً طبيخها للسهر، وإذا دقت رؤوسها ناعماً وخلطت بالسويق وتضمد بها وافقت الأورام الحارة والحمرة وينبغي أن تدق الرؤوس وهي طرية ويعمل منها أقراص وتجفف وتخزن وتستعمل في وقت الحاجة، وإذا طبخت الرؤوس في الماء إلى أن ينقص نصف الماء ثم خلط ذلك الماء بالعسل وطبخ إلى أن ينعقد كان منه لعوق نافع للسعال ومن الفضول المنصبة إلى الرئة والإسهال المزمن، وإذا خلطت به عصارة الهيوق طيداش والإقاقيا كان أقوى منه، وقد يدق بزر الخشخاش الأسود دقاً ناعماً ويسقى بالشراب لإسهال البطن ولسيلان الرطوبات المزمنة من الرحم، وقد يخلط بالماء ويضمد به الجبهة والصدغان للسهر. التجربتين: الأبيض منه إذا سحق الرأس منه كما هو بقشره وحمل على مقدّم الدماغ سكن الصداع الحار ونوم، وإذا سحق وأضيف إلى مثله حلبة مسحوقة وطبخ بماء أو بماء ورد بحسب حرارة العلة ووضع على الرمد في ابتدائه =

وقبضة لينوفر وقبضة بنفسج ويوضع في تنُّور الهراس ليلة ثم يؤخذ من مرقه نحو مائة وعشرين درهمًا، ويُحقن به في كيس من أدم، ويطيل إمساك الحقنة معه، ويغذَّى بالقرع المطحن والأسفاناخ المطحَّن والفراريج المقلية والمشوية والمطبوخة بزرباحة، ولحم الشينك بماء حب الرمان، وبالأمير باريس سجلاً، وإن لم يكن دليل استيلاء الحرارة على الكُلى ظاهرًا، فليُسقط الخشخاش وحده؛ فهذه هي الحقنة البالغة في تسمين الكُلى، ورُبَّما اتفق للشاب أن يجامع في أيام يسيرة مرَّات كثيرة جدًّا أكثر مِمَّا يحتمله مزاجه، فيحدث له صداع، وسببه هزال الكُلى، فإذا استعمل هذه الحقنة كل يوم زال عنه ذلك في يومين.

واعلم أن النوم أفضل ما عولج به هزال الكُلى، وهو أنفع الأشياء للأبدان التي قد أضعفها الجماع وأنهكها، ومن كان مزاج الكُلى منه صحيحًا؛ فإنه إذا استعمل هذه الحقنة، وجد بها من القوة على الباءة ما يحمده غاية الإحماد.

وأما إن كان سوء مزاج الكُلى من البرد؛ فليُعدّ اللحم الرُّزَّاج أو الطهيوج والشفانين والعصافير مقلوًا بالمُري والأبازير سوى الفلفل، فلا يصلح استعماله؛ لأنه محرق مفرط، ويختص بهذه الحقنة رأس [...] من الضأن وشحم كُلى ماعز يطبخ على الحالة المذكورة مع خمسة دراهم بابونج ودرهمين أصل السُّوس الأمانجوي وثلاثة دراهم تفاح الإذخر ويستعمل على الوجه الَّذِي تقدم ذكره ويحذر الأسفار الطويلة إلا في محفَّة البغال المهمولة.

* * *

سكن الوجع وردع المادة، وإذا خلط بالأدوية النافعة من السعال بحسب استعماله مطبوخة أو ممسكة نفع من السعال الرقيق المادّة بأن يغلظها ومن الحارة بأن يعدلها، ومما ينصب من الدماغ بأن يمنعه من انصباب المواد إلى الحلق، وإذا سحق القشر وخلط بالأدوية للإسهال المتولد عن خلط صفراوي نفع منه وغلظ المادّة، وإذا خلط القشر أو الحب مع الأدوية النافعة من حرقة المثانة قوى فعلها وسكن الحرقة.

الباب الثالث

من الجملة الخامسة من الجزء الثاني

في علاج من ضعُف عن الباءة لقلّة المَنِيِّ

علاج ذلك إدمان الأغذية المولِّدة للمنيِّ والمركبات المغزرة له التي ذكرناها في الجملة الثانية من هذا الجزء، ويتجنب الحموضات، وخصوصًا الرمان الحامض والخلَّ، ويستعمل الباءة باعتدال.

الباب الرابع

في علاج من ضعف عن الباءة لضعف أعصابه

علاجه إدمان غسل الذَّكَر بالماء البارد كل يوم مرات، ولا سيما في الصَّيف، وصبُّ الماء البارد عليه عَقِيب الجماع، وتدليك الأطراف بالماء البارد عَقِيب الاستحمام إلا الرأس؛ فإن الرأس لا يجوز صبُّ الماء البارد عليه مع ضعف الأعصاب ألبتة، ويُنتفع بالحركة والرياضة نفعًا تامًّا إلا أن أنفع الرياضات ما كان بالسَّعي على القدمين في الغدوات، والمعاركة والمصارعة لأصحاب الأبدان النَّاعمة اللينة أيضًا مفيد للعصب، وتحتاج إلى هجر الملوحات والحموضات إلا ما كان من الحوامض مُحلاً.

فإن كان ضعف العصب مع شيخوخة، وعلامة ذلك أن يبرد العضو في أكثر الأوقات حتَّى يصير باردًا جدًّا؛ فليمضغ شيئًا من كبابة وسورج[1]، ويستعمل ذلك الريق عند الجماع أعني يطلي الفرج به فهو يُلذِّذ، ويقوي الذَّكَر.

---

(١) قال ديسقوريدوس في الخامسة: هو شيء يتولد من البحر وهو جنس من الزبد ويتولد على المواضع الصخرية القريبة من البحر وله قوّة مثل قوّة الملح.

وقال في المقالة الحادية عشر: هذا إنما هو شبيه بالزهرة أو بالزبد يرتفع فوق الملح وهو ألطف من الملح بكثير فهو لذلك يمكن فيه أن يلطف ويحلل أكثر من الملح كثيراً وأن يجمع أكثر ما يبقى من جوهر الجسم الذي يلقاه كما يفعل الملح.

وأنفع من ذلك هذا المسوح وصفته يؤخذ سكبينج، ويُحلُّ في الهاون بقليل ماء حتَّى يصير كالعسل الثخين، ويقطر عليه قطرات من الدُّهن، وهو في خلال ذلك يُحرَّك حتَّى يصير فيه من الدهن ثلاثة أمثال السكبينج[1] المحلول أو ستَّة أمثاله بحسب الحاجة إلى قوة الإسخان وقلته، ثم يمسح الذَّكَر بهذا الدهن وقت الجماع؛ فإنه يفعل في تقوية الذَّكَر وإسخانه وإنعاظه وتلذيذ الجماع وتطييبه فعلاً عجيبًا.

وكذلك أيضًا إذا تحمَّلت به امرأة في صوفة سخن رحمها وطيَّبه وأزال نتنه إن كان خلوف إلا أن من يستعمل غسل الذَّكَر بعد الجماع بالماء البارد، ولا يدمن استعماله بغتة؛ فإنه إن لازم أضعف عصبه جدًّا، وقطعه عن الباءة.

* * *

(١) قال الصلت: هو حار يابس في الدرجة الثالثة يسهل البلغم اللزج والرطوبات الغليظة ويستخرج الغائص منها في المفاصل وينفع من عرق النسا الذي سببه البلغم ومن الريح الغليظة ومن القولنج البارد، وهو بالجملة دواء جيد جداً لغلبة البلغم البارد في الأمعاء والظهر والوركين والمختار منه الصافي الأحمر الظاهر الأبيض الباطن الحريف الدسم الذي فيه شيء من مرارة والشربة منه من درهم إلى مثقال.

الباب الخامس

من الجملة الخامسة من الجزء الثاني

في علاج من ضعف عن الباءة لسوء مزاج الأنثيين

يقويها الاستحمام في الأسبوع مرتين أو ثلاثة، والحاوش في الإبزر، وتمريخهما بسبرج طري أو سمن البقر المغسول من الملح وإلا غاب للجماع، وهجره مدة، واستعمال الحقنة المسمنة للكُلى، والأغذية المغزرة للمَنِيِّ، وأكل ثدي النعجة مشويًّا، وخصى العجاجيل والكباش.

* * *

obeikandl.com

الباب الأول
من الجملة السادسة من الجزء الثاني
في علاج قروح الإحليل واتساع المجاري

أما القروح الحادثة في القضيب؛ فإنها من أضرِّ الأمراض بالمعتكف على الباءة؛ لأنها تضعف الإحليل الَّذِي هو الآلة التي يضطر إلى قوتها، ونشرح ما ينبغي أن يعالج به؛ فنقول: إن القياس والتجربة جميعًا قد شهدا بتفضيل الكُندُر[1]، وهو اللُّبان على سائر ما عولج به هذا المرض، وذلك بأن يشرب منه دون دانقين وأكثره أربع دوانيق في غداة كل يوم سبعة أيام، بين كل يومين منها يقف استعماله يومًا؛ فإن القيح الَّذِي جرت عادته أن يسيل من القرحة، ويرسخ كالصمغة إلى رأس الإحليل؛ يزول وينقطع وذلك علامة إدمال القرحة، فإن بقي بعد هذه المدة شيء يسير؛ فليلازم الدواء المذكور تمام عشرة مرات، وإلى الأربعة عشر مرة، وبالجملة فلا ضرر منه إلا لأصحاب الحميات والدق والذبول والكبد الحارة بإفراط.

وأما السَّبَب في تفضيلنا إياه على سائر الأدوية التي يعالج بها هذا المرض؛ فهو أنه لما كان هذا المرض في مجرى قريب من أحد المخرجين صار الدواء المشروب الذي يراد وصول إلى ذلك العضو، وتأثيره فيه يحتاج إلى أن يسلك في جميع المسالك والأعضاء التي تمرُّ بها المشروبات، ومن النيران جميع الأدوية المشروبة يغيرها البدن إلا

---

(١) قال ابن سمحون: الكندر هو بالفارسية اللبان بالعربية.
وقال الأصمعي: ثلاثة أشياء لا تكون إلا باليمن وقد ملأت الأرض الورس واللبان والعصب يعني برود اليمن.
قال أبو حنيفة: أخبرني أعرابي من أهل عمان أنه قال: اللبان لا يكون إلا بالشجر شجر عمان وهي شجرة مشوكة لا تسمو أكثر من ذراعين ولا تنبت إلا بالجبال ليس في السهل منها شيء ولها ورق مثل الآس وثمر مثل ثمره له مرارة في الفم وعلكه الذي يمضغ ويسمى الكندر ويظهر في أماكن تعفر بالفؤوس وتترك فيظهر في آثار الفؤوس هذا اللبان فيجتنى.

السموم القاتلة؛ فإنها إنَّما قبلت؛ لأن البدن لا يقوى على تغييرها، وأما ما عداها من الأدوية، فكلما طال مسلكها في الأعضاء؛ نقصت قواها بتغيير البدن إياها.

وهذا التغير على ضربين:

أحدهما: بما يخالطها من الرطوبات والأخلاط المشحونة بها أوعية البدن وتجاويف الأعضاء.

والثاني: بما يؤثره الطالح فيها لاستحالة الحرارة البدن الباطنة.

فلما كان الدَّواء الَّذِي يعالَج به قروح القضيب يحتاج إلى أن يسلك مسالك كثيرة، وينفذ في عدَّة أعضاء كالمعدة والرئة والقلب والكبد والطحال والأمعاء والكُلى والمثانة؛ صارت الأدوية المشروبة تصل إلى هناك، وقد ذهبت قواها، فلا يبقى لها قوة التأثير في قرحة الذَّكر إلا اللبان؛ فإنه لا يزايله قوته إلا بعد خروجه من البدن، وذلك أن من شرب من اللبان ولو دانقًا واحدًا؛ فإنه بعد ساعتين أو ثلاث ساعات فصاعدًا إذا أراق الماء كان رائحة بوله أشبه الروائح برائحة دُهن البنفسج الجيِّد طيِّبًا، وسُقي نحو يومين كفى، وهذا يدلُّ على أنَّ اللبان إلى أن يخرج من البدن قوَّته باقية عليه بوجوده له، وقد جرَّبناه في مداواة قروح القضيب، فوجدناه في غاية النَّفع.

وأمَّا إدرار البول، وقيام المرء من مضجعه عدَّة مرَّات في الليل للبول؛ فإنَّا وجدناه يُزيله ويشفي منه إذا ابتُلع منه كل ثلاثة دراهم مدَّة سبعة أيام وخمسة أيَّام.

* * *

الباب الثاني
من الجملة السادسة من الجزء الثاني
في سرعة الإنـزال وبطئه

اعلم أنَّ بطءَ الإنـزال قد يكون من قلَّة المادة يتولَّد منها المنيُّ، وشحّ الطبيعة بإخراجها إليها، وقد يكون في النَّادر من أسباب أُخَر مثل سدد يحصل في بعض مجاري المَنِيِّ إلا أنَّ هذا لا يكاد يتَّفِق ، ولو اتفق لعولج بما ينفع السُّدد وبالإسهال وبحسب الأغذية الغليظة، وعلامة هذا النَّوع أن يحسَّ الإنسان في حال الجماع أنه قد قارب الإنـزال، ولا ينـزل كذلك عدَّة مرات.

وأما إذا كان لا يجد هذه العلامة، وهو مع ذلك بطيء الإنـزال؛ فإن سبب بطء إنـزاله قلَّة المَنِيِّ، وعلاج ذلك استعمال الأغذية المولِّدة للمنيِّ، وقد ذكرناها.

وأما سرعة الإنـزال؛ فلها سببان: أحدهما: اتساع المجاري، والثاني: كثرة المَنِيِّ، وكونه حاضرًا معدًّا في المعدة والأوعية، ويُستدل على اتساع المجاري باتساع العروق وغلظها، والقيام في الليل من المضجع للبول مرات، وأكثر ما يحدث للمشايخ، والذين قد جامعوا فيما سلف جماعًا كثيرًا.

فأما الكائن عن كثرة المنيِّ؛ فإنه يحدث من كان أكلُه أكثر من جماعه، وكان مزاجه رطبًا؛ وعلاج هذا النوع الإكثار من الجماع، وهجر الأغذية الدَّسمة الكثيرة الدُّهن.

وأما الكائن عن سعة المجاري؛ فعلاجه أن يشرب في كل أسبوع مرة واحدة نصف درهم من اللُّبان يجعله في وسط [النهار](١) ثم يأكلها قبل النوم، والمعدة قد قاربت الخلو من الطعام؛ فقد ثبتنا ذلك.

* * *

(١) غير واضحة في الأصل.

الباب الثالث من الجملة السادسة

في العشق وعلاجه

قال بعض الفضلاء: العشق مرض نفس فارغة لا همَّ لها، وأمَّا كونه مرضًا خاصًّا بالنفس فهمًّا لا ريب فيه، وأما تعلقه بالنَّفْس الخالية من الهمِّ فهو أكثر، وليس يمتنع أن تتعلَّق النفس المهمومة.

وقد سأل المأمون جلسائه يومًا عن حدِّ العشق، وكلَّم فيه يحيى بن أكثم، فسكَّتَه شمامة بن أشرس، وقال: ما أنت وهذا؟! دع هذا الكلام لفرسانه، ثم كلم عالم تره صوابًا فلذلك لم تذكره.

وأول العشق شِدَّة استحسان المحبِّ للمحبوب ثم تمنِّيه قربه ثم الحذر من بُعده ثم كراهيته للوجود خاليًا منه، وهو من أعظم أمراض النَّفْس جناية على البدن، ولا سيما مع البُعد، وفراق المحبوب؛ فإنه يؤدِّي إلى السِّل في أكثر الأمر، وإلى الماليخوليا، وإلى الدِّق والذبول، وكثر ما يؤدِّي إلى احتراق القلب بالبخارات الدُّخانية، والموت الفجأة، وهو أحد الأمور التي يسهل أوائلها، ويعظم نكايةً آخرها، كالجنين المولود؛ فإن ابتداء مصيره إلى الأحشاء بلا ألم، وخروجه منها بإشقاء الوالدة على الموت.

فأما نفع وجود المعشوق، وإمكان القرب منه؛ فلا علاج للمحبِّ غير وصال الحبيب، كما قال: ما شفاء المحب إلا الحبيب، وليس في ذلك بين أحد من العقلاء خلاف.

وقالت أمُّ الضحاك المحاربية:

سَـــألتُ المحبّـــين الّـــذي تحمَّلـــوا تَبـاريحَ هَـذا الحـبّ في سـالف الـدهرِ

فَقُلتُ لَهُم ما يُذهب الحبّ بعدما تَبوّأ ما بينَ الجَوانحِ والصدرِ
فَقالوا شفاء الحبّ حبٌّ يُزيلهُ مِن آخر أو نأيٌ طويلٌ على هجرِ
أَو اليأس حتّى تذهل النفسُ بَعدما رَجت طَمعًا واليأس عونٌ على الصبرِ[1]

وقد جمعت هذا المرأة في هذه الأبيات أنواع علاج هذا الدَّاء.

وقال آخر:

بِكُلِّ تَداوَينا فَلَم يُشفَ ما بِنا عَلى أَنَّ قُربَ الدارِ خَيرٌ مِنَ البُعدِ[2]

وعلاجه عسِر جدًّا، ويمكنه بأحد أمرين:

أحدهما: تعذُّر وجود مماثل المعشوق يقوم مقامه عند العاشق.

والثاني: وقوع الدُّور أعني أن يكون المعشوق عاشقًا لعاشقه، وكلما اتصل بأحدهما أنبأ ما عند صاحبه من الكَلَفِ به تضاعف وجْدُه وكَلَفُه.

ولا ينقطع هذا النوع من العشق إلا بأن يتصل من العاشق والمعشوق من البلاغات المَبْنِيَّة بالسلوة ما تهدم ما شيدته البلاغات الأولى الموافقة للدور.

وأما النوع الأول: فلا علاج له إلا اطلاع العاشق على أحوال من المفض يجدها من المعشوق، أومشاهدة صورة أكمل من صورة المعشوق، أو أطيب عشرة بحيث يقف على بعض المعشوق بالإضافة إليها.

---

(١) الأبيات من الطويل، وهي لأم الضحاك المحاربية في «الأمالي» لأبي علي القالي ص (٩١٨)، و«الوافي بالوفيات» ص (١١٦٧٨).

(٢) البيت من الطويل، وهو لعبد الله بن الدُّمينة في «الحماسة البصرية» ص (٨١٥)، و«الزهرة» ص (٤١٢).

فأما من غير هذين النوعين فيعالج بمخالفة الصور الشبيهة بصورة المعشوق ومعاشرتها، والجماع نافع من العشق مسكن له بهذه الرأس حكاية.

وكان لي صديق من أبناء الأدب، ذكي الخاطر، ظريف الشيم إلى النفس شريفها، وكنت أراه كثير الزفرات، والتنفس صعدًا، حديد النظر، كثير الإظراف، دائم الفكر والحرث، كثير الرغبة في الخروج إلى المتنـزهات وشم النسيم، فكنت أرتاب بهذه الأحوال منه، وأقول له: إني لأخالك عاشقًا، وهو يحلف لي أن قلبه فارغ من المخلوقين جميعًا، وكان يبسط إليَّ بأسراره، ويفشي إليَّ ما هو أكثر من ذلك، بحيث لا أشك في صدقه.

فسافرت عنه مدة طويلة ثم لقيته، وقد زالت عنه تلك الصفات، وقد أصابه سقْمٌ وتحولٌ؛ فسألته عن أحواله، فقال: أعلمك أني كنت عاشقًا أيام كنت تسألني عن حالي، فقلت له: أما كنت تحلف لي إنك كنت فارغ القلب من ذلك؟ فقال: بلى، وما حنثت، فقلت: وكيف ذلك؟! قال: لم أكن أشعر بأني عاشق، فقلت له: ولمن عشقت؟ وما قصتك؟

فقال: اعلم، إني كنت قد تزوجت بجارية من أهل بلدي، لم أر مثلها قط جمالاً وكمالاً، ولم أكن وصلت إلى امرأة قط، فكَلِفْتُ بها كلفًا عظيمًا، وأحبتني الجارية أيضًا حبًّا شديدًا، ولم تكن تصبر عني ساعةً واحدةً، وكان أبواها مقيمين عندنا في دار واحدة، فلما شغف كلُّ واحدٍ منا بصاحبه، داخلهم الطمع في أمري، وكانا شرَّ خلق الله طبعًا، وأسوأهم أخلاقًا، فمازالا مستريحان تعنُّتي ونفاري حتى ضاق صدري بهم، وصاروا يمنعون الصبية من الاجتماع بي في أكثر الأوقات.

وكانت الأم داهية شديدة التسلُّط عليها، وكانت الصبية تخافها وتتَّقيها،

فمازلت أتَّقي شرهم لمحبتي لابنتهم، وشرُّهم ينمو ويتفاقم، حتى عجزت عن احتماله، وأنفت لنفسي مِمَّا يعاملوني به من الهوان، فأجتهدت في تحويلها عنهم إلى منـزل آخر، وبذلت لهم الخروج عن جميع ما أملك، فما مكَّنوني من ذلك، فلمَّا لم يبق لي طمع أيست من نفسي؛ لأني ما شككت في أنني إذا فارقت الصبية متُّ أو مرضت مرضًا فاني، فعملت على فراقها راضيًا بالموت، متحقِّقًا بحلوله غير شاكٍّ فيه، فسافرت عنها مضمرًا، ألا أعود إليها أبدًا معها في ذلك من التعرض للحتف، وتجرع مرارة فراق من لا بعده.

فمكثت ستَّة أشهر أزاول الهموم والأفكار، وأتجرع عند اجتماعي بالناس، ولا أبوح بخبري لمن يختصُّ بخدمتي، فضلاً عن سواه استحياءً أن يُشنِّع عني العشق والافتتان، فمازلت أخفي هذا الأمر في نفسي، وكلما استولت عليَّ الأَنَفَة من إظهاره، والاستقباح للاشتهار بالصبوة، أستتر العشق، وكمن باطن القلب، واندفن في النفس حتى ظننته قد ذهب، وكان لذلك سببان:

أحدهما: أني تزوجت بزوجتين، وتسرَّيت بعدَّة سراري.

والثاني: بُعدُ العهد بالمعشوق، ودوام النَّأي عنه، وممرُّ الأيام على فراقه فظننت أني قد سلوت، وذلك أني نسيت تلك الصورة المعشوقة، ولم تبق في خيالي فذلك حين كنت تسألني عن حالي أحلف لك أني لست عاشقًا، قلت له: فهل كان في الزوجات والجواري مثل الأولى في جمالها، ومن حلَّ في قلبك محلَّها؟ فقال: هيهات ذلك، قلت: فما بال تلك الزَّفرات وأمارات المتيَّمين؟

فقال: اعلم أني كنت نسيت تصعد أنفاسي، وكراهيتي حضور مواطن السرور والأفراح إلى استيلاء الحزن على قلبي، لتمادي الزمان في مكايدي، ولم أزل أتخذ زوجة

بعد زوجة، وجارية بعد جارية، ولا أجد القناعة بها حتى أتلفت مالي، ولم يوافقني منهن واحدة، وكان حمويَّ قد شخص في طلبي، ورام استصلاحي، فأبيت العودة؛ لأني لم أكن أطمع في فلاحهم ولا انصلاحهم، فألزمني حين آيس منِّي في طلاق ابنته، فطلقتها مكرها نفسي على ذلك، وبقيت على ذلك عدَّة سنين حتى أنسيتها.

وبلغني أنها تزوجت من شيخ قبيح الوجه والدمامة، أكرهها أبوها على نكاحه؛ فإنها نسيت بعد ذلك إلى العهد، فسقطت من عيني بحيث أني لو رأيتها لما التفتُّ إليها، ثم عدتُّ إلى بلدي بعد طلاقها بسبع سنين.

وأنا أستديم التَّمثُّل بقول الشاعر:

لـــئن زُفَّـــت إلى عُـــثمان عُـــرسي فـــــإنِّي لا أقابلـــــه بعتـــــب

فـــإن الأُســـد إن شـــبعت أباحـــت أجـــلَّ فريـــسة لأخـــسِّ كلـــب

فلما سمعت بقدومي، أرسلت امرأة تثق إليها من أهلها تشكو أشواقها وامتناع النوم عليها مذ شعرت بقدومي، وتعتذر عن تزويجها، بأنها أقامت على التَّألم أربعة أعوام رجاء أن أراجعها، وأنها في أكثر تلك السنين، كانت دائمة المرض ظاهرة السُّقم كثيرة الأسف والبكاء، وأنَّ أهلها كانوا يُحضرون إذا أفرط عليها الحزن والبكاء، من يغنِّي بين يديها مِمَّا قيل في الفراق، ومن يلعب بالملاهي؛ فتُسح دموعها سحًّا، وأنهم مازالوا يبلغونها من أخبار السلوة عنها، والتعوُّض بزوجة بعد زوجة، وجارية بعد جارية، ويخوِّفونها من أن ينتهي بها الدَّوام على ما هي عليه إلى ذهاب النفس شعاعًا[1] وكلفًا بمن لا يرجع إليها، ولا يسأل عنها حتى ألهموها التزويج من ذلك الشيخ.

---

(١) شعاعًا: أي تفرقًا، يقال: ذهب القوم شعاعًا أي: متفرقين [لسان العرب (شعع)].

وأخبرني رسولها بأن جمالها أضعاف ما كان في وقت مفارقتي إياها، فما هو يا أخي إلا ما سمعت ذلك، وانصرف عنِّي رسولها، وقد رددتها ردًّا جميلاً حتى أهاج مني ما لم أكن أظنُّه عندي من الشوق والغرام، ثم اتصلت بيننا المراسلات؛ فصار رسولي عندها كل يومٍ مرات، ورسولها يجيء إليَّ بالشكوى مِمَّا عندها من الغرام، وحرصها على لقائي يتزايد، حتى انطويت على أشد ما انطوى قلب إنسان عليه من كلفٍ وحُزنٍ وتمنٍّ للموت، ومازال ذلك ينمى، حتى صار أشدَّ ما كان في ابتداء عشقي.

فعلمت أن ذلك كان كامنًا في قلبي، وأنَّ الأنفة والعزم أخفياه حتى كمن وبَطَن، إلى أن ظننته قد ذهب، فاستدمت تعليلها بالوعد بالحضور من غير أن أتجاسر على لقائها؛ لأني لم أكن أعلم ماذا يؤثر عندي ذلك أني خشيت من أن أراها أجمل مِمَّا في خيالي؛ فيتضاعف الكلف بها حتى يُفقد الصبر، وأموت عند أول لقائها سرورًا وآخره أسفًا؛ لأنهما وقتا خطر العاشق، وخِفت أن يستفزَّني الهوى؛ فأصبو إليها، فأكتسب العار، وأدخل النار، وأدنس عقبي، وتستخف حلمي، وامتنع عني النوم عدة ليالي.

وقلت في ذلك:

ألا هَـلْ أَتَاهـا أننـي الليـلَ هـائمُ تَـصَاعد أنفـاسي كحـرِّ الـسَّمَائم
وأنَّ شـعاري ذكرُهـا وحـديثُها وذلـك عنـدِي كـالرقى والـتَّمَائِم
ومَـا كُـل صَـبٍّ يهجُـرُ النـومَ طَرفُـه ولا كُـل قَلِـبٍ قَلْبُـه قَلْـبٌ هَـائِم
ولا كُـل مـشتاقٍ يُهـيِّجُ وَجْـدَه إلى إِلْفِـه ذِكْـرُ الهـوى المُـتلائِم
لئن نِمْتُ عَـنْ وَجْـدِي خَلِيًّا فـإنني وعيشك في فِرطِ النَّجوى غـيرَ نـائِم

وكتب إليَّ بعض إخواني:

لـيس في راحـة سـوى المـوت يـا صـاح ولا لـذة بغـير الحِـمَامِ

إذ فـــؤادي قـــد اصـــطلته همـــومٌ لم يَطِـــقْ بعـــضَها صـــدورُ الأنـــامِ

فلما اشتدَّ ما بي جاءتني أم الجارية؛ فأكرمتها، ورحبت بها، وتكلفي لها إخفاء جميع ما كان عندي من التأثر بقديم محبتها، جلست منبسطة، وكانت قد شعرت بما تجدد من المراسلة بيني وبين ابنتها، وأعجبها ذلك.

فمازالت تعاتبني على طلاق ابنتها، وتظهر ما كان الزمان قد أنسانيه من سوء خلقتها، وسوء أدبها، واستطالتها، وخروجها في القبيح إلى ما لا يحتمل إلى أن أزال الله ما كان قد احتوى على قلبي من محبة ابنتها، وأستر حيث أكثر ما كنت فيه من الكَلَفِ بها، ونابت بث كلفتي، وصحني، فعزمت على لقائها واثقًا من نفسي عن أغلب الخلائق على النـزاهة والعفة؛ فإن الهوى يضعف عن علة هذه القوى.

ثم أرسلتْ إليَّ الجارية تواعدني لقاءَها دار صديقة لها، وتسألني ألا أبخل عليها بثروتي، فرافقتها وقت الميعاد، فوجدتها فانية في ارتقابي، لما عاتبتها لم أكد أعرفها حتى تكلمت، وزرفت عيناي سحًّا بعد زفر، فوقعت عليَّ بمسح عيني، وتبكي ثم كررت نظري فيها، فلم أر من الجمال الذي فارقتها عليه، ولا من الأدب واللطافة التي كنت أعهدها عليها شيئًا.

وذلك أني كنت فارقتها، ووجهها كالدينار المنقوش لرقة محاسنها، وكانت بيضاء، ناهد، رشيقة، حادَّة الصوت، خفيفة الانعطاف، مليحة الخلق، تنظر عثارية، مطواعة أريبة، أديبة، معتدلة القَدِّ، فصادفتها وقد شحمت طولاً وعرضًا، وأفرطت خصبًا، وقد تمرنت على شرب الخمر، والغي تقصد بذلك التسمين.

وقد أكسبها إدمان ذلك شحمًا كثيرًا مفرط الكثرة، زهلاً، كمداء اللون، فأكسب نور وجهها حمرة، وكمورة مفرطة، وقد غلظ صوتها، وساء خُلقها، وقد

رضعت آداب أمها السمجة، فحادثتها ساعة، ثم هممت بالانصراف، فتعلقت بذيلي، وأنا مولٍ، فقدت القميص من دبرٍ.

فقلت: هذا شعاركن يا صويحبات يوسف تخريق الأطمار من دبر، فأقسمتْ عليَّ أن أعود، فقعدت ساعة ثم انصرفت، واجتمعنا بعد أيام، فوجدت مدار كلامها، ومنتهى مقصدها اكتساب شيء من قِبَلِي، واستدراجي إلى ما أنا أبعد الناس عنه من العهر والصبوة؛ فهجرتها بعد ذلك ساليًا لها، ومكثتُ معها في المدينة بعد ذلك عدة شهور، لا أجتمع بها، ثم سافرت، وليس في قلبي لها موضع، ولا تتطلع نفسي إليها.

وقلت:

وفارَقْتُ حتى لا أبالي من النوى وإذ بانَ جيرانٌ عليَّ كِرامُ[1]

وقد جعَلَت نفسي على النَّأي تنطوي، وعيني على فقد الحبيب تنام، فبقيت الآن عاشقًا لمن ليس بموجود، قلت: وكيف؟ قال: لأن تلك الصورة التي كلفتُ بها، وأفنيت استحالت بالسنين والأعوام إلى ضدٍّ ما كان يعجبني منها؛ فصارت غيرها، فبهذا الطريق وجدتُ السلوة.

قلت: فإذا كنت قد سلوت، فما بالي أراك على ما أنت عليه من النحول والسُّقم مع ارتفاع ما كان عليك من أمارات العشاق - أعني: الزَّفرات وغيرها؟!

فقال: اعلم أن الحب كان في قلبي كامنًا تلك الأعوام الثمانية، وأنا لا أشعر به في أكثرها، فاحترق قلبي، وغلب عليه البُخار الدُّخاني، وسخن القلب بإفراط؛ فأوقعني ذلك في طرف من الدَّق، ولست أرجو السلامة منه ولا أريدها.

---

(١) البيت من الطويل، وهو بلا نسبة في «التذكرة الحمدونية» ص (٥١٨٨)، و«شرح ديوان الحماسة» ص (٤٢٧).

قلت: هل تجد الآن في نفسك حاجة إلى استقراء النسوان عسى تجد فيهن مثل الصورة التي أهدت بها؟

فقال: قد كان ذلك شعارًا لي، ومَذهَبا لديَّ إلى أن عانيت ارتفاع الصورة عن موضعها الأوَّل التي كانت به أخصَّ، فلم يبق لي إلى بليغ الصورة مثيل، ولا أُخالُني لو رأيتُ أحسن المخلوقات أُفنيت به، ولو كان ذلك لحبيبتي أسرع الملالة والسلوة، وأحسب أن مزاج نفسي انحرف عن الاعتدال الطبيعي له بعد ما عرض لها من المرض النفساني كما تنحرف أمزجة الأبدان بعد الأمراض الصعبة المزمنة، ويكتسب منه سوء مزاج.

فإذا كانت النفوس الأبيَّة قد يَقوَى عزمُها على التزام الصبر عن المحبوب، ويغلب جانب الأَنَفَة والعزة حتى يكمُن الحب في القلب، هذا اللون المولد للدَّاء الدَّوِي، فبالحرِيِّ أن يحذر العاقل عن مثله، كما يحترز السليم من غور السُّم في باطن بدنه، فصلاح هذا البدن نفي الهموم والأسقام عن باطنه إلى ظاهره.

ونرجع إلى تحقيق البحث عن حال علاج العشق؛ فنقول: إنه إذا كان العاقل اللبيب المختار، قد يكمن في قلبه العشق حتى يظن في قلبه السلوة، فلا ينبغي أن يعتمد على سلوة العاقل اللبيب؛ فإن تلك الحال التي تراها سلوة رُبَّما كانت لكمون الحب واحتجاجه، ولكنا نعدل إلى ما لا نشك في سلوته؛ فنستقرئ أسباب سلوته لنَقِف منها على علاج العشق، فترى الطفل الصَّغير عاشقًا لثدي أمه لا يصبر عنه، وتراه إذا كبر وترعرع قد سلاه، فبحث عن سبب هذه السلوة تجدها تمنع الثدي عنه فطامه واشتغاله لفراقه وحزنه مِمَّا يشده خاطره عنه، كما يعد للصبيان عند فطامهم من السكر واللوز، وأشباه ذلك.

ومن ذوات الألوان أو الصور المصنوعة من النحاس والخشب، وغير ذلك؛ فيشغله الإعجاب بتلك الشواغل عن محبوبه الأوَّل، ثم يستولي عليه الميل إلى بعضها بحيث لو سُلِبَ من يده بعض ما يلعب به الصبيان؛ لبكى عليه وقلق لفراقه، فإذا رأى ما هو أغرب عنده، وأعجب لديه، وأحسن في عينيه من العُلق المسلوب عنه اشتغل عن الباقي، واحتمل فراق الأوَّل، ولا يزال ينتقل عن محبة الشيء الصَّغير إلى محبَّة الشيء الكبير إلى أن يهوى الملابس الجميلة والآلات المذهَبَة والملونة، ثم ينتقل عند البلوغ إلى محبة الصور الإنسانية المليحة.

فلو عُرض عليه عند المراهقة ما كان يبكي عليه، وهو ابن ست سنين؛ لم يعبأ به ولم يجد ألما لفراقه، ولو عرض عليه، وهو من أبناء ستة سنين ما كان يبكي عليه عند الفطام، ولم يلتفت إليه، ولم يبكي على فراقه، وهذا يدل على أنَّ العاشق إذا فارق محبوبه، واتخذه بعده واحدًا بعد واحدٍ من أضرابه وأشكاله تملاه.

وأما على رأي المنجمين؛ فإن تعلق الأرواح بعضها ببعضٍ يتعلق شكل فلكي يكون للفلك عند أول الاجتماع بالمعشوق دالاً على تناسب الأرواح، وتعلُّق بعضها ببعض رُبَّما يعسر اتفاق مثله.

وأما العلَّة في قول بعضهم:

نَقِّل فُؤادَكَ حَيثُ شِئتَ مِنَ الهَوى ما الحُبُّ إلا لِلحَبيبِ الأَوَّلِ[1]

فهو أن بعض العشاق لم يقدر بعد فراق الحبيب الأول على مثله، وذلك مثل أن يكون المعشوق المفارق زوجة صغيرة السن؛ فيروم السلو عنها، باتخاذ زوجة بعد

(١) البيت من الكامل، وهو لأبي تمام في «أخبار أبي تمام» للصولي ص (٢٠٥)، و«الصناعتين» ص (٣٨٧).

زوجة، ولا يقصد على من كان مثل حالها في صغر السن أو جمال الصورة أو خصب البدن أو حسن الخلق متخذًا واحدة بعد واحدة من العاليات الأسنان، فلا يصادف عندهن من اللذَّة بالمتعة ما كان يجده عند الصَّغيرة السن، أو يتخذ منهن قبيحة بعد عجفاء بعد سمراء بعد مهزولة بعد مهذارة بعد فارك بعد ناشزٍ بعد عاهرٍ بعد مسقامة.

فكلما رام التَّداوي بقربه من إحداهن؛ ادكره نقصها كمال صاحبته الأولى، وكمن فارق مملوكه موافقة أديبة؛ فيعوض عنها بزوجة بعد زوجة، فلا يرى عند الزوجات من الاستكانة ما كان يراه عند المملوكة، ويشتد أسفه، وكمن فارق معشوقة سوداء حسناء أو أعرابية حسنة الخلق ممتعة الخلوة ثم رام السُّلو عنها باتخاذ الجواري الأرمنيات والتركيات والروميات، فلا يجد السلوة؛ لأنه لا يرى عندهن من حسن الأخلاق، كما كان يرى؛ فيظن أن معشوقه لا يوجد له عوض، فيتضاعف كلفه، ولو تتبع اضطراب المعشوق وأشباهه، لا يهتدي طريق السلوة؛ مِمَّا يدل على استقراء الصور طمعًا في الظفر بمشابهة المعشوق، وهذا أبعد غاية في النعت، كملت الحكاية بعون الله تعالى.

* * *

الباب الرابع
من الجملة السادسة من الجزء الثاني
في علاج خبث النفس لغمٍّ أو خوفٍ

علاج ذلك السكون في البيوت الوافرة الضياء المبيَّضة الجدران التي تشرق الشمس على حيطانها، والنظر إلى المياه الصافية الجارية والبساتين، وشمُّ الرياحين والأزهار، وتنسم الرياح المعتدلة، ومجالسة الندماء والأحباب، والاستحمام المعتدل، وتناول عشرة دراهم شراب تفاح حُلو مع دانق واحد زعفران في كل يوم بكرة.

وأنفع ما كان ذلك عَقِيب الاستحمام، وأنَّ من يعتاده اهتياج الصفراء والقيء، اتبعه بعد ساعة واحدة بدانقين من العود الاليحوح مسحوقًا ناعمًا وسبعة دراهم معجون الورد سكري.

وتمرس ذلك مع ماء نقيع الأمير باريس[1] ويشربه، وينتفع أيضًا بالبخور بالعود والندِّ، واستماع الموسيقى، وشرب اليسير من الشراب العطر العتيق الَّذِي يحصل منه النشوة.

* * *

(١) هو البرباريس والزرشك بالفارسية ومنه أندلسي وورومي وشامي يجلب من جبل بيروت وجبل بعلبك وهو أجود من الرومي عند باعة الغطر بمصر والشام.
قال الرازي: عاقل للبطن قاطع للعطش جيد للمعدة والكبد الملتهبتين ويقمع الصفراء جيداً. التجربتين: حبه يجفف قروح الأمعاء ويقطع نزف دم الأسفل إذا تمودي عليه ويقوي الكبد الحارة الرطبة إذا خلط بالأدوية الحارة كالسنبل وما يجري مجراه نفع من الاستطلاق الذي يكون عن برد الكبد والمعدة ينفعها إذا ضعفت عن الحمى البلغمية أيضاً.

الباب الأول
من الجملة السابعة من الجزء الثاني
في كيفية الإحبال

ينبغي للمتزوجين أن يتركا الجماع أيامًا ثم يُقصد الجماع في أول طهرها، وليكن الرجل قد انهضم طعامه وقارب الجوع، إلا أنه لم يجعْ، وليطاولا اللعب، وخصوصًا مع النساء اللواتي لا يكون مزاجهن رديئًا؛ فإن الرديئة المزاج القبيحة الأدب، يفسد مزاج المَنِيِّ الَّذِي يجتمع بمداعبتها.

وليكثر من لمسِّ ثدييها برفق وتدغدغ، ويلقاها غير مخالطِ الخلاط الحقيقي؛ فإذا سبقت ونشطت خالطها محاكًا منها ما بين بظريها من فوق، فإن ذلك موضع لذاتها، ويراعي منها الساعة التي يشتد منها اللزوم، وتأخذ عينها في الاحمرار، ونفَسها في الارتفاع، وكلامها في التبلبل؛ فيرسل حينئذ المَنِيَّ محاذيًا لفم الرَّحِم موضعًا لمكانه هناك قليلاً قدر ما يبلغه أثر من الهواء الخارج ألبتة؛ فإنه في الحال يفسد، فلا يصلح للإيلاد، وليعمد بتزريق المَنِيّ في فم الرَّحِم ثم يلزمها ساعة، وقد خالط بعد ذلك الخلاط الَّذِي هو أشد استقصاء، حتى إن ثغرات الرَّحِم ومتنفساته قد هدأت كل الهدوء، وبعد ذلك يسيرًا، وهي فاجحة مشالة الوركين نازلة الظهر، ثم يقوم عنها، ويتركها هنية ضامة الوركين والرجلين حابسة للنفس، وإن نامت بعد ذلك، فهو أوكد للإغلاق.

وإن سبق فاستعمل عليها بخورات موافقة لهذا الشأن، كان ذلك أوفق حمولات وخصوصًا الصموغ التي ليست شديدة الحرارة مثل المقل[1]، وما يشبهه مجمل

---

(١) هو جنسان صقلي وهو أشد سواداً وألين من المقل الآخر وقوته ملينة وعمله بهذه القوة بليغ والآخر عربي والعربي أيبس من الآخر وقوته أشد تجفيفاً من الأدوية الملينة وما كان منه حديثاً رطباً إذا عجن كان كاللبن فعمله كعمل الصقلي وكلما عتق حدثت في طعمه مرارة شديدة وصار

قبل ذلك. ويصلح أن يتقدم قبل هذا بتناول الأغذية الباهية، ويتناول قبل الجماع بمدة عشرون يومًا كل ليلة قبل النوم درهمين من هذا الدواء بهمان أحمر درهمان، بهمان أبيض درهمان، بدرهم لؤلؤ درهم فلفل قرنفل درهم قاقلة درهمان، زنجبيل درهم، جوزبوا نصف درهم، زعفران نصف درهم، دار صيني درهمان، سليحة درهم أو ورق القرنفل درهم، تجمع هذه الأدوية مسحوقة منخولة، ويُعجن بعسل، ويرفع إناء، ويتناول منه الرجل والمرأة.

***

حاداً حريفاً يابساً فقد خرج من طبيعة اعتدال الأدوية الملينة للأورام الصلبة ومن الناس من يستعمله وخاصة العربي في مداواة الأورام الحادثة في الحنجرة وفي قبلة الأمعاء وإذا أرادوا استعماله لينوه بريق إنسان لم يأكل شيئاً ثم لا يزالون يعجنونه حتى يصير كالمرهم وقد يظن بالمقل العربي أنه يفتت حصى الكليتين إذا شرب ويدر البول ويذهب الرياح الغليظة إذا لم تنضج ويفشها ويطردها ويشفي وجع الأضلاع وفسوخ العضل كلها.

الباب الثاني
من الجملة السابعة من الجزء الثاني
في علاج من لا تحبل، وامتحاق العقيم

المَنِيُّ الصحيحُ الذي تعلق منه الأبيض اللزج البراق الذي يقع عليه الذباب، ويأكل منه، وريحه ريح الطلع، وأي امرأة طهرت، فلم يجف فم رحمها بل كان رطبًا؛ فإنها لا تحبل، وأنبهك فيما بعد كيف يعلم مزاج الرحم.

فإن كان يغلب عليه الحرارة استفرغت الأخلاط بالأغذية، والأشربة، واستعمل على الرحم قيروطات معادلة لحرارتها مثل: العصارات، واللعاب، والأدهان الباردة.

وإن كان السبب البرد والرطوبة -وهو الكائن في الأكثر- عولج بهذه الأدوية، ويبدأ أولاً باستعمال هذه الحقنة: فُقَّاح إذخر، كف مزرنجوش، كف فوذنج، كف تربد[1] خمسة دراهم، ثم يطبخ ذلك بخمسة أرطال ماء حتى يبقى رطلٌ واحدٌ، وتحتقن

---

(١) قال أبو العباس الحمصي: التربد بالعراق على الصفة التي تجلب إلينا وهو مجلوب إليهم أيضاً من وادي خراسان وما هنالك وأخبرني الثقة العارف بالعقاقير.

أبو علي البلغاري ببغداد أنه بحث في البلاد الخراسانية عن صفته وهيئته وورقه فأخبره الجلابون له أن ورقه على هيئة ورق اللبلاب الكبير إلا أنه محدد الأطراف وله سوق قائمة لم أتحقق أنا صفتها وأصوله طوال على الصورة التي هي مجلوبة وهم يقطعونه وهي خضر قطعاً قطعاً على القدر الذي هو موجود. ذكر لي الثقة أن كل ما يجلب من التربد في البحر يسرع إليه التآكل بخلاف المجلوب منه في البر فاعلم ذلك ولما كان المتأخرون من المتطببين لم يبحثوا عن صفته وذكروه مهملاً في كتبهم وجد المدلسون السبيل إلى تدليسه بغير ما نوع من الكلوخ، ومن اليتوع وغير ذلك مما يجب التوقف عنه والتحذير منه.

ابن ماسويه: في إصلاح الأدوية المسهلة خاصة التربد إسهال البلغم إلا أنه يورث البشاعة للنفس لفظاعة مطعمه فإن أراد مريد أخذه فليتقدم قبل ذلك في إصلاحه بلته بدهن اللوز الحلو فإنه يمنع ضرره ثم يأخذه والمختار منه ما كان حديثاً جوفه شديد البياض أملس الظاهر دقيق العيدان غير متآكل ليس بذي شظايا والشربة منه ما بين درهم إلى درهمين.

به بما يمكنها منه من في الرحم فاترًا، وتبتدئ باحتمال صمغ الكنكر(١)؛ لتخرج الرطوبات، ثم تتبخر كل يوم بأقراص متخذة من المر والميعة، وحَبِّ الغار أجزاء سواء معجونة بالميعة السائلة، وتتبخر بقمع ليوفر البخور على فم الرحم.

بخور آخر: زرنيخ أحمر، وجوز السرو، يعجن بميعة سائلة، وتبخر بقمع بعد الطهر ثلاثة أيام.

المشروبات ذوات الخواص: تسقى المرأة بول الفيل؛ فإنه عجيب في ذلك، وليفعل ذلك بقرب الجماع، وكلما يجامع، وأيضًا نشارة العاج؛ فإنه حاضر النفع.

آخر: شحم الأوز في صوفة، واحتمال نفحة الأرنب بعد الطهر مع زَبَدِ البحر يعين على الحبل.

وكذلك احتمال بَعَر الأرنب، وكذلك مرارة الظبي الذكر، وخصوصًا إن جعل معهما شيئًا من خصي الثعلب والعسل، وكذلك مرارة الذئب أو الأرنب والأسد نحو دانقين.

---

(١) هو الخرشف البستاني. قال ديسقوريدوس في الثالثة: هو صنف من الشوك ينبت في البساتين والمواضع الصخرية والتي فيها مياه وله ورق أعرض بكثير وأطول من ورق الخس مشرف مثل ورق الجرجير عليه رطوبة تدبق باليد أملس إلى السواد وساقه طولها ذراعان ملساء في غلظ أصبع وفيما يلي طرف الساق الأعلى ورق صغار شبيهة بما صغر من ورق النبات الذي يقال له قسوس مستطيل لونه شبيه بزهر النبات المسمى براقيس يخرج فيما بينه زهر أبيض، وله بزر مستطيل أصفر اللون وفي طرفه كرأس الدبوس وأصوله لزجة فيها شيء شبيه بالمخاط في لونها حمرة النار طوال، وإذا تضمد به بالماء وافق حرق النار والتواء العصب وإذا شربت أدرت البول وعقلت البطن ونفعت قروح الرئة وخضد لحم العضل وخضد أطرافها.

وقال الرازي في دفع مضار الأغذية: هو غليظ الجرم بطيء الإنهضام والإنحدار وينفخ ويزيد في الباه ويسخن الكلى والكبد والمثانة وإصلاحه أن يهري بالطبخ ويكثر فيه هذه التوابل والأبازير اللطيفة ويؤكل جرمه.

فصل: إن كان السبب كثرة الشحم استعملت الرياضة، وبلطيف الغذاء، وهجر الاستحمام الرطب إلا بمياه الحمامات، والاستفراغ بالفصد، والحقن الحارة، وبالمجففات المسخنة مثل: الترياق والسادريطوس، ويجب أن تهجر الشراب الرقيق الأبيض، وتستعمل الأحمر القوي الصرف.

ومن [الفراريج][1] الجيدة لهن سكبينج، ومر، وعسل، ودهن السوسن.

وإن كان السَّبَب رياحًا مانعة من تمكن المَنِيِّ، عولجت بالكمُّولي، وشراب الأنيسون، وبزر الرازبانج، وبزر السذاب في ماء الأصول، واستعملت فزارج متخذة من هذه، ومن محللات الرياح مثل الجندباستر، وبزر السذاب.

وإن كان السَّبَب شِدَّة اليبس؛ استُعملت الحقن المُرطبة، واحتمالات الشحوم اللينة، وسُقي لبن المعز والأسفيذباجات الدسمة.

وإن كان السَّبَب ضيق فم الرَّحِم؛ فيجب أن يستعمل دائمًا ميل من أسرُب ويغلظ على التدريج، ويُمسح بالمراهم اللينة، ويُستكثر من الجماع، وينفعها أكل الكرنب، ويُستعمل الكرفس والكمون والأنيسون.

وإن كانت رطوبة استفرغت بالإيارجات[2] والمعاجين الكبار كالمثروديطوس[3] والدرياق والسادريطوس ومعجون الفلاسفة.

* * *

(١) هكذا في الأصل.

(٢) الإِيارَجَةُ، بالكسر وفتح الرَّاءِ: مَعْجونٌ مُسْهِلٌ.

(٣) ذكره ابن النفيس في الموجز في الطب (ص١٥١، ٢٥٧، ٢٦٤).

الباب الثالث
من الجملة السابعة من الجزء الثاني
في التحرز من الحبل

قد يفتقر الطبيب إلى منع الحبل عن الصَّغيرة والمخوف عليها من الولادة، والتي في رحمها علة، والتي في مثانتها ضعف؛ فإن ثقل الجنين رُبَّما أورث شقًّا في المثانة، فيسلس البول، ولا يُقدر على حبسه آخر العمر.

ومن التدبير في ذلك أن تؤمر عند الجماع بأن تتوقَّى الهيئة المجلة التي ذكرناها، وتخالف بين الإنـزالين، وتؤمر بأن تقوم المرأة مع الفراغ، وتثب إلى خلف سبع مرات أو تسع وثَبَات، فرُبَّما خرج المَنِيُّ، وأما الطفر والوثب إلى قدام، فرُبَّما سكن المَنِيُّ، وقد يعين على إزلاق المَنِيِّ أن تعطس.

ومما يجب أن تراعيه أن تتحمل قبل الجماع وبعده القطران وتمسح به الذَّكَر، وكذلك دُهْن الملسان والأسفيداج، وأن تتحمل قبل وبعد شحم الرمان والشبت، واحتمال فقاح الكرنب وبزره عند الطهر قبل الجماع وبعده؛ فإنه قوي في هذا الباب، وخصوصًا إذا جعل في قطران وغمس في عصارة الفوذنج أو طبيخه، واحتمال ورق الغرب بعد الطهر في صوفة، وخصوصًا إذا كان مع ذلك مغموسًا في ماء ورق القرنفل، وكذلك شحم الحنظل وخبث الحديد والكرنب والسقمونيا وبزر الكرنب أجزاء سواء تجمع بقطران وتُحتمل، واحتمال الفلفل بعد الجماع يمنع الحبل، وكذلك احتمال زبل الفيل وحده أو مع السخيرية في الأوقات المذكورة، ومن المشروب أن يسقى ماء الباذروج[1] ثلاث أواق؛ فيمتنع الحبل.

---

(١) قال ابن سينا في كتابه في الأدوية القلبية: فيه عطرية مع قبض شديد وتسخين وفيه رطوبة فضلية ويفرح لخاصة تعينها العطريه التي يصحبها قبض مع تلطيف على نحو ما حمدناه إلا أن عاقبته أيضاً في التفريح غير محمودة، وذلك لأن الجوهر الغذائي الذي فيه مضاد للجوهر الدوائي الذي فيه لأن الجوهر الدوائي الذي فيه يفعل ما ذكرناه، والجوهر الغذائي الذي فيه يتولد منه دم عكر سوداوي والرطوبة الفضلية التي فيه تحدث مضرة النفخة في العروق وقد عرفت هذين المعنيين بالروح والفرح.

الباب الرابع
من الجملة السابعة من الجزء الثاني
فيما يسقط الأجنَّة

قد يُحتاج إلى إسقاط الأجنَّة في أوقات؛ منها عندما تكون الحُبلى صغيرة، يُخاف عليها من الولادة الهلاك، ومنها عندما يكون في فم الرَّحِم آفة أو زيادة لحم يشُق على المولود عند الخروج فيقتُل، ومنها عند موت الجنين في بطن أمه.

واعلم أنه إذا تعسَّر أمر الولادة أربعة أيام؛ مات الجنين، فاشتغل بتخليص الوالدة، ولا يشتغل بحياة الجنين بل اشتغل بإخراجه، والأدوية التي تخرج وتُسقط بأن تقتل الجنين، وبأن تدر الحيض، وقد يفعل بالإزلاق، والقاتلة للجنين المرة والمدرَّة للحيض أيضًا هي المرة والحريفة، والمزلقات هي المرطبة اللزجة تستعمل مشروبات وحمولات.

ومن الاستفراغات الفصد، وخصوصًا الصافي بعد الباسليق[1] على كبر من الصبي والإجاعة والرياضة والوثبات الكثيرة وحمل الثقيل والتعطيس.

ومن التدبير الجيد في ذلك أن يُدخل في فم الرَّحِم من الحبلى كاغدًا مفتولاً أو ريشة أو خشبة مبرية قدر حجم الريشة أو طاقة سذاب أو أسنان أو عرطيثًا أو سرخس؛ فإنها تسقط الأجنة لا محالة، وخصوصًا إذا لطخت بشيء من الأدوية المُسقطة كالقطران، وماء شحم الحنظل ونحوه.

والأدوية المُسقطة منها مفردة، ومنها مركبة، فأما المفردة التي هي أبعد من شدَّة الحرارة؛ فهي الأفسنتين والشاهترج[2].

---

(١) هو موضع في اليد يصلح فيه الفصد.

(٢) نافِعٌ ورَقُهُ وبِزْرُهُ للجَرَبِ والحِكَّةِ أكْلاً وشُرْباً لِمَا يَرِدُ مِنَ الحُمَّيَاتِ العَتيقَةِ.

وأما الأدوية الحارة المفردة؛ فهي الشطرح[1] وهو نسبة الخزف، وله رائحة حريفة إذا احتمل أسقط الجنين والمشيمة، والحلتيت وبخور مريم في هذا الباب قوِي شُربًا وحمولاً.

حتى أن قومًا زعموا أنَّ الحامل إذا وطئته؛ رُبَّما أسقطت بعد وقت، وعصارته يفسد الجنين طلاء على البطن؛ فكيف حمولاً على قطنة.

وإن سُقي من الأُشنان الفارسي وزن ثلاثة دراهم ألقت الجنين من يومه، وحافر الحمار يخرج الجنين الميت بخورًا، وكذلك عين سمكة مالحة.

صفة دواء قوي يخرج الجنين حيًّا وميتًا: حلتيت نصف درهم، ومن ورق السذاب اليابس ثلاثة دراهم، ومن المرِّ درهم، وهو شربة سلامة الأبهل، شربة بالغداة وشربة بالعشي.

دواء يُسقط الأجنة بسهولة، ويسكن الغثيان: دار صيني، قردمان أبهل، عشرة مرخمة، والشربة ثلاثة دراهم كل يوم، وقد يسهل مع ذلك، وهو تنقية للنفساء، وإخراج المشيمة، وترياق الأربع، قوي في الإسقاط وإخراج الميت.

فُزرجة جيدة: عصارة قثاء الحمار عشرة قراريط معجونة بمرارة ثور، ويحتمل؛ فإنه يخرج الجنين حيًّا وميتًا.

ذكر زراقة الرَّحِم يجب أن يكون الزرافة مملسة الطَّرف، طويلة العنق بطول قرن الرَّحِم من المرأة المعالجة، وبحيث تدخل فم الرَّحِم، وتحس المرأة أنها قد صارت في فضاء داخل الرَّحِم، ويُزَرَّق منها ما يقيل الجنين أو يزلقه أو يخرجه، تدر الحامل بعد الإسقاط يُدَخَّن بالفل والحرمل وعلك البُطم والصعتر والخردل الأبيض لغسل الدم، ويخلط فتحبس في إخراج المشيمة، ثم يُمسك المنخران والفم كطماء قشور البيض ويتمدد وتزلق المشيمة.

---

(١) لعله الشيطرج أيضًا وهو العصاب، وهو سواك الرعيان وجوز الرعيان والهندي عو المعروف، وهو الذي تشربه الناس بالسكر، بدل القهوة بفاس.

وإذا ظهرت المشيمة قلقل قليلاً قليلاً برفق لا عنف لئلا تنقطع، واشتغل بالتعطيس، وإن لم تخرج المشيمة؛ فإنها بعد أيام تتعفن وتخرج، لكن يستعان على أذاها بالبخورات العطرة، وشرب دواء المسك، ويطلى على المقعدة والقلب القرنفل[1] والزعفران[2].

* * *

(١) قال إسحاق بن عمران: هو ثمر وعيدان يستعملان جميعاً يؤتى به من أرض الهند فيه العيدان وفيه الرؤوس ذوات الشعب وهو أجوده وأجوده أصهبه ومنه دقاق وجلال وجلاله هو المقطوع يقطع سلس البول والتقطر إذا كانا عن برد ويسخن أرحام النساء، وإن أرادت أن تحبل المرأة شربت في كل ظهر وزن درهم قرنفل، فإذا أرادت أيضاً أن لا تحبل فتأخذ في كل يوم حبة قرنفل ذكر فتزدردها، وإن شربت من القرنفل نصف درهم مسحوقاً يؤخذ مع شيء من لبن حليب على الريق فإنه مقو على الجماع.

(٢)الجامع لمفردات الأدوية والأغذية - (ج ١ / ص ٣٤٢)

جالينوس في الثامنة: في الزعفران شيء قابض يسير، وهذا منه أرضي بارد، ولكن الأغلب عليه الكيفية الحارة فتكون جملة جوهره من الإسخان في الدرجة الثانية ومن التجفيف في الدرجة الأولى، ولذلك صار ينضج بعض الإنضاج، ومما يعينه على ذلك القبض اليسير الموجود في ذلك لأن ما كان من الأدوية لا يسخن إسخاناً قوياً، وكان فيه قبض فهو في قوته مساوٍ للأدوية التي تغري وتلحج إذا كان معها حرارة موجودة وليست بالشديدة وهي أدوية تنضج.

وقال ابن سينا في الأدوية القلبية: حار في الثانية يابس في الأولى وفيه قبض وتحليل قويان يتبعهما لا محالة الإنضاج، وله خاصية شديدة عظيمة في تقوية جوهر الروح وتقريحه بما يحدث فيه من نورانيته وانبساطه مع متانة وتعينها العطرية الشديدة مع الطبيعة المذكورة فإذا استكثر منه أفرط في بسطه للروح وتحريكه إلى خارج حتى يعرض منه انقطاعه عن المادة المغذية ويتبعه الموت، وقد قدر لذلك وزن فالأولى أن لا يذكره.

وقال مسيح: الزعفران يهضم الطعام ويجلو غشاوة البصر ويقوي الأعضاء الباطنة الضعيفة لما فيه من القوة القابضة إذا شرب أو وضع من ظاهر عليها ويفتح السدد التي تكون في الكبد والعروق باعتدال لما كان فيه من الحرافة والمرارة إلا أنه يملأ الدماغ.

الجملة الثامنة من الجزء الثاني

في مداواة العذيوط

العذيوط[١] هو الَّذِي إذا جامع ألقى زبله عند الإنـزال، ولم يطق ضم مقعدته، وأكثرهم يغلب عليه الشبق جدًّا، ويكثر فيهم اللذَّة، ويسترخون وتترهل أبدانهم، وينفعهم المراهم والأضمدة القابضة المقوية للعضل، مثل دُهن النارديـن خاصَّة، ودُهْن السرو[٢]، ودُهْن الأبهل مرهم جيد سحيق الكهربا والأقاقيا والسوسن اليابس والحناء، ويتخذ منها ومن دُهْن السفرجل مرهمًا، ويستعمل دائمًا على العضل الَّذِي بالمقعدة، وتتخذ حمولات جابسة، وخصوصًا عند الجماع مثل أن يُحتمل شيافة زامك وعفص وكندر وجُلنار.

وأيضًا تحتمل الأدهان القابضة ويُغذ بالأغذية القابضة كالسماقية والخضرية، ويتناولون كل ليلة قبل النوم من اللبان، ويكثرون من شم العنبر ويتناولون شراب التفاح الحلو الَّذِي فُتق فيه شيء من الزعفران في غداة كل يوم وبعد الاستحمام، ويتبعونه بماء نقيع الأمير باريس محلولاً فيه معجون الورد السكري.

---

(١) قال المجد في القاموس المحيط - (٢/ ٢٢٦): العِذْيَوْطُ والعُذْيُوطُ والعِذْوَطُ، كحِزْبَوْنٍ وعُصْفُورٍ وعِتْوَرٍ التَّيْتاءُ ج عِذْيَوْطُونَ وعَذاوِيطُ وعَذَاوِيطُ، وقد عَذْيَطَ، والاسمُ العَذْطُ، أو لا يُشْتَقُّ منه فِعْلٌ لأنه خِلْقَةٌ.

(٢) قال ديسقوريدوس في الأولى: يقبض ويبرد وإذا شرب ورقه مسحوقاً بطلاء وشيء يسير من المر نفع المثانة التي تنصب إليها الفضول ومن عسر البول، وجوز السرو إذا دق وهو رطب وشرب بخمر نفع نفث الدم وقرحة الأمعاء والبطن التي يسيل إليها الفضول وعسر النفس الذي يحتاج فيه إلى الانتصاب والسعال، وطبيخ جوز السرو أيضاً يفعل ما يفعله جوز السرو وإذا دق جوز السرو طرياً وخلط بتين لين الصلابة وأراقولونس وهو لحم ينبت في الأنف من باطنه وإذا طبخ بالخل ودق وخلط بالترمس قلع الآثار البيض العارضة للأظفار، وإذا تضمد به أضمر الأدرة من الفتق، وورق السرو يفعل ما يفعله جوز السرو وقد يظن أنه يطرد البق إذا دخن بأغصانه والورق، وورق السرو إذا كان مسحوقاً وتضمد به ألزق الجراحات وقد يقطع الدم وإذا دق وخلط بالخل سود الشعر، وقد يتضمد به وحده وبالسويق للجمرة والنملة والجمر والأورام الحارة العارضة للعين، وإذا خلط بموم وزيت عذب ووضع على المعدة قواها.

وقال ابن سينا: طبيخه بالخل نافع لوجع الأسنان ورماده إذا فرّ على حرق النار وعلى سائر القروح الرطبة نفعها.

الجملة التاسعة
في مداواة أمراض تختص بالرحم
الباب الأول
من الجملة التاسعة من الجزء الثاني
في تدبير المفتضة

سبيل المجامع أن يتأنى عند الوطء؛ فإنه لا يعلم على ماذا يرد من صحة الرَّحِم وسقمه وملائمته للإحليل وإضراره به، وأكثر الأرحام لا يخلو من مرضٍ وعرض مكرر أو حال ضار بمن يأتيها كالشُّقاق في الرَّحِم والسيلان والضحى اللذاع لا يستطاع وطؤها؛ لأن الألم الشديد يُسرع إلى القضيب حين يولج لذع كلذع الزنابير، فلا يجد قرارًا إلا بمباشرته الماء البارد، ويعقبه ضعف عند الباءة فيما بعد، والدليل في ذلك عينا المرأة؛ فإن العين عند أبقراط دليل على مزاج الرَّحِم، فإذا حسنت وصفًا بياضهما، ولم يكن في الأجفان هيج كان دليل على صحة الرَّحِم.

والأمر الثاني حال المرأة عند تمكينها من نفسها والمراودة لها؛ فإن كانت كالمجبورة والمتكرهة والمتعللة بعذر أو كالمتألمة، وكانت شديدة الحرص على دفع يد العابث بذلك العضو، فحينئذٍ يجب التأني في وطئها.

فإذا عرض لهن نـزف وأوجاع؛ فتجلس في المياه التي قد طبخ فيها زامك وآس وجلنار وعفص مرضوض وسنبل الطيب وفقاح الإذخر، وفي الخمر والزيت بعده، واستعمل من بعد ذلك قيروطي، متخذ من دُهْن ورد وشمع، ويجعل في صوف ملفوف على أنبوب مانع عن الالتحام، ويخفف عليهن المجامعة، وأن يستعمل العسل على الفرازج بعد غسل العضو بالشراب المحلول فيه الملح، وبعد تلك الفرازج تتحمل مرهم هذه صفته: أسفيداج الرصاص ولبان وطين مختوم من كل واحد جزء، ويخلط بدهن وشمع وتَتحمل به.

* * *

الباب الثاني
من الجملة التاسعة من الجزء الثاني
في معظمات الذَّكَر والمضيقات والملذات والمسحات

وبعد؛ فلا عتب إذا تكلمنا في تعظيم الذَّكَر، وفي تضييق الرَّحِم، وتلذيذ الأنثى ما يولد انتشار الذَّكَر وقيامه؛ لأنها من أسباب النسل، فكثير ما يكون صغير القضيب أو سريع الإنـزال أو قلَّة صلابة الذَّكَر سببًا، لأن لا تلتذ به لأنه خلاف ما اعتادته فلا ينـزل، وإذا لم يكن وَلَد، ورُبَّما قرعت صاحبها وتطلب غيره.

فما من سبيل الرجل العاقل من حفظ صحة مزاج إحليله، والاعتناء بتقوية آلات نسله؛ فكم من أسيرٍ عانٍ كان إحليله شفيعه، وكم من ملك عزيز السلطان نـزعه فتور أيره من ملكه، وأثر بمكانه من هو أنشط منه، وكم من مريض سُقي السم عوض الدواء؛ لإهماله وهجره عنه.

وكم من زنيم[1] أُجلس مجالس الملوك، وتمكن من الرغائب لقوة رهزه، وامتداد إحليله، وكم من فتى على العين جمالاً والأذن بيانًا عاملنه بالهجر وقليه، وآثرن بمكانه مشوه الصورة لعظم ذكَره، وقِلَّة أعبائه.

وكذلك إن لم تكن المرأة ضيِّقة لم توافق الزوج، ولم يوافقها واحتاج كل واحد منهما إلى بدل، وكذلك التلذيذ؛ فإنه يدعو إلى الإنـزال العاجل؛ فإن النساء في أكثر الأوقات يتأخر إنـزالهن، ويقمن غير قاضيات للوطر، فلا يكن شبعن من شبقهن، ومن أجل هذا أفزعن إلى المساحقة.

---

(١) الزنيم: هو المستلحق في قوم ليس منهم، لا يحتاج إليه؛ فكأنه فيهم زنمة، وهي شيء يكون للماعز في أذنها كالقرط [مختار الصحاح (زن)].

وأما التضييق والتسخين؛ فإنه محبوب عند النساء، فكم من سوداء مهزولة وأرمنية مفتولة أوثرت على الحسناء الرومية والخود التركية.

ونحن نذكر ما يعالج به هذه الأحوال ملذذات الرجال والنساء الحلتيت وزبق الكابه وعسل الأملج وعسل قد عجن به سقمونيا والزنجبيل والفلفل بالعسل، وأن يستعملوا [الطرفا[1]]، وخصوصًا على النصف الأخير من القضيب؛ فإنه أكثر فائدة في استعمال ذلك على الكثرة، ويدلك الذَّكَر بالشحوم والأدوية الحارَّة بعد الخرق الخشنة، وصب الألبان عليه، وخصوصًا ألبان الضأن ثم إلزاق الرَّفت عليه، يدام على هذا طرفي النهار، ولبن وماء [الباذورد[2]].

في المضيقات والمسخنات يؤخذ عفص مخ جزئين تفاح الإذخر جزء، وينخلا في منخل ضيق، ويتحمل بخرق مبلولة في الشراب واحدة بعد واحدة؛ فإنه يعيد البكارة، وأيضًا قشور الصنوبر مدقوقة أربعة أجزاء، شبت جزئين، سُعد جزء، ويطبخ بشراب ريحاني، ويبل به خرق كتان ويتحمل، ويجب أن يحفظ في إناء مشدود الرأس، ويستعمل منها واحدة بعد واحدة؛ فإنها جيدة.

مضيق آخر: عود وسُعد وزامك وقرنفل وراس وقليل سك يسحق الجميع ويلوث صوفة مسحوقة في المسوس، ويتحمل بها.

دواء مسخن للقبل مطيب: يغلى سك وزعفران ومسك في شراب ريحاني، ويشرب به خرقة كتان، ويستعمل؛ فإنه مطيب.

صفة فرزجة تطيب الرَّحِم وتضيقه وتملِّسه وتسخنه وتذهب خشونته: سكبينج نصف درهم، جاوشير ثلاثة دراهم، زعفران ثلاثة دراهم يحل السكبينج والجاوشير بالماء في الهاون، حتى يصير كالعسل ثم يضاف إليهما الزعفران، وتتحمل به في صوفة.

صفة فُزرجة تطيب الرَّحِم وتطيب ريحه: عفص درهم، جلنار نصف درهم، زعفران نصف درهم، مسك قيراط تجمع هذه الأدوية مسحوقة، وتخلط بدهن البان ويتحمل بها.

---

(١) في الأصل (الطوسا).

(٢) في الأصل (الباذروج).

الباب الثالث
من الجملة التاسعة من الجزء الثاني
في تعرف مزاج رحم المرأة

من الواجب على المستديم لمعاشرة المرأة أن يكون عالمًا بمزاج رحمها؛ لئلا يستعمل أحدهما بعض اللطوخات أو بعض المسوحات الضارة لها، وإن كان بها حكة الرَّحِم، والأبنة التي تحدث للنساء كان في إغفال ذلك أعظم الجنايات؛ لأنه إذا تقدمت عند المعرفة بذلك، تعمد معالجته بما يشفيها.

ونحن نذكر الآن دلائل أمزجة الرحم:

دلائل حرارة الرَّحِم: يدل عليها مشاركة البدن في الحرارة، وقِلَّة الطَّمْث، ويدل عليه لون الطَّمْث خصوصًا إذا أخذ على قطنة أو خرقة كتان ليلة ثم يجفف في الظل؛ فينظر هل هو أحمر أو أصفر؟ ويدل على حرارة وصفراء أو دم أو هل هو أبيض أو أسود؟ فيدل على ضد ذلك، ولكن الأسود مع النتن العفن يدل على حرارة وما سواه من الأسود دليل برودة، وقد يدل على حرارتها بأوجاع نواحي الكبد وخراجات وقروح تخرج في الرَّحِم، وكثرة الشعر وانصباغ بول المرأة في الأكثر وسرعة النبض.

دلائل برد الرَّحِم: احتباس الطَّمْث أو قِلَّته ورقته أو بياضه وسواده السوداوي في تطاول الظهر، وتقدم أغذية غليظة باردة، وتقدم جماع كثير، وحذر في أعالي الرَّحِم، وقِلَّة الشعر في الرَّحِم، وقِلَّة صبغ الماء وفساد لونه.

دلائل الرطوبة: رقة الحيض، وسيلان الرطوبة، وإسقاط الأجنة كما يعظم دلائل اليبس قِلَّة السيلان والجفاف.

دلائل شقاق الرَّحِم: يدل عليه الوجع عند الجماع، وخروج الذَّكَر داميًا؛ وسببه إما يبس بطن أعلى الرَّحِم خصوصًا عند الولادة، وإما الورم متقادم، وقد يغلظ الشقاق، ورُبَّما صار كالثآليل، وإن اندمل الموضع.

دلائل القروح: يدل عليها الوجع، وخصوصًا إذا كانت على فم الفرج أو قريبة منه يدل عليه سيلان المِدَّة والرطوبات المختلفة اللون والرائحة والضرر بما يرخي من الأدوية والانتفاع بما يقبض.

وعلامة السقيه من القروح أن يكون الَّذِي يخرج إلى غلظ وبياض وملائمة ووجع شديد وبين ولدغ، وعلامة ذلك أنها وضرة وسخة كثيرة الرطوبات واللقوة الحادثة بالرحم وهي التي يسميها الأطباء سيلان الرَّحِم، فلسنا نذكر من أمرها سببًا؛ لأن المطرقين والعقلاء إلى مجانبة هذه العاهات، والهرب منهم أقرب منهم إلى مزاولة الطمع فيما يستحيل من علاجهم.

* * *

onekandl.com

الباب الرابع
من الجملة التاسعة من الجزء الثاني
في مداواة النـزف والاستحاضة والسيلان

يُحتاج إلى استقصاء النظر في علاج هذا المرض؛ فكم من متحابين فرق بينهما هذا المرض، وجعلهما على أشدِّ قلق، والإفراط في سيلان الطَّمْث إن كان دفعًا من الطبيعة؛ فعلامته ألا يصحبه أذى؛ وإنما يؤدي إلى المنفعة، ولا يغير القوة، وأكثر ما يُعرض للميتعمَّات.

وأما ما كان سببه الامتلاء العام دفعته الطبيعة أو غلب فاندفع، فعلامته احمرار الجسد والوجه ودور العرَق، وغير ذلك من علامات الامتلاء، وقد يكون معه وجع، وقد لا يكون معه، وما لم يَضعف يُحبس ويعرف الغالب مع الدم بأن يجفف الدم، ويتأمل لونه هل هو إلى البياض والصفرة أو سواد أو قرمزية؛ فيُستفرغ الخلط الَّذِي غلب عليه أيضًا.

وأما الكائن بسبب ضعف الرَّحِم، وانفتاح عروقه يدل عليه خروج الدم صافيًا غير مؤلم، وإن كان بسبب حدَّة الدم عُرف بلونه وحرقته، وسرعة خروجه، وقِلَّة انقطاع خروجه، وإن كان برقة الدم لاستيلاء الرطوبة، والمائية عليه كان الدم مائيًا غير حاد، ويتضرر بالقوابض، ورُبَّما ظهر عليها كالحبل أو كالطلق، فتقع رطوبة.

وأما الكائن عن القروح؛ فيكون مع وجع، وأما الكائن عن الأُكلة؛ فيكون خروجه قليلاً قليلاً أسود كالدُّردي، إذا كان عن الأوردة دون الشرايين، وإذا كانت الأُكلة في عنق الرَّحِم كان اللون أقل سوادًا، وإذا كان هناك أو عند فم الرَّحِم أمكن يُمسَّ، وعلامات بواسير الرَّحِم ظاهرة، ويكون الدم في الأكثر أسود إلا أن يكون عن الشرايين، ورُبَّما كان الباسوري قطرة قطرة، وكثير ما يصحب البواسير في الرَّحِم

صداع، وثقل رأس، ووجع في الأحشاء والكبد والطحال؛ فإذا سال الدم من تلك البواسير برأ.

فأما النـزف الكائن على سبيل دفع الطبيعة، والكائن عن الامتلاء، وثقل الدم عن البدن؛ فينبغي ألا يُحبس حتى يخاف ضعف، ورُبَّما كان معيبًا في علاج ما كان من الحدَّة الصفراوية إسهال الصفراء بمثل الشاهترج والأهليلج[1] الأصفر لما فيه من القوة القابضة، وإن كان السبب المائية فسُقي صمغ عربي وكثيرًا، وإن كان السبب ضعف الرَّحِم جُمع إلى الأدوية المقبضة أدوية مقوية بعطرها أو خاصيتها كالزغفران والقرنفل والطيب، وإن كان يسبب قروحًا؛ عولجت بأدوية مركبة من الكثيراء والجُلنار واللُّبان مع الأفيون والطين المختوم.

وأما النزف الحاد فإن لسان الحمل لا نظير له في علاجه، ورُبَّما قطع النـزف ضمادًا، وهو ينفع من المزمن وغير المزمن، وشرب الخل أيضًا، واستعمال الكافور شربًا وضمادًا، ورب حُمَّاض الأترج نافع جدًّا، وكذلك سقي الصمغ العربي مع الكثيراء، وبزر الكتان بالماء الحارِّ، والطباشير بالكافور نافعة لها جدًّا، وأقراص الجلنار بالغ النفع يوميًّا، وطين مختوم، وطين أرمني، وشبت، ومن دم الأخوين بالسوية يؤخذ من جملتها وزن درهم، ومن [...] وزن حبتان، ومن السكر وزن دانق يداف في شراب الآس.

صفة أخرى: أقاقيا وجُلنار وعَفص وراسن وساذنج وكندر يعجن [بمركب] قوي [.....] نصف درهم.

دواء آخر جيد جدًّا: زاج الأستاكفة وجفن البلوط ومر وكندر وأفيون، يجعل حارًا، ويُسقى منه درهم.

---

(١) الإِهْلِيلَجُ، وقد تكسرُ اللامُ الثانيةُ، والواحدةُ بهاءِ تَمْرٌ م، منه أَصْفَرُ، ومنه أَسْوَدُ، وهو البالغُ النَّضيجُ، ومنه كابِلِيٌّ يَنْفَعُ من الخَوانِيقِ، ويَحْفَظُ العَقْلَ، ويُزيل الصُّداعَ، وهو في المَعِدَةِ، كالكَذْبانونَةِ في البيت، وهي المرأةُ العاقلَةُ المُدَبِّرَةُ.

دواء غيره: يُشرب من الودع المحرق[١] وزن درهمان بماء السُّماق والسَّفرجل، ويجعل هؤلاء قبل أن يضعها، وهي الهريس والمصوص من لحم الجداء، والطير الجبلي، والمطحنات والقديدات لحامضة يأكلها باردةً، ويجتنب كل طعام حار بالفعل والقوة.

وأما النـزف الكائن بسبب رطوبة الدم ومائيته؛ فالوجه في علاجه إدرار العرق، وإدرار البول.

آخر مطبوخ هذه صفته: بزر كرفس درهمان، حاشا[٢] درهم، أنيسون درهم، رازيانج درهمان أسارون[٣] درهم ونصف فوة[٤] درهمان، تطبخ مرضوضة في رطل

(١) قال بعض الأطباء: هو صنف من المحار يشبه الحلزون الكبير إلا أنه أكبر وخزفه أصلب وكلاهما يدخل في علاج الطب محرقاً وغير محرق وبعضهم يسمي هذا سوار الهند.
البصري: لحمه صلب عسر الإنهضام فإذا انهضم غذى غذاء جيداً ولين الطبيعة وإذا أحرق الودع تتولد فيه حرارة ويبوسة وجلاء البهق والقوابي وجلاء البياض من العين وجلاء البصر وإذا دق لحمه ناعماً واستعمل نشف الرطوبات الحادثة في الأعضاء المترهلة وهو صالح لأصحاب الحبن ولزيادة تجفيف كثير وتسخين يسير، فإذا شرب بشراب أبيض نقى القروح الكائنة في الأمعاء قبل أن تحدث فيها عفونة. انظر: الجامع لمفردات الأدوية والأغذية - (٢/ ٢٢٢).
(٢) يعرف بصعتر الحمير وهو كثير بأرض بيت المقدس وما والاها.
جالينوس في السادسة: يقطع ويسخن إسخاناً بيناً فهو لذلك يدر الطمث والبول ويخرج الأجنة ويفتح سدد الأحشاء وينفع النفث من الصدر ومن الرئة ومن أجل ذلك ينبغي أن نضعه من التجفيف والأسخان في الدرجة الثالثة.
ديسقوريدوس: وإذا شرب بالملح والخل أسهل كيوساً بلغمياً مائياً وإذا استعمل طبيخه بالعسل نفع من عسر النفس الذي يحتاج معه إلى الإنتصاب ومن الربو وإخراج الدود الطوال وأدرّ الطمث وأخرج المشيمة والأجنة وهو يدر البول وإذا عجن بالعسل ولعق سهل نفث الدم والفضول التي في الصدر وإذا تضمد به مع الخل حلل الأورام البلغمية الحديثة وهي تحلل الدم المنعقد وتقلع النمش والثآليل التي يقال لها أفرحودونس وإذا خلط بالسويق وعجن بالشراب ووضع على عرق النسا وافقه وإذا طرح في الطعام وأكل نفع من ضعف البصر وقد يصلح استعماله في وقت الصحة.
(٣) في التجربيين: الأسارون يسخن المعدة والكبد ويخرج رطوبتهما الفضلية بإدرار البول وتليين الطبيعة وتفتيت حصا الكلية وينفع من أوجاعها وينقي مجاري البول من الأخلاط اللزجة المولدة للحصا فيها.
(٤) قال جالينوس في السادسة: هذا دواء أحمر يستعمله الصباغون وهو مر الطعم، ولذلك صار ينقي الكبد والطحال ويفتح سددهما ويدر البول الغليظ الكثير، وربما بول الدم ويدر الطمث ويجلو جلاء معتدلاً في جميع الأشياء المحتاجة إلى الجلاء فهو لذلك ينفع من البهق الأبيض إذا

ونصف ماء حتى يبقى منه نصف رطل، ويُسقى على عشر درهم شراب الأصول، ويُشرب بالغداة الرازيانج الأخضر وبزره يابسًا والأنيسون، وينفعها الهرائس والجُبن والأغذية الغليظة والشواء.

وأما النزف الكائن عن القروح: فعلاجه هذا المرهم: يؤخذ جُلَّنار ومُرداسنج[1] يُتَّخذ منهما.

ومن الشمع قيروطي[2] بهن ورد، ويُتحمَّل.

صفة دواء الاستحاضة: أبْهُل عشرة دراهم، بزر نعناع درهم، بزر الرازيانج درهمان، يجعل في قدر، ويُصبّ من الشراب الصرف عليه رطلان، ويُطبخ حتى

طلي عليه مع الخل، وفي الناس قوم يسقون منه أصحاب عرق النسا ووجع الورك ومن عرض له استرخاء في أعضائه يسقونه إياه بماء العسل.

ديسقوريدوس: وله قوة بها يدر البول، ولذلك إذا شرب بالشراب الذي يقال له مالقراطن نفع من اليرقان وعرق النسا والفالج المسمى قرابيس، وقد يبوّل بولاً كثيراً غليظاً، وربما أبال الدم، وينبغي للذين يشربونه أن يستحموا كل يوم، وإذا شرب بعض أغصانه بورقه نفع من نهش الهوام وثمره إذا شرب بسكنجبين حلل ورم الطحال وعرقه إذا احتمل أدر الطمث وأحدر الجنين، وإذا تلطخ بالخل على البهق الأبيض أبرأه.

الدمشقي: القوة حارة في الدرجة الثانية تنقي الطحال والكبد وتنقي الأعضاء وتنفع إذا عجنت بخل من البرص. انظر: الجامع لمفردات الأدوية والأغذية (٢ / ٢٨).

(١) وهو المرتك. قال ديسقوريدوس في الخامسة: منه ما يعمل من الرمل الذي يقال له موليدانيطس ومعنى هذا الاسم الرصاصي وإنما يعمل منه بأن يؤخذ فيحمى حتى يصير ناراً ومنه ما يعمل من الفضة ومنه ما يعمل من الرصاص وأجوده ما كان من البلاد التي يقال لها أشبانيا وبعده ما كان من البلاد التي يقال لها أرخيااوفيا والذي من الهند وبعده الذي من صقلية وقد يكون في هذه المواضع لأنه يعمل من صفائح رصاص تحرق ومنه ما لونه أحمر وهو صقيل ويقال له: حورسطس ومعناه الذهبي وهو أجود أصنافه وبعده الفضي وبعده ما يعمل من الرصاص ومنه ما لونه إلى الفرفيرية، ويقال له: أرخوسطس ومعناه الفضي والذي يعمل من الفضة يقال له أريونيطس وقلويدس، فأما الذي يعمل من الرصاص فإنه يقال له موليدنيطس.

(٢) هو مرهم معروف عند الأطباء يتخذ من الشمع المذاب رفي دهن الورد أو اللوز أو البنفسج ونحوها.

ينتصف ثم يُلقى عليه من الأنـزروت[١] درهمان، ومن الحضض[٢] درهمان، ومن سمن البقر ملعقة، ومن العسل ملعقة، ويسقى منه على الريق قدر ملعقة، ويؤخَّر الغداء إلى العصر، يُفعَل ذلك ثلاثة أيام.

وأما علاج السيلان: فإن كان مسَّا عُولج بما يُعالج به ذلك الرجال من الأدوية المجفِّفَة للمنيِّ - ونحن نذكرها فيما بعد - وإن كان بالسيلان رطوبات عفنة؛ فالصواب تنقية البدن بالفصد والأسهال إن احتملت القوة، [....] يحقن الرَّحِم أولاً بالمنقيات المجففة كالماء الَّذِي طبخ فيه أصل السوس الأزرق والفراسيون والفُودنج والقليل من العسل، ودلك الساقين بأدهان ملطِّفة مع أدوية حادَّة مثل دُهْن الإذخر بالعاقر قرحا والفلفل، ثم يتبع ذلك بالقَوانص محقونة ومشروبة والمحقونة أعمل بعد الاستفراغ، وهي المياه التي يُطبخ فيها العفص والجُلَّنار وقشور الرمان والإذخر والآس.

---

(١) صمغ شجرة تنبت في بلاد الفرس شبيهة بالكندر صغيرة الحصا في طعمه مرارة لونه إلى الجرمة. ابن سينا: هو صمغ شجرة شائكة.

جالينوس في الثامنة: قوته مركبة من قوتين: إحداهما مسدّدة لا حجة، والأخرى فيها بعض المرارة ولذلك صار يجفف تجفيفاً لا لذع معه، وبهذا السبب يقدر أن يلحم ويحمل الجراحة الحادثة عن الضربة.

ديسقوريدوس: وله قوة ملزقة للجراحات تقطع الرطوبة السائلة إلى العين ويقع في أخلاط المراهم وقد يغش بصمغ يخلط به.

الطبري: إنه يجبر الوثي ويلحم القروح وينقيها مع العسل، وإذا سحق بياض البيض أو باللبن وجفف ثم سحق ذروراً نفع من الرمد.

(٢) شجرة مشوكة لها أغصان طولها ثلاثة أذرع وأكثر عليها الورق وهي شبيهة بورق شجر البقس ملزز ولها ثمر شبيه بالفلفل أسود ملزز مر المذاق أملس وقشر الشجر أصغر شبيه بالحضض المدوف بالماء ولها أصول كثيرة ذاهبة في جانب خشنة ويكون بالبلاد التي يقال لها ماقدونيا، والبلاد التي يقال لها لوقيا، وفي أماكن أخر كثيرة.

الباب الخامس
من الجملة التاسعة من الجزء الثاني
في احتباس الطَّمْث

من وقعت إليه المرأة الموافقة والجارية الحسناء أن يُعنى بحفظ صحتها، ومن أهم ما حُفظت به صحة أبدان النساء جريان حيضهن في أوقاته؛ فإنه متى احتبس أدَّى إلى أمراض صعبة خطرة؛ فعلامة ما يحبسه البرد ثقل النوم، والشخير فيه، وبياض لون الجسد، وخضرة الأوراد، وتفاوت النبض، وبرد العرَق، وكثرة البول، وبلغمية البراز.

وما كان من الحرارة دلَّ عليه الالتهاب، وجفاف الرَّحِم، وسائر علامات حرارته التي ذكرناها، ويؤكِّد هُزال البدن وخلاء العروق والعلاج فصد الصَّافن والعِرق، والذي خلف العقب، وفصد عِرق الركبة والحجامة على السَّاق والكعب ثم استعمال الفودنج بماء العسل، وطبيخ الأبهل، والدار صيني، والعسل.

نسخة حمول جيد: مر، وفودنج من كل واحد أربعة دراهم، وأبهُل ثمانية دراهم، سذاب يابس عشرة دراهم، زبيب منقًّى منـزوع العجم عشرون درهمًا، تعجن بمرارة البقر، وتتخذ فزرجات، وكذلك الجاوشير والحلتيت والسكبينج والقردمانا، والجلوس في طبيخ الفوذنج، والسذاب ونحوها يُدِرُّ الطمث.

* * *

الباب السادس

من الجملة التاسعة من الجزء الثاني

في مداواة قروح الرَّحِم وشقاقها

إن كانت القرحة عتيقة؛ فعلامة ذلك سيلان الرطوبات الصديدية من الرَّحِم يفتتها أولاً بماء العسل مزروقًا بالزراقة، وبطبيخ الإبرسا، وإن كان سيئ الحال؛ فيحتاج إلى تنقية البدن بمسهل، واستعمال المراهم النافعة للآكال، وإصلاح الغذاء، وإن كانت القرحة مع ورم؛ عولجت بعلاج الأورام.

صفة مرهم نافع للقروح قبل أن ينبت فيها لحم: مرتك وأسفيذاج وأنـزروت أجزاء سواء يتخذ منها قيروطي بالشمع ودُهْن ورد، وإن كان هناك وضَر جُعل فيه قليل زنجار؛ فإذا أخذ اللحم وخدش ذلك عولج بهذه المراهم توتيا مغسول جزءان أقاقيا الفضة أسفيذاج الرصاص، وأنـزروت من كل واحد جزء، ويتخذ منه قيروطي بدهن ورد وشمع.

* * *

الباب السابع
من الجملة التاسعة من الجزء الثاني
في مداواة حكّة الرَّحِم وآفته

قد تُعرض في الرَّحِم بسبب أخلاط حادة صفراوية ومالحة بورقية أو أكالة سوداوية بحسب ما يظهر من أحوال لون الطمث المجفف، وبثور متولدة منها أو مَنِيّ حار جدًّا، ورُبَّما أفرطت الحكة حتى أسقطت القوة، وقد يُعرض لتلك المرأة ألا تشبع من الجماع، ويصيبها البغاء، وكلما جومعت ازدادت شرًّا؛ وعلاجه تنقية البدن بالفصد من الباسليق واستفراغ الصفراء بالسقمونيا والبلغم بحب الأصطخيقون، والسوداء بحب الأفتيمون[1] وطبيخه في أوقاتٍ مختلفة، ويكسر حدَّة المَنِيِّ بالأدوية المبردة، ويلطخ فم الرَّحِم بالأقاقيا والورد والصَّندل وشياف ماميثا[2]، [.....] والخل ودُهن الورد ومثل عصارة البقلة الحمقاء، وينطل بمياه طبخ فيها العفص والجُلَّنار ويضمَّد بثفلها.

حُمول مجرَّب للحكَّة: ورق النعناع وقشور الرمان وعدس مقشَّر مطبوخة بنبيذ تُحمل.

حُمول آخر: زعفران وكافور من كل واحد دانق، مُرداسنج دانقين حب الغار نصف درهم ينخل، ويُعجن ببياض البيض ودُهن ورد، وشيء من الشراب ويحتمل.

---

(١) قال بولس: وأما الأفتيمون فهو شيء يتكوّن على الصعتر ويسهل قريباً مما يسهل الأفتيمون إلا أنه أضعف منه. لي: هذا هو الأشموز المعروف في زماننا هذا وقبله أيضاً عند أئمة هذا الفن وهو المجلوب من أقريطس، ومن البيت المقلص أيضاً بلا شك ولا مرية فيه فليعلم ذلك لا يعرف سواه.

وقال الرازي: وبدله في إسهال المرّة السوداوية وزنه تربد وربعه حاشا وقال غيره بدله حاشا بوزنه ونصف وزنه.

(٢) قال الرازي: ينقي مجاري الكلى والبول ويصفي الحلق.

ابن سينا: جيد للقروح العفنة في اللثة والقلاع في الفم وريق ماضغه يلذذ المنكوحة.

غيره: يقوي المعدة والأعضاء الباطنة شرباً.

الشريف: إذا أمسكت في الفم حسنت اللثات وتطيب النكهة وتعطر الأنفاس وتتصرف في كثير من الطيوب ويخرج الحصاة من الكلى والمثانة.

الجملة العاشرة من الجزء الثاني
في الأسباب القاطعة عن الباءة من جهة المرأة

رأيتُ بحصن كيفا رجلاً من ذوي السل، وكانت زوجته على مثال من صفة العجوز الرَّعناء، وكان يراعيها، ويكره إغضابها لأجل ابنتين كبيرتين كانتا له منها، فطال عليه احتماله ذلك مع شدَّة ترصُّدها التَّطلع على أحواله وحجرها عليه من التَّسرِّي والتزويج، وكان مصفَّر اليدين من العين؛ لأنه كان متلافًا للمال، ولم يزل إخوانه وخِلانه يُظهرون له غلظة في استسلامه إليها إلى أن أغضبها، فلحقت بأهلها مطلَّقة، فأنفذ إليها بغلتين نفيستين كانتا له، وكَّلَها على بيعها، وقبض صداقها؛ فقبضت ذلك وأحجمت عن بيعه رجاء العودة، فأبطأت عليها فباعته، وقبضت الثمن، وتعَوَّض عنها بفتاة ناهد، والشفاعات من الأكابر والمراسلات والوسائل ترادف عليه، وهو يتصَامم عن بعضٍ، ويعتذر إلى بعضٍ، حتى عادت بعد استحكام راضية بالشريكة، ولست أيدك الله ذاهبًا إلى تجديد الفراش سعادة أو مصلحة، وإنما استخرت من لا ينفك من أمر يكرهه، وكان هذا الرجل من أكثر الناس افتتانًا بالصور الجميلة، وأعظمهم تمنِّيًا للصور الحسان، والعلاج المشترك لهذا السبب، وبقية الأسباب المشتركة التعوُّض عن المكروه بالموافق، وعن النافر بالملائم.

* * *

الجملة الحادية عشر من الجزء الثاني

في ذكر المفردات القاطعة عن الباءة

العدس وماؤه وخصوصًا بالشهدانج[1]، والنيلوفر، والكزبرة، وبزر بقله، وعصارة القصب الرطب، وماء الودع الشديد الحموضة، ودقيق البلوط والخل، والرمان الحامض، والسماق، وبزر الخس.

ومن الأدهان؛ فالزيت مقلل للمنيِّ، والتصيد بالطحلب، وحشيش السيكران، والسبح، وغير ذلك من المتردات تجعل على الأنثيين والمقعدة.

ومما جرِّب أن من أكثر المشي حافيًا نقصت شهوته أو سقطت، والشونيز المقلو وغير المقو، وبزر الشبت، وبزر السذاب، والفودنج، والحندقوقي، والكُمون، وشد صفائح الأشرب على الظهر مضعف للباءة.

وكذلك لبس الخشن، والتفات النفس عن عالم الطبيعة إلى عالم العقل شاغل عن الباءة.

وكذلك تذكر المعاد، والفكر فيما بين يدي المرء مِمَّا هو كل لحظة مستقبلة، وساعٍ

---

(١) وهو القنب، وبزر هذا النبات يطرد الرياح ويحلل النفخ ويجفف تجفيفاً يبلغ من قوته أن الإنسان إذا أكثر منه جفف المني وقوم آخرون يعصرون ذلك وهو طري ويستعملونه في مداواة وجع الأذن وأحسبهم يداوون به الوجع الحادث عن شدة.

ابن سينا: رديء الخلط قليل الأذى والغذاء.

إسحاق بن عمران: هو عسر الإنهضام رديء للمعدة مصدع والدم المتولد منه راجع إلى الصفراء ويصير له بخار يورث الصداع ويعقل البطن ويدر البول.

إسحاق بن سليمان: والمقلو من حبه أقل ضرراً، وربما يدفع ضرره أن شرب بعده السكنجبين السكري، وأما ورقه فإنه إذا دق وغسل بمائه الرأس نقى الأبرية من أصول الشعر.

قال الرازي في كتاب دفع مضار الأغذية: يصدع ويظلم البصر ويمنع ذلك منه شرب الماء البارد وقضم الثلج عليه أو الأخذ من الفواكه الحامضة.

إليه من الموت الَّذِي نغَّص أبناء الدنيا متى ذكره، وتصور فراق البدن، وانحلال هذه البنية التي تعيِّرها، وفساد صورة هذا الهيكل، وتصور انحلال أجزائه، وانتقاض تركيبه، ونتن ريحه، ومصيره ترابًا.

وحال النفس المعتكفة على الأباطيل المفتتنة بزخارف الملاذ الفانية المحجوبة عن عالم النور المستقبلة لأهوال القيامة، ويتصور اللذات بالجماع الَّذِي لا طائل في مدالكيه، وما يؤثره في بدنه من تحليل الحرارة الغريزية.

فقد قيل: ما جامع عاقل إلا وندم عند الإنـزال على مكروه يتوقعه من عقاب أو عار أو خسارة مال أو ضرر بدنه.

والإضراب عن الجماع مِمَّا يلهي عنه، ويقطع الحاجة إليه، والتشاغل بالأمور المهمة، وقراءة الكتب الملهية، والنظر إلى الوجوه السمجة.

بلغني أن أعرابي جلس بين شعبتي امرأة، وهمَّ بها؛ فقال: إن امرءًا باع جنة عرضها السماوات والأرض بقليل ما بين رجليك لقليل النظر بالمساحة؛ فنـزل عنها.

وقيل: إن العبادي تمكَّن من امرأة، فتفكَّر في شيء من هذا، ففترت شهوته، واسترخى متاعه؛ فقالت المرأة: قم يا خائب! فقال العبادي: الخائب من فتح جرابه، ولم يكل فيه.

ولما قُتل مروان بن محمد آخر ملوك بني أمية، جاء عامر بن إسماعيل، فوقف على بابه، فخرج إليه خادم مروان؛ فقال له عامر: هات المفاتيح؛ فقال: إن أمير المؤمنين - يعني: مروان - أمرني ألا أسلِّم المفاتيح إلا إلى أمير الجيش إذا حدث به حادث الموت، فأخذها عامر، ودخل فجلس على فُرُش مروان، والشموع تزهر ليلاً، ثم دعا بعشاء مروان الَّذِي كان أُعِدَّ له، ودعا بابنة مروان عبدة، فأجلسها عنده.

فقالت له: يا عامر، إن دهرًا أنـزل أمير المؤمنين عن فُرُشه، وأجلسك عليه، حتى تأملت وجهي، وقد كانت الأبصار تنقطع دون هودجي لدهرٍ، ينبغي لك أن تأمنه، فاستحيا عامر، وقال لها: انصرفي، وبلغ ذلك السفاح.

فكتب إلى عامر أنه بلغ إلى أمير المؤمنين ما كان منك في الليلة التي قُتل فيها مروان، ومن عبدة ابنته، ولولا أنَّ أمير المؤمنين يحب أن تصبح أموره بالعفو لكان أولى الأمرين بك التأديب، ويحك! أما كان لك في سنِّك وتجربتك ومعرفتك ما حجزك عن الاستضاءة بمصابيح مروان، والنوم على فُرُشه، ومسامرة ابنته حتى وعظتك صبيَّة، وبعثتك على مكارم الأخلاق، وترك الاغترار بانقلاب الدُّول والأيام، وما علِمت أنها لم تبق على أحدٍ؟

وروي أنَّ الحسن بن الحسن البصري مرَّ بقوم فيهم شاب يُكثر الضحك، فوقف عليه الحسن، وقال: يا فتى، عبرت الصراط؟ قال: لا، قال: ففيم هذا الضحك؟ فقلَّ ما رئي ذلك الشاب بعدها ضاحكًا.

* * *

الجملة الثانية عشر من الجزء الثاني

في تركيب أغذية وأدوية وأطلية تقطع عن الباءة

صفة سفوف تخفف المَنِيَّ، وتقطع عن الباءة: بزر الخس، وبزر البنج، وبزر الخيار، وبزر الهندبا[1]، وبزر قطونا غير مدقوق، وكُسفَرَة يابسة، ولينوفر مجفف يدق الجميع سوى بزر قطونا، وتُتخذ سفوفًا، والشربة منه ثلاثة دراهم كل يوم بماء طبيخ فودنج أو ماء سذاب.

صفة سفوف آخر يقطع عن الباءة: بزر بنج انكشت خمسة دراهم، بزر السذاب درهمان، بزر الشبت درهمان، شوينـز درهم، كمون درهمان، بنج درهم، تُجمع مسحوقة منخولة، وتُدق وتُسف منه كل يومٍ ثلاثة دراهم مدة سبعة أيام.

صفة لطوخ تقطع عن الباءة: مرداسنج، وقيموليا[2]، وأسفيداج مغسول محرَّق

---

(١) هذا النبات منه بستاني، ومنه بري. والبري هو مائي واليبوسة في الدرجة الأولى.
وأما البستاني فهو أبرد وأرطب. والدليل على ذلك طعمه قبضا مع مرارة ، والقبض فيه أغلب من المرارة. وهذا الدواء هو في غاية من منفعته للكبد.

(٢) قال ديسقوريدوس: هو نوعان أحدهما أبيض والآخر فيه فرفيرية وهو دسم وإذا لمس وجد بارد المجسة وهو أجود النوعين.
جالينوس: وقوته قوة مركبة وذلك أن فيه شيئاً يبرد وشيئاً يحلل بعض التحليل ولذلك صار متى غسل خرج عنه هذا الجزء المحلل ومتى لم يغسل فإنه يعمل بالقوتين كلتيهما وإذا طلي به موضع حرق النار من ساعته بعد أن يخلط معه خل نفعه وينبغي أن لا يكون الخل ثقيفاً جدًا وإن كان على هذه الصفة فالأجود أن يخلط معه ماء قليل وكذلك يفعل كل طين خفيف الوزن أعني ينفع من حرق النار إذا طلي من ساعته بالخل والماء ويمنعه من أن يحدث في المواضع نفاخات.
ديسقوريدوس: وإذا ديف كلا النوعين بخل ولطخت به الأورام العارضة في أصول الأذان وسائر الجراحات حللها وإذا لطخ كل واحد من النوعين على حرق النار في أول ما يعرض نفع منه ومنع الموضع من التنقط وقد يحلل كل واحد منهما الأورام الجاسية العارضة في الأنثيين والأورام الحارة العارضة في جميع أعضاء البدن والحمرة وبالجملة ما كان من هذا الطين خالصاً فإنه كثير المنافع.
ابن حسان: أهل البصرة يسمون طين قيموليا الطين الحر وأصنافه كثيرة ومنه أرمني ومنه سلجماسي

أجزاء سواء، يخلط بخلٍّ، ويطلى به أسفل الظهر والعانة.

الطبائخ القاطعة عن الباءة: إدمان السُّماقيات الحامضة، والخضِريات، والرُّمانيات الحامضة، والمصوص، وخصوصًا ما جُعل فيه السذاب.

* * *

= ومنه أندلسي والأرمني لم نره بعد وهو أجود الكل وبعده السجلماسي وهو أفضل في العلاج من الأندلسي وهو أبيض شديد البياض صلب الجرم مكتنز الأجزاء لا ينكسر بسرعة ولا ينحل في الماء إلا بعد برهة غير أنه إذا انحل ففيه من اللزوجة أكثر مما في غيره والأندلسي صنفان أبيض وأسود رديء والأبيض الشديد البياض وهو الذي نستعمله في العلاج والأسود رديء لا يصلح له ولا يتصرف في شيء منه. محمد بن عبدون: الطين الحر هو الطين العلك الخالص من الرمل والحجارة.

علي بن محمد: الطين الحر هو الخالص من الرمل وربما خصوا بهذا الإسم طين شيراز لنقائه وتداخل أجزائه وهو طين رخص شديد الرخوصة لونه أخضر مشبع الخضرة أكثر خضرة من الطفل حتى أن خضرته تقرب من خضرة الزنجار وإذا دخن بقشر اللوز ليؤكل احمر لونه وطاب طعمه وقلما يؤكل غير مدخن.

علي بن رزين: والطين الحر بارد يابس في اعتدال جيد لجميع أنواع الحرارة إذا أنقع ووضع على الموضع الذي فيه الحرارة وقال في كتاب الجوهرة: الطين الحر يطلى بالخل على لسع الزنابير فيسكنه.

ابن سمحون: وقال بعض الأطباء: وبدل طين قيموليا إذا عدم وزنه من طين مصر. ديسقوريدوس: ومن أصناف الطين صنف يقال له قسلس عنى ومعناه في اليوناني الطين الخناقي وهو طين لونه شبيه بلون الطين الذي يقال له أراطرباس وهو عظيم المدر بارد المجس فإذا ألصق باللسان اشتدت لزوقته فتعلق باللسان وهو مثل العسل وقوة هذا الطين شبيهة بقوة الطين الذي يقال له قيموليا إلا أنه أضعف منه بقليل ومن الناس من يبيع هذا الطين بحساب الطين الذي يقال له أراطرباس على جهة التدليس. جالينوس: قوته شبيهة بقوة القيموليا وأما لونه فبعيد جداً من لونه لأنه أسود مثل الطين الكرمي وله من اللزوجة مثل ما لطين ساموش أو أكثر.

obeikandl.com

الخاتمة

وإذ قد أتينا بشرح ما وعدنا بشرحه في هذا الكتاب؛ فلنختم المقال بحمد الله على جزيل فضله، وجليل لطفه، وجميل صُنعه، والصلاة على هادي الأمة محمد المصطفى صلوات الله عليه، وعلى آله الأكرمين صلاةً باقيةً إلى يوم الدين.

ثم بالاعتذار إلى لبيب يتصفَّحه؛ فيستطيل إلى ما أسهبتُ في شرحه، بالإضافة إلى ما يُستحسن الاقتصار عليه، أو يستقل حجم ما اخترت إنجاز الكلام فيه؛ فيقول: إن مصنِّفَ هذا الكتاب قد أطال، وأضجر بإسهابه في هذا الباب البطَّال، أو يقول: قد أخلَّ في هذا الباب بحكاية فلانة أو أبيات فلان، وكان ينبغي أن يضيف إلى هذه الجملة معجوز فلان، ولعل المصنف لم يطالع الكتاب الفلاني، فاعتمد على قريحته فاستكدَّها.

وكلٌّ رجح في عقله على ما أنابت قريحته، ومن تطلب المعاثر، ووقف مع الظاهر لا عدم بينًا يراه، لكنه عالَم يستقبحه سواه، فلو اتفقت الآراء والقوى والأهواء لكان ما أتى به الناس جميعًا سواء، وشيئًا واحدًا على أني ما أطلت بأصول ما يتعلق بهذا التأليف مع إنجازه، ولو قصدت إيراد كل ما عندي في أبوابه من الفروع والحكايات والأشعار لخرج الكتاب عن حدِّ ما يخص عند السآمة والملل إلى حدِّ ما يملَّ، ولصار مناسبًا لقول القائل:

نَفِـــرُّ إِلى الـــشَّرابِ إِذا غَصَـــصنا فَكيـــفَ إِذاغَصَـــصنا بِالـــشَّرابِ[1]

ورُبَّ عارف يتصفح أبواب هذا الكتاب؛ فيقول: أضاع مصنف هذا الكتاب

---

(١) البيت من الوافر، وهو للشريف الرضي في ديوانه من قصيدة مطلعها:

إِلى كَـــم لا تَلـــينُ عَـــلى العِتـــابِ وَأَنـــتَ أَصَـــمُّ عَـــن رَدِّ الجَـــوابِ

اجتهاده، وأحبط عمله، وأذهب وقته، وملأ الطروس بأبواب الافتتان، واتساع ما فُتح عليه من العبارة والبيان؛ فليعلم من رُبَّما وقع له ذلك أني ما صنفته إعجابًا بما ضمَّنته ولا افتتانًا بما أودعته، فلست ممن يستحقه صبوة، ولا ممن يعرض له عن حدِّ نبوة.

ولقد ألَّفتُ في العلوم البرهانية والصنائع العقلية ما لم أر لأحدٍ مثله؛ فتقاصرت الهِمم عن تطلبه، واشتغل أهل الزمان إلا من عصم الله بالهزلي، واستولى عليهم حب البطالة، واستخفاف الخلاعة، وتكاثفت الموانع عن الانـزواء عنهم، والهرب منهم، واضطررت وإن لم أعمد في طلمائهم إلى الشرب من مائهم؛ فمكثت أنـزل في تأليف ما أؤلفه درجة بعد درجة من الأعلى والأصعب إلى الأدنى والأقرب في سفرٍ بعد سفرٍ، واستعليته بالإضافة إلى الهمم والأذهان المزاولة لحله حتى اكتفت همتي في لزومها الحد وهممهم كطرفي نقيض؛ فرأيت أقرب الطرق إلى استدراجهم إلى الفضيلة، وآخراها بحديثهم إلى ملاحظة [.....][1] الحكمة، والشعور بِمَّا فاتهم من المعرفة أن أتوسط بفكري [..] [2]ما خاضوا فيه، ومال بهم طبعهم إليه، وقصروا أوقاتهم عليه، فإنني لم أخليه من فوائد جدية، ومواعظ مجلاة للقلوب الصدية، ولا [..][3]عن نصيحة نافعة، وعبرة رادعة، وتثقيف وأدب، وأستغفر الله بِمَّا يحبط العمل لديه، وأستوفقه لما يقرب إليه.

تمَّ الكتاب بحمد الله وحسن توفيقه، والحمد لله وحده، وصلواته على سيدنا محمد، وآله الطيبين الطاهرين، وصحبه الأكرمين، وسلم.

وافق الفراغ منه يوم الخميس ثامن عشر من ذي الحجة من سنة ثلاث وثلاثين وسبعمائة.

كتبه العبد المستغفر من ذنوبه إبراهيم الإسرائيلي عفا الله عنه.

---

(١) كلمة بها بطر بالأصل.

(٢) كالسابقة.

(٣) كلمة غير واضحة.